

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجْمَعُ الْمَلَائِكَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الخامس والسُتون بعد المائتين

الآية ١٩٦ سورة آل عمران

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل صالح

أساتذة الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي ملأت آياته الآفاق ، وجعلها حاضرة جليلة في كل آن مع عجز الخلاق عن إحصائها وعدّها لكثرتها اللامتناهية وذات الآفاق الواسعة منها وخفاء شطر منها وتجلّى هذا العجز ومعاني التحدي فيه ، بقوله تعالى ﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١).

وتفضل الله عز وجل وجعل مرآة لبديع صنعه ، بقانون متجدد وهو عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثل القرآن ، قال تعالى ﴿قُلْ لَيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٢).

الحمد لله الذي ألهم العباد الشكر له تعالى على النعم ورضاه سبحانه بقول (الحمد لله) وفرضه على المسلمين على نحو متعدد في كل يوم مقروناً بالتسليم له بالربوبية في ساعة الخشوع والتطامن والخضوع له تعالى في الصلاة.

إذ يتلو كل مسلم ومسلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) ، سبع عشرة مرة في اليوم ، نسأله تعالى أن تكون شكراً له على النعم صادراً منا ومن الناس على النعم المتوالية علينا جميعاً ، وهذا العموم في نيابة المسلمين لغيرهم في

(١) سورة إبراهيم ٣٤.

(٢) سورة الإسراء ٨٨.

(٣) سورة الفاتحة ٢.

الحمد والثناء على الله من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

الحمد لله على اتصال ودوام الطيبات من الرزق وبعث الغبطة في النفوس عند الفوز اليومي بها وفضله تعالى بالصحة والعافية للإنتفاع الأمثل من أيام الحياة الدنيا بآيات ظاهرة تتضمن الدعوة إلى الهداية والإيمان لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢).

ليبان أن الله عز وجل خلق الجن والإنس وتكفل رزقهم على الوجه الأتم والأكمل مع زيادة ونافلة فيه كما يتجلى في أحوال الناس ووفرة الطعام وكثرة الأموال واخبار الأثرياء ، خاصة مع شبكات التواصل الإجتماعي في هذا الزمان وكيف تتراكم أموالهم وتتضاعف بسرعة .

وموضوعية الزكاة والخمس لمحاربة الفقر ومنع حصول المجاعة ، ولإرادة الثواب على إخراج الحقوق الشرعية والتي لا تنقص من أموال أصحابها بدلالة تسمية الزكاة التي معناها النماء والزيادة ، قال تعالى ﴿وَمَنْ

تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾^(٣) ، لما في اتيان الصدقات بقصد القربة إلى الله من النفع في النشاطين .

وهذا الجزء هو **الخامس والستون بعد المائتين** من معالم الإيمان ويختص بتفسير آية واحدة من سورة آل عمران مع قلة كلماتها وهي ﴿لَا

يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٤).

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

(٣) سورة فاطر ١٨.

(٤) سورة آل عمران ١٩٦.

ومن خصائص القرآن تجلي إفاضاته برشحات تتغشى القارئ والمستمع
لآياته بالخير والنفع المحض .

وقد تم تأليف هذا الجزء المبارك من معالم الإيمان ، وعدد كلمات هذه
الآية خمس كلمات والحمد لله .

وكله تأويل واستنباط ، مع إنشاء (١٩٠) قانوناً من مضامين ذات الآية
الكريمة لبيان أن ذخائر وكنوز القرآن من اللامتناهي ، وأقوم بمفردتي بتأليف
ومراجعة وتصحيح كتبي في التفسير والفقه والأصول والحمد لله ﴿لِمِثْلِ هَذَا
فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(١).

في خطاب من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
والمراد أجيال الأمة ، بل والناس جميعاً لمنع الإفتتان بأموال وكثرة أسفار
الذين كفروا والجاه الذي يتمتعون به بين القبائل وفي الأمصار ليكون النهي
الوارد في الآية ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ على وجوه متعددة كما يأتي في باب التفسير.

الحمد لله الذي يعطي الكثير ، ويجعله مستمراً متصلاً على العبد ويزيد
عليه من فضله ، ويرضى الله سبحانه بالقليل من الشكر وهو الذي ﴿يَعْلَمُ
خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢).

وذكر أن داود عليه السلام قال (يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة
منك؟ قال : الآن شكرتني ، حين علمت أن النعم مني)^(٣).

الحمد لله دائماً وأبداً ، وله الشكر على هدايتنا لمقامات الحمد ، الحمد
لله الذي جعل السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع ، وكان النبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم هو الإمام في الحمد لله وتسبيحه ، وقام بترغيب

(١) سورة الصافات ٦١.

(٢) سورة غافر ١٩.

(٣) الدر المنثور ٣٢٥/٨.

المسلمين بقول الحمد لله في نصوص كثيرة ، وأخبر عن حاجة الناس يوم القيامة لقول الحمد لله .

و(عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الطهور شطر الإيمان { والحمد لله } تملأ الميزان ، وسبحان الله تملأ أن تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو . فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها)^(١).

و(عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال رجل : الحمد لله كثيرا ، فأعظمها الملك أن يكتبها ، وراجع فيها ربه عز وجل ، فقليل له : اكتبها كما قال عبدي كثيرا)^(٢).

ومن النعم التي خص الله عز وجل بها المسلمين والمسلمات قول كل واحد منهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) سبع عشرة مرة على نحو الوجوب العيني كل يوم وليلة في الصلاة لتحضر للشفاعة بأعدادها في القبر ويوم القيامة .

اللهم أسالك الفيض والمدد والعون ودوام اللطف والإحسان وفي التنزيل ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾^(٤) ووفقي لإصدار أجزاء كثيرة أخرى من هذا السفر ، وأهدي العلماء للسعي والتأليف لإكماله وفق هذه المنهجية المستحدثة مع زيادة وإبداع منهم خاصة مع الآفاق الرحبة التي فتحتها الذكاء الإصطناعي ويكون هو والعلوم المستحدثة في الأزمنة اللاحقة واسطة استخراج كنوز القرآن ودلائل الإعجاز فيه .

(١) الدر المنثور ١-٢.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٩٧/٥.

(٣) سورة الفاتحة ١.

(٤) سورة طه ٢٥-٢٧.

الحمد لله على نعمة الخلق والإيجاد ، واستدامة العمر ، ومصاحبة الرزق الكريم له في عناية ولطف من الله بكل إنسان وفي كل لحظة من حياته ، فلا يكون شهيق وزفير إلا باذن ولطف من الله عز وجل وهو من مصاديق الحياة الطيبة .

الحمد لله عدد الحركات والسكون ودقات القلب ، وتعاقب الليل والنهار.

الحمد لله الذي هدانا بآية البحث لعدم الإفتتان بما عند الذين كفروا من النعم مع الضمان والوعد منه تعالى بالعوض والبدل ، العاجل والأجل . ولم تمر الأيام على نزول آية البحث حتى دخل أهل الجزيرة العربية الإسلام وصاروا يضربون في الأرض بلباس الإيمان ، ويؤدون الفرائض العبادية ، وباء الذين حاربوا النبوة وقتلوا على الكفر بالخلود في الجحيم . وانقطع الغزو بين القبائل وانتفى الوأد ، لنزول قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ

سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(١) ولعدم خشية العرب من سبي بناتهم ، فتصبح أشهر السنة كلها وكأنها أشهر حرم بفضل الله برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

ليكون من معاني آية البحث ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٣) ، فمنهم من يتوب إلى الله ، ومنهم من يلقي حتفه فيكون ثقله في البلاد برداء الكفر سبباً لزيادة آثامه وطول وقوفه بين يدي الله عز وجل . الحمد لله الذي أكرم النبي محمداً بأن وجه الخطاب والنهي له في آية البحث ، ومن ورائه أجيال المسلمين والناس جميعاً لبيان قانون عدد الذين

(١) سورة التكوين ٨-٩.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة آل عمران ١٩٦.

يتلقون الخطاب القرآني من اللامتناهي ، ففي كل يوم ومن حين التنزيل وإلى يوم ينفخ في الصور يتوجه النداء المقرون بالنهاي ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ للأحياء من المسلمين والمسلمات ، وهم في إزدياد ، وتكون العصمة من الاغترار بالذين كفروا وأموالهم وتقلبهم في البلاد تركة يتوارثها المسلمون ببركة آية البحث وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن الآيات أن كل واحد منهم يقرأ آية البحث في الصلاة الواجبة قراءة واجبة على نحو القضية الشخصية ومنه قراءة إمام الجماعة لآية البحث فانها قراءة بعدد المأمومين .

وتقدير الآية على وجوه :

- الأول : يا أيها النبي ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
- الثاني : يا أيها الصحابي ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
- الثالث : يا أيها الصحابية لا يغرنك ﴿قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
- الرابع : يا أهل البيت لا يغرنكم ﴿قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
- الخامس : يا أيها التابعي ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
- السادس : يا أيها المسلم ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
- السابع : يا أيها المسلمة لا يغرنك ﴿قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

وقد نزل القرآن بالثناء على المؤمنين ، والذم للكافرين والمنافقين ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(١).

ونزلت الآية أعلاه عند قدوم أحزاب المشركين في معركة الخندق ، لبيان أن آية البحث حاجة للمسلمين لعدم الإفتتان أو الخوف والوهن مما يتمتع به

المشركون من كثرة العدد والعدة ، مع قلة عدد وعدة وسلاح ومؤون المسلمين .

وهل اجتماع جيوشهم هذا وزحفهم إلى المدينة لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من ثقلهم في البلاد ، الجواب نعم ، لبيان قانون آية ﴿لَا يَغْرَنَّكَ﴾ واقية من الفشل والجبن والفرار في معارك الإسلام الأولى .

الثامن : يا أيها الذين نافقوا رجالاً ونساءً لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ إذ يدخل المنافقون والمنافقات في النداء العام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

التاسع : يا أيها الناس لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .
وصحيح أن الخطاب والنهي في الآية توجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكن موضوعه متصل ومتجدد إلى يوم القيامة ويدل على عموم تقديره (يا أيها الإنسان لا يغرنك) قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١) .

وتتضمن آية البحث ذم الذين كفروا ومن أسبابه اتخاذهم التغلب في البلاد وكثرة الأسفار وسيلة للإفترار على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، فاراد الله عز وجل للمسلمين الصبر في مقامات الإيمان . ومن فروع هذا الصبر عدم الاغترار بالذين كفروا ، ليقنتي بهم الناس . وكانت معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية واقية للنبي وعامة الناس من هذا الاغترار مما يلزم منا الشكر لله عز وجل على هذه المعجزات لأن كل واحدة منها نعمة .

ومن معاني البشارة والإنذار بلحاظ آية البحث أمران :

(١) سورة سبأ ٢٨ .

الأول : البشارة للذين آمنوا باتباعهم النبي محمد في عدم الاغترار بالذين كفروا وتقلبهم وكثرة أسفارهم وتجارتهم في البلاد .

الثاني : الإنذار للذين كفروا بنحيبتهم وخسارتهم مع تقلبهم في البلاد وسعيهم بين الناس لمحاربة الإسلام ، وتسخيرهم أموال التجارة لمنع نزول الآيات من عند الله ، ودخول الناس الإسلام ، لتضمن آية البحث وبالأ تكون حجة عليهم يوم القيامة ، قال تعالى ﴿وَقُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١).

الحمد لله على نعمة مصاحبة النبوة لوجود الإنسان وعمارته الأرض ، فلم ينزل آدم إلى الأرض إلا بعد أن كلمه الله قبلاً ، واختلط وحواء مع الملائكة وعاشا في الجنة ، وأكلا من ثمارها.

واختلف في جنة آدم هل هي في السماء أم في الأرض ، والمختار أنها في السماء ، لوجوه :

الأول : أصالة الإطلاق ، فاذا ورد اسم الجنة مجرداً فإنه ينصرف إلى الجنة في السماء .

الثاني : وجود الملائكة في جنة آدم ، وسكن الملائكة هو الجنة فلا ينزلون إلا بأمر من الله عز وجل ، كما في معركة بدر ، إذ اجتهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عشية وصباح معركة بدر بالدعاء .

وكان من دعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر (اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، وأنت رجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة .

كم من كرب يضعف عنه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه القريب، ويشمت به العدو وتعيني فيه الامور، أنزلته بك وشكوته إليك راغباً فيه إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته عني وكفيتني، فأنت ولي كل نعمة،

وصاحب كل حاجة، ومنتهى كل رغبة، فلك الحمد كثيرا ولك المن (فاضلا) ^(١).

وقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلتذ راکعاً ساجداً ويدعو الله مع أنها كانت ليلة باردة ذات ریح وظلمة فنزل قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُدِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ^(٢).

ولقد بشر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بالنصر قبل بدء المعركة ، فهل كانت هذه البشارة على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول الآية أعلاه أم بعدها ، المختار أنها قبل نزول الآية .

وعن الإمام علي عليه السلام (لقد رأيتنا ليلة بدر وما منا إنسان إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح ، وما كان منا فارس يوم غير المقداد بن الأسود) ^(٣).

الحمد لله على دلالة وقائع معركة بدر وغيرها من معارك الإسلام الأولى على عصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من الاغترار بالذين كفروا .

الحمد لله الذي جعل آيات القرآن تصل إلى أسمع كل إنسان من أهل الأرض .

فمن خصائص التنزيل وإعجاز القرآن ، ومصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ ^(٤) ، عدم وجود حاجب أو برزخ بين أي إنسان وبين القرآن والتدبر في آياته .

(١) البحار ٢١١/٩١.

(٢) سورة الأنفال ٩.

(٣) المنتظم ٢٩٧/١.

(٤) سورة سبأ ٢٨.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجيب على كل سؤال بخصوص آيات القرآن ، وإن كان السؤال بقصد الجدال والفتنة ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

حرر في العاشر من شهر رجب الأصب ١٤٤٦

٢٠٢٥/١/١٠

(١) سورة آل عمران ٧.

قوله تعالى ﴿لَا يَغْرُبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ الآية ١٩٦

الإعراب واللغة

لَا : حرف نهي وجزم .
يَغْرُبُكَ : فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا .
النون : نون التوكيد الثقيلة ، وهي لا تأتي مع (لا) النافية .
الكاف ضمير في محل مفعول به .
تَقَلَّبُ : فاعل مرفوع وعلامة رفعة الضمة الظاهرة على آخره ، وهو مضاف .
الَّذِينَ : اسم موصول مبني في محل جر مضاف إليه .
كَفَرُوا : فعل ماض مبني على الضم ، واو الجماعة ، فاعل .
وجملة كفروا صلة الموصول .
فِي الْبِلَادِ : جار ومجرور متعلقان بتقلب لأنه مصدر .
والغرور : الطمع في أمر محبوب كالسراب ، وإظهار أمر ضار في هيئة النفع .
وفي قوله تعالى ﴿فَدَاكَاهُمَا غُرُورًا﴾^(١) ، أي خدع إبليس آدم وحواء بأن حلف لهما بالله أنه ناصح لهما وأنهما إذا أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها يفوزان بالخلود في الجنة ، قال تعالى ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢) .

(١) سورة الأعراف ٢٢ .

(٢) سورة النساء ١٢٠ .

(وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : المؤمن غر كريم
والفاجر خب لثيم.
وأنشد نبطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعته ... وترى اللثيم مجرباً لا يخدع ^(١).
والمؤمن سخي قد ينخدع بذئ الشر بعدم انشغاله بدقائق الأمور التي
تجلب الضرر .

فجاءت آية البحث لتحذير المسلمين من الذين كفروا وما عندهم من
الأموال والجاه ومن كثرة أسفارهم .

ومعنى تقلبهم أي أسفارهم ، وتنقلهم من مكان إلى آخر وتجاراتهم لأن
قريشاً كانوا يضربون في الأرض ويتاجرون بين مكة والشام ، ومكة واليمن
، كما يذهبون إلى مدن وبلدات أخرى حسب الموسم والطلب .

فيقطعون الفيافي ، ويزورون البلدان ، وينزلون ضيوفاً على غيرهم من
أهل الكتاب والكفار ، وصار همهم ذم وتكذيب النبي محمد صلى الله عليه
وآله وسلم والطعن بالتنزيل قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ
اقْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ^(٢).

ولم يعلموا أنهم صاروا سفراء للقرآن ودعاة للإسلام من حيث لم
يحتسبوا ، إذ كانوا يتلون آيات القرآن على الناس ، فيدرك أولو الأبواب
صدق نزولها من عند الله عز وجل .

البلاد : جمع بلد ، وهو المكان المحدود الذي يستوطنه جماعات ، كما
يطلق على المكان الواسع من الأرض وإن كان خالياً من السكان .

والبلاذ جمع تكسير على وزن فعال ، وكذا بلدان على وزن فعلان ،
ويمكن القول أن (بلدان) جمع الجمع ، وإن لم أجده في كتب العربية ،
وجمع الجمع هو جمع لكلمة تكون في الأصل جمعاً .

(١) تفسير القرطبي ١٥٩/٧ .

(٢) سورة الفرقان ٤ .

ليفيد الكثرة والزيادة ومضاعفة العدد ، وهذا الجمع سماعي أي لا توجد له قاعدة ثابتة ، ولا يقاس عليه وهو قليل في اللغة العربية ، ونادر في غيرها من اللغات .

ويدل قوله تعالى ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(١) ، على صيغة الجمع وإرادة معنى تعدد الأمصار في البلاد ، وفي القرآن سورة تسمى سورة البلد ، قال تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٢) .

والبلد هنا مكة ، فلم يقسم الله عز وجل بالبلد ذات الطول والعماد ، بل أقسم بمكة مع أنها آنذاك بلدة صغيرة تحيط بها الجبال للقدسسية الخالدة للبيت الحرام ، ولنزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها .

فاذ هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ، بقي البيت الحرام ، ومعه القسم الذي أقسمه الله ، وما فيه من البركة والوعد باستدامة شأن هذا البلد .

سياق الآيات

الوجه الأول : الصلة بين آية البحث والآية السابقة

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^{(٣)(٤)} وفيها مسائل :

(١) سورة الفجر ٧-٨ .

(٢) سورة البلد ١-٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٤) أنظر الجزء الرابع والستين بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

الأولى : ابتدأت آية السياق بحرف الفاء الذي يفيد العطف والإستئناف ، يفيد العطف لاتصال موضوع آية السياق بالآيات السابقة في الدعاء ، ويفيد الإستئناف لأن الإستجابة غير الدعاء ، فبعد أن اجتهد المسلمون بالدعاء في الآيات الأربعة السابقة في أمور الدين والدنيا نزلت الإستجابة من عند الله عز وجل .

وتدل الفاء في ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ على سرعة تحقق استجابة الدعاء من عند الله ، وفيها وجوه :

الأول : قانون الإستجابة فضل ولطف من عند الله عز وجل .
الثاني : قانون سرعة الإستجابة فضل آخر من عند الله .
الثالث : قانون حاجة كل إنسان إلى الدعاء والإستجابة له .
الرابع : قانون فوز المؤمنين والمؤمنات باستجابة الله عز وجل لدعائهم .
الخامس : قانون ترغيب الناس بالدعاء والتطلع لإستجابة الله عز وجل .
السادس : قانون استجابة الله للدعاء تثبيت للإيمان ، واستدامة لذكر الله عز وجل في الأرض .

السابع : قانون حرمان المشركين أنفسهم من استجابة الله ، ومن حبه الذي هو أعظم الأرزاق في النشاطين ، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار .
لقد وعد الله عز وجل استجابته للدعاء بقوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) ، لتجلى مصاديق الإستجابة الخاصة والعامة للمسلمين .

وآية السياق من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٢) .

(١) سورة غافر ٦٠ .

(٢) سورة البقرة ١٨٦ .

ويدل ظاهر الآية أعلاه على استجابة الله للدعاء من غير قيد الإيمان ، ولكنه واجب ومن الشكر لله عز وجل وفيه الهدى والرشاد والصلاح .

وجاء قوله تعالى ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾^(١) ، لبيان شرط الإيمان في الإستجابة للدعاء ، وهو الذي تدل عليه الآية السابقة ، وبيانها للصفات الكريمة للذين استجاب الله عز وجل لهم في هذه الآية . ثم أكرمهم الله عز وجل بالنهي عن الاغترار بالذين كفروا .

الثانية : من خصائص الحياة الدنيا قانون الدنيا دار ابتلاء وامتحان وإمهال ، إذ يمهّل الله عز وجل الإنسان إلى أجله الذي كتبه له ، فيتصرف في الأرض ، ويأتي بالعمل الصالح أو ضده ، ويتنعم بالرزق والخير والجاء والأولاد ، قال تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾^(٢) .

وقد أنعم الله عز وجل على قريش بالجاء بين القبائل ببركة جوار البيت الحرام ، وبالمال الوفير بأموال وإبل التجارة وأرباح الربا والمضاربة ، وكانوا يتجرون إلى الشام في الصيف لأنها بلاد باردة ، وإلى اليمن في الشتاء لأنها بلاد حامية .

وقد وثق القرآن قوافل التجارة هذه بقوله تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾^(٣) .

وهل هذه التجارة من مصاديق قوله تعالى ﴿ لَا يَغْنَثُكَ تَقْلُبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِيهِ الْبَلَادِ ﴾^(١) الجواب نعم .

(١) سورة الرعد ١٤ .

(٢) سورة الكهف ٤٦ .

(٣) سورة قريش ١-٤ .

أما الذين آمنوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا مستضعفين ولكنهم يتقلبون في رحمة الله ويلجأون إلى الدعاء وأداء الفرائض العبادية بغبطة وقناعة وزهد ، قال تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

مع الإقرار بأن النعم من بديع صنع الله عز وجل فأخبرت آية السياق بأن الله عز وجل يحفظ لهم عملهم الصالحات بقوله تعالى ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾^(٣).

الثالثة : المتبادر من موضوع تقلب الذين كفروا في البلاد ضربهم في الأرض ، وتصرف قريش في التجارات وقطع قوافلهم الفياقي ، والجاه الذي نالوه في القرى والأمصار .

أما آية السياق فقد أكرمت الرجال والنساء من المسلمين بالأجر والثواب في الدنيا والآخرة ، إذ قال تعالى ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرِ أَوْ أُنْثَى﴾^(٤).

لييان النفع العظيم والأجر والثواب للمؤمنين والمؤمنات ، وهم في بيوتهم ، وفي حال الإستضعاف من الذين كفروا ، لبيان نعمة الإيمان ، والثبات عليه في حال السراء والضراء .

ويتجلى الجمع بين آية البحث وآية السياق ، بالسكينة والتقوى في قوله تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

(٢) سورة آل عمران ١٩١.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

(٤) سورة آل عمران ١٩٦.

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا^(١).

لتزيج آية السياق أسباب الشك والريب والوهن والفشل عن المسلمين باعراضهم وعدم افتتانهم بما عند الذين كفروا من النعم ، ومن التقوى إدراك أن كل النعم التي عند الناس هي من الله عز وجل ، وقانون يحق الكفر النعمة لقانون الكفر ماحق .

ومن معاني ذكر (أنثى) في آية السياق اعانة المؤمنين من الرجال والنساء للثبات في منازل الهداية وتحمل الأذى في سبيل الله والعصمة من إغراء الذين كفروا بالأموال والتقلب في البلاد ، فمن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الغيرية قانون سلامة أصحابه من الإفتتان بالذين كفروا وأموالهم وسطوتهم وعلو شأنهم بين الناس .

ومن علل هذه السلامة مضامين آية البحث وآية السياق .

والنسبة بين الإرتداد والإفتتان بالكافرين عموم وخصوص مطلق .

وقد يكون الإفتتان بالكافرين مقدمة للوهن والجبن فأراد الله عز وجل

بآية البحث حجب الوهن والجبن على المسلمين .

الرابعة : النسبة بين قوله تعالى ﴿أَنْتَ لَا أَضِيعُ عَمَلَ مَنْكُم مِّنْ ذَكَرِ أَوْ

أَنْتَ ^(٢) ، في آية السياق وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ^(٣) عموم

وخصوص مطلق ، فالعمل أعم ، ويشمل اتيان التكليف الخمسة ، وحضور قصد القرية في الواجبات والمستحبات ، والإبتعاد عن المعاصي والسيئات.

(١) سورة الفتح ٢٦.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

(٣) سورة البقرة ١٤٣.

فيأتي الأجر والثواب للمؤمن وهو في بيته أو في المسجد أو السوق ،
بينما يسيح الكافر في الأرض ، ويتنقل في البلدان باكرام ومع إنفاق المال
ولكن ليس له إلا الإثم لقانون الملازمة بين الكفر والإثم ، وقانون إدراك
الملازمة بين الكفر والإثم باعث للنفرة في النفوس من الكفر ومانع من
الإفتتان بالكافرين ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ غَرْثُهمُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١).

وظنوا أنه ليس من حياة أخرى أبدية تتقوم بالحساب على أعمال الناس
في الدنيا ، إذ قالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيَا وَمَا نَحْنُ
بِمُعْصِيِينَ﴾^(٢).

تدل آية البحث في مفهومها على قانون الثناء على المسلمين في صبرهم
وطاعتهم لله عز وجل ، وتحملهم الأذى في سبيله ، وتصديقهم باليوم
الآخر.

وهل من مفاهيم آية البحث كونها مصداقاً لقوله تعالى ﴿أَنْبِيَ لَا
أُضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى﴾^(٣) ، الجواب نعم ، لبيان ذهاب عمل
الذين كفروا هباء ، مع خسارتهم في الآخرة التي تدل عليها الآية التالية
﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٤).

الخامسة : نزلت آية البحث بصيغة الخطاب إلى النبي محمد صلى الله
عليه وآله وسلم ﴿لَا يَغُرَّكَ﴾ والمراد الأمة بأجيالها المتعاقبة ، إذ تدعو الآية
المسلمين والمسلمات إلى الصبر وعدم الإلتفات إلى المباهج الدنيوية التي
يتنعم بها الذين كفروا .

(١) سورة الأنعام ٧٠.

(٢) سورة المؤمنون ٣٧.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

(٤) سورة آل عمران ١٩٧.

وتقدير آية البحث بلحاظ مضامين الآية السابقة على وجوه :
الأول : يا أيها المؤمنون الذين هاجروا لا يغرركم تقلب الذين كفروا في
 البلاد .

الثاني : يا أيها المؤمنون الذين أخرجوا من ديارهم لا يغرركم تقلب
 الذين كفروا في البلاد .

الثالث : يا أيها المؤمنون الذين أودوا في سبيلي لا يغرركم تقلب الذين
 كفروا في البلاد .

الرابع : يا أيها المؤمنون الذين قاتلوا في سبيل الله لا يغرركم تقلب الذين
 كفروا في البلاد .

الخامس : يا أيها الذين آمنوا لا يغرركم تقلب الذين كفروا في البلاد .
 وفي تحذير المسلمين من كفار قريش ومودتهم ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ
 الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي
 سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾^(١).

و(عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 لأصحابه: أي الربا أربى عند الله ، قالوا : الله ورسوله أعلم.
 قال: أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم)^(٢) ثم قرأ الآية
 أعلاه .

السادسة : من معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق تمتع الذين كفروا
 في الحياة الدنيا متاعاً قليلاً ، أما الذين آمنوا فأنهم يفوزون بمغفرة الذنوب ،
 ومحو السيئات ، وهي الهبة العظمى ، فيعيش المؤمنون في الغبطة وبين ثنايا
 الأمل والبشارة بالنعيم الدائم .

(١) سورة الممتحنة ١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨١/٦ .

أما الذين كفروا فليس بينهم وبين العذاب الأليم في الآخرة إلا متاع قليل في الدنيا ، مع قانون حساب الذين كفروا على المتاع القليل لأنه نعمة من عند الله ، لقانون شكر المنعم واجب ، ويتجلى شكر الناس لله عز وجل على النعم بالإيمان ، والإمتناع عن إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين آمنوا .

السابعة : لقد أخبرت الآية السابقة عن عناء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من أذى الكفار الشديد ، وتلقوا هذا الأذى في سبيل الله ، فلم يطلبوا الدنيا وما فيها من المتاع ، واضطروا للقتال والدفاع عن النبوة والتنزيل ، وسقط عدد منهم قتلى لهجوم المشركين عليهم في معركة بدر وأحد والخندق وحنين وغيرها ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(١).

ليان قبح تسخير الذين كفروا للمتاع والنعم التي جعلها الله عز وجل عندهم ، فيكون قلبهم في البلاد نعمة عظمى ، وحجة عليهم ، وسيباً لسخط الله عز وجل عليهم .

وتضمنت الآية أيضاً الوعد الكريم لهم من عند الله بالمغفرة واللبث الدائم في جنات ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢).

الثامنة : جاءت كل من آية السياق والبحث بصيغة الغائب ، إذ بدأت بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(٣) ثم استمرت بذات الصيغة إلى أن أختتمت بقانون من الإرادة التكوينية بأن حسن الثواب عند الله عز وجل وحده ، وهو القادر عليه بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٤).

(١) سورة الأحزاب ٥٨.

(٢) سورة آل عمران ١٩٨.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

(٤) سورة آل عمران ١٩٥.

ثم جاءت آية البحث بذات صيغة الغائب مع التباين والتضاد في موضوع الآيتين ، إذ تختص آية السياق بالمؤمنين الذين عملوا الصالحات وحسن عاقبتهم باللبث الدائم في الجنة ، أما آية البحث فتضمنت الذم والوعيد للذين كفروا ، وأخبرت الآية التالية بسوء عاقبتهم بقوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وِبْشَ الْمِهَادِ﴾^(١) .

ولقد ذكرت آية السياق خصالاً حميدة متعددة للمؤمنين ، فإن آية البحث ذكرت الذين كفروا بأمرين وبصيغة الذم وهما:

الأول : إختيار الكفر والجحود .

الثاني : التقلب في البلاد بالسفر والتجارة ، وما يدل عليه من الشأن والعز الظاهري بالجحود بالتوحيد والنبوة والتزليل الذي أخبرت الآية التالية بأنه متاع قليل وسبب للبلاء الشديد.

التاسعة : من معاني الجمع بين الآيتين بيان الإمتحان المتعدد الذي يتعرض له المؤمنون بالرسالة السماوية ، فمع الأذى الشديد الذي يلاقونه ينظرون إلى تنعم وغبطة الذين كفروا وهم في رغد العيش .

وذكر القرآن شواهد تاريخية عديدة ، ومثلاً فرعون وملئه يتبوؤون الحكم وسلطانه في مصر .

وقد ورد قوله تعالى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثمانين وعشرين مرة .

وورد مرة واحدة حكاية فرعون في التنزيل ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾^(٢) ، في وقت كان المؤمنون من بني إسرائيل مستضعفين ، ويقومون بأخس الأعمال ، ويعملون في الليل والنهار إهانة لهم وإزدراء ، ويخشون أن يولد فيهم من يكون هلاك سلطان فرعون على يديه فبعد أن أخذ فرعون سارة زوجة إبراهيم وحاول الإعتداء عليها فعصمها الله عز

(١) سورة آل عمران ١٩٧.

(٢) سورة الزخرف ٥١.

وجل وشلّ يده ، أخبر إبراهيم بزوال ملك فرعون بولد من ذرية إبراهيم ، وتوارثها بنو إسرائيل ، وتلقاها القبط من بني اسرائيل وكذا أخبر المنجمون فرعون .

لقد خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر في جنح الظلام فتبعهم فرعون بجنوده فاغرقهم الله عز وجل كما أغرق الكافرين من قوم نوح .

ليبان قانون اتحاد سوء عاقبة الجاحدين بالرسالة المعاصرة لهم بالهلاك ، وليس في الجزيرة العربية بحر وغرق فجاءت آية البحث للإنذار والوعيد ، ومن الذين كذبوا من أقوام الأنبياء من أهلكوا بالصيحة وهي صوت مهلك ومرجف صادر من السماء ، ورنين ينتج عن موجات تحت الصوتية يتغشى دائرة الذين كفروا ، ويترشح عنه ارتجاف أعضاء وأحشاء الإنسان من غير أن تؤثر على المساكن والمباني لتبقى شاهداً وعبرة وموعظة ، ومن الوعيد لكفار قریش في المقام قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمُالُهُمْ ﴾^(١).

وهل تدل آيات الصيحة على حرمة استعمال القنابل الصوتية المميّنة ، الجواب نعم ، لأن عذابها خاص بالذين قابلوا الرسول الذي بعثه الله عز وجل لهم بالكذب والجحود ، وليس عامة الناس في هذا الزمان والحروب بين الدول .

وذكرت الصيحة بخصوص أقوام :

الأول : مدين قوم شعيب قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾^(٢).

(١) سورة محمد ١٠.

(٢) سورة هود ٩٤.

الثاني : ثمود قوم صالح ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾^(١) ، والحجر اسم الوادي الذي يسكنون ، وهو بين المدينة والشام .

وروى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (مر في غزاة تبوك بالحجر ، فقال : هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلا رجلاً كان في حرم الله ، منعه حرم الله من عذاب الله ، قيل : يا رسول الله من هو ، قال : أبو رغال)^(٢) .

الثالث : قوم لوط ، إذ أصرّوا على الإقامة على فعل الفاحشة ، فجاءهم عذاب الصيحة مع هطول الحجارة عليهم من السماء ، قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ﴾^(٣) .

وفي بيان نعم الله عز وجل على بني إسرائيل ودعوتهم للتصديق بنزول القرآن من عند الله ، قال تعالى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٤) .

ولقد أخرجت قريش النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من مكة ، وجهزوا الجيوش لقتاله في معركة بدر ، وأحد ، والخندق ، واجتهدوا في محاولات اغتياله ، فمن الله عز وجل عليه بفتح مكة مسلماً من غير قتال ، لتدخل قريش في الإسلام .

وفي مرسله التابعي قتادة السدوسي (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام قائماً حين وقف على باب الكعبة ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا

(١) سورة الحجر ٨٠ .

(٢) النكت والعيون ٣٥٨/٢ .

(٣) سورة هود ٨٢ .

(٤) سورة البقرة ٥٠ .

شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .
ألا وقتيل الخطيئ مثل العمد السوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها
أربعون في بطونها أولادها .

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء .
الناس من آدم وآدم خلق من تراب ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١) .

يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون اني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم .
ثم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فاعتقهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة .

وكانوا له فياً^(٢) فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء .
ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الاسلام فجلس لهم فيما بلغني على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس .

فبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الناس على الاسلام .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بيعة الرجال بايع النساء واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة

(١) سورة الحجرات ١٣ .

(٢) المختار أن موضوع الفيء هي الأموال التي يأخذها المسلمون من الكافر بغير قتال ، وليس ذات الأشخاص .

لحدثها وما كان من صنعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحدثها ذلك .

فلما دنون منه ليبياعنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما بلغني تباعني على ألا تشركن بالله شيئاً فقالت هند والله إنك لتأخذ علينا امراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه .

قال ولا تسرقن قالت والله إن كنت لاصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا .

فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنك لهند بنت عتبة فقالت أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك قال ولا تزنين... (الحديث) (١).

وعندما خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من مكة في شوال من السنة الثامنة للهجرة ، خرج معه ألفان من مسلمي الفتح الذين أسلموا عند فتح مكة ، عدا النساء اللاتي بايعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ منهن هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة أبي سفيان ، وأم حبيب بنت العاص بن أمية أرملة عمرو بن عبد ود العامري ، وأروى بنت أبي العاص عمة عتاب بن أسيد الذي جعله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والياً على مكة ، وزوجة المطلب بن أبي وداعة.

وهل يدل فتح مكة على استجابة المسلمين للنهي الوارد في آية البحث بعدم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد ، الجواب نعم .

العاشرة : من معاني الجمع بين الآيتين إنذار الذين كفروا ، والإخبار عن حرمانهم من المغفرة ومحو السيئات ، وعن النعيم الأخروي لإعراضهم عن نداء الإيمان والدعوة إلى الله عز وجل .
ليكون من مفاهيم آية السياق بعث الحسرة في نفوسهم .

(١) تاريخ الطبري ٣٣٧/٢ .

ومن خصائص توجه الخطاب في آية البحث إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا يَغْرِبُكَ﴾ الإخبار السماوي عن نصرته الله عز وجل له ، وعصمته من الإفتتان بالذين كفروا ، لأن النعم التي عندهم هي من الله عز وجل ، قال تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(١) ولقانون الدنيا وزينتها إلى زوال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾^(٢).

إذ يشمل خطاب الإكرام القرآني إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أجيال المسلمين المتعاقبة ، والذي حرم الكفار أنفسهم منه ، واختصوا بتلقي خطابات الإنذار والتخويف والتبكيث ، لذا كانت السور الملكية قصيرة وتتضمن الوعيد لهم.

ومنها قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾^(٣) و﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بُعِثَ رَسُولًا﴾^(٤) و﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾^(٥).

مع آيات ذم الكفار ، قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَأَوْا عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٦) ﴿أَلِهَافُكُمْ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(٧) ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٨).

(١) سورة النحل ٥٣.

(٢) سورة الكهف ٤٦.

(٣) سورة النبأ ٤٠.

(٤) سورة الإسراء ١٥.

(٥) سورة الحجر ٨٩.

(٦) سورة المطففين ١٤.

(٧) سورة التكاثر ١-٢.

(٨) سورة القارعة ٤.

الحادية عشرة : تتضمن آية السياق الوعد من الله عز وجل بمحو سيئات المؤمنين يوم القيامة لإيمانهم ولما لاقوه من الأذى في سبيل الله ، بقوله تعالى ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾^(١) ، بينما يؤاخذ الملائكة يومئذ الذين كفروا على سيئاتهم من غير أن تدركهم المغفرة ، وهو من أكثر الأضرار الشخصية المترتبة على الكفر والجحود .

ومن الآيات في حياة الناس علم الرؤيا ، وأخباره القادمة من عالم البرزخ والتي تأتي للبر والفاجر وفيها رحمة وفضل من الله بالتذكير بعالم ما بعد الموت ، بلغة الإنذار والوعد والوعيد ، والدعوة إلى التوبة والاستعداد إلى الحساب الإبتدائي في القبر .

والوعد المتعدد في آية البحث من مصاديق تقريب الناس إلى منازل الإيمان ، وتثبيته في قلوب المسلمين ، وهو حرب على النفاق ومقدمة لسيادة أحكام الشريعة ، وتولي الصحابة شؤون القضاء والحكم ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).

وبينما ذكرت آية البحث صفات المؤمنين بصيغة الماضي ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ ﴿هَاجَرُوا﴾ ﴿أُخْرِجُوا﴾ ﴿أُذُوا﴾ ﴿قَاتَلُوا﴾ ﴿قُتِلُوا﴾ .

وورد الأجر والجزاء والثواب بصيغة المضارع ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ و﴿لَا دُخْلَ لَهُمْ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) سورة النور ٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٦ .

الثانية عشرة : إبتدأت آية السياق بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(١)

واستجابة الله نعمة عظيمة ، وورد حرف الفاء في ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ لبيان سرعة الإستجابة ، وقد حرم الذين كفروا أنفسهم من هاتين النعمتين مع أن كلاً منهما حرز وسلاح في الدنيا والاخرة ، وقد حجب الكفار عن أنفسهم النعم المتعددة في المقام منها :

الأولى : نعمة الإيمان والصلاح .

الثانية : نعمة الدعاء والهداية إليه .

الثالثة : نعمة الإستجابة .

الرابعة : نعمة سرعة الإستجابة .

الخامسة : الهبات والعطايا وفضل الله المترشح عن هذه النعم العاجل

منها والآجل لبيان أن الكفر ضرر محض لأصحابه في الدارين .

ليكون من معاني الجمع بين الآيتين جذب الناس إلى مقامات الإيمان ، وبعث النفرة في نفوسهم من الكفر ومفاهيم الضلالة ، وهذا الجمع وما يترشح عنه من المسائل الكلامية وفي ميدان الأعمال ، وهي من مصاديق قوله تعالى ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾^(٢) .

ونزلت آية البحث لجعل المسلمين يكرهون الكفر ، ولا تغرنهم حال السعة والمندوحة التي عليها الذين كفروا ، وكثرة أسفارهم ، ومن مصاديق آية البحث بعث أهل الأمصار والقرى المختلفة لعدم العناية بالذين كفروا ، والإمتناع عن الإستماع إليهم في إفترائهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتزليل .

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) سورة الحجرات ٧ .

الثالثة عشرة : هل في آية السياق دعوة سماوية للمسلمين بعدم إخراج الناس من ديارهم بسبب اعتقادهم ومذهبهم أم أنه قياس متع الفارق ، إذ أخرج المسلمون من ديارهم لإيمانهم ومن قبل ذوي الإعتقاد الباطل وأهل الشرك فيجوز إخراج الذين كفروا من ديارهم من غير أن تصل النوبة للمقاصة والمقابلة بالمثل.

المختار لا يجوز تهجير الأفراد والجماعات من ديارهم بسبب الملة والمذهب مطلقاً إلا أن يأتوا بظلم وتعد وإخلال بالأمن العام يلزم الإخراج شرعاً وعقلاً وقانوناً .

وقد غادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وهناك جماعة من اليهود في المدينة .

(وَعَنْ أَنَسٍ : أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَضُوءَهُ وَيَنَاولُهُ نَعْلَيْهِ .

فَمَرَضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَبَوْهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَا فُلَانُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ فَسَكَتَ أَبَوْهُ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ .

فَقَالَ أَبَوْهُ أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ فَقَالَ الْغُلَامُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ^(١) ، وذكر أن اسم هذا الغلام هو (عبد القدوس).

وفي السنة النبوية وصبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حجة على الذين أخرجوهم من مكة بغير حق .

من معاني ﴿تَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾

لقد ذكرت آية البحث تَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ في البلاد بلغة الإنذار والوعيد ، وأثنى الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قلبه في هيئات العبادة وسنن التقوى بقوله تعالى ﴿وَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(١).

في معنى ﴿تَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ وجوه :

الأول : إن الله عز وجل يعلم ويرى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة وحال قيامه وركوعه وسجوده ، وليبان أنه ليس وحده يؤدي الصلاة فمعه أهل بيته وأصحابه الذين معه في مكة قبل الهجرة وصلاة المهاجرين والأنصار بعد الهجرة .

الثاني : يرى الله عز وجل النبي محمداً وهو في مكة والمهاجرين إلى الحبشة في آن واحد .

وفيه وعد بالحفظ والأمن والجزاء على الصلاة ، وبيان موضوعية السجود في ماهية الصلاة لما فيه من الخشوع والتطامن والخضوع لله عز وجل .

الثالث : تَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أصلاب الأنبياء والموحدين حتى ولدته أمه (عن ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : بأبي أنت وأمي أين كنت وأدم في الجنة؟

فتبسم حتى بدت نواجذ^(٢) ثم قال إني كنت في صلبه ، وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه ، وركبت السفينة في صلب أبي نوح ، وقذفت في النار

(١) سورة الشعراء ٢١٩.

(٢) في الأصل نواجذه ، سهو من النسخ ، والتواجد جمع ناجذ (وهي أربعة أضراس تثبت بعد أن يشب الغلام ، تسميها العامة أضراس العقل ، وكذلك تسميها الفرس خرد دندان. وقال قوم: بل النواجذ الضواحك ، واحتجوا بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ضحك حتى بدت نواجذه ، وتلك النواجذ لا يديها الضحك . ويقال : عض الرجل على نواجذه ، إذا صبر على الأمر. وفي بعض الأخبار :

في صلب أبي إبراهيم ، ولم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الإصلاّب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما^(١).

ليكون التلبس بالكفر واختيار الجحود والعناد والإمتناع عن التصديق بمعجزات النبوة سبباً للكدورة للذين كفروا في قلوبهم في البلاد.

قانون متاع الكافرين قليل

ان قلت قد ذكرت الآية التالية أن قلوبهم في البلاد ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(٢)

والجواب من وجوه:

الأول : المراد من المتاع القليل أعم من الثقلب والتنقل في البلاد ، ومن تقدير الجمع بين آية البحث والآية التالية : لا يغرنك المتاع القليل للذين كفروا .

الثاني : قصر عمر الإنسان ، وذات الحياة الدنيا بالنسبة للكافر متاع قليل ، قال تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) لقانون كل ما هو زائل وفان فهو قليل.

الثالث : يتضمن قوله تعالى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(٤) انحسار سلطان الذين كفروا ووعد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بفتح مكة .

الرابع : قانون سوء عاقبة الذين لم يسخروا أيامهم في الدنيا في طاعة الله عز وجل .

عَضُوا عَلَى النَوَاجِذِ وَأَعْيَرُونِي هَامِكُمْ سَاعَةً) جمهرة اللغة ٢٢٢/١ .

(١) الدر المنثور ٤١٨/٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٣) سورة النحل ١١٧ .

(٤) سورة آل عمران ١٩٧ .

من خصائص الدنيا أنها زينة ، وقال تعالى مخاطباً الناس جميعاً ﴿وَأَنَّا كُنتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١) لبيان أن نعم الله عز وجل على أي إنسان أكثر من أن يقوم باحصائها من جهة العدد أو الكم ، والنعم الظاهرة والخفية .

فلو قضى الإنسان أيام حياته باحصاء وعد نعم الله فانه لا يستطيع عدّها ، ولغادر الدنيا وهو متخلف عن عدّها ، وإن عد منها المليارات وأنّى له عدّها ، وكل شهيق وزفير نعمة مركبة ، وكل لقمة وشربة ماء نعمة .

وكل انتفاع من حاسة من الحواس نعمة ، وكل حركة عضو من الجسم والأحشاء نعمة ، فلو كان عمر الإنسان ستين يكون متوسط نعمة الشهيق والزفير نحو خمسمائة مليون نعمة .

وما عليه الذين كفروا من حال السعة في الكسب ، واقتناء الذهب والفضة والسرور والغبطة بكثرة التجارات ولين العيش رضوا بها واطمأنوا إليها إنما هو بلغة فانية ، ومادة للحساب والعقاب في الآخرة .

وكل آية في الكون كالشمس والقمر والنجوم والغيوم والرياح نعمة عامة وخاصة ، إلى جانب نعمة السكن التي تتكرر كل ساعة ، ونعمة الأهل والأبوين والعيال والتراحم .

وفي الزواج وما يصاحبه من المودة قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) .



(١) سورة إبراهيم ٣٤ .

(٢) سورة الروم ٢١ .

تقدير الجمع بين الآيتين

وفيه وجوه :

الأول : يا أولي الألباب لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾
فتفتروا في الدعاء ، ويضعف صبركم .

الثالث : يا أيها الذين هاجروا في سبيل الله لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

الرابع : يا أيها الذين أخرجوا من ديارهم لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

الخامس : يا أيها الذين أودوا في سبيل الله لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

السادس : يا أيها الذين قاتلوا في سبيل الله لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الدِّينِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

السابع : يا أيها الذين آمنوا عند الله حسن الثواب فلا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد .

قانون التباين والتضاد في الآخرة

من الإعجاز في الآية السابقة اشتراك المؤمنين في الأجيال المتعاقبة ومن أيام آدم وإلى يوم القيامة بالأجر والثواب ، ومن إعجاز آية البحث اشتراك الذين كفروا من قاييل بن آدم الذي قتل أخاه ، والذين كفروا إلى يوم القيامة بأمرين :

الأول : المتاع القليل في الدنيا .

الثاني : العذاب الأليم في الآخرة .

ليكون الفراق الحقيقي والأبدي بين الناس يوم القيامة ، إذ ينقسم الناس قهراً عليهم إلى قسمين متضادين في الجزاء ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾^(٢). ومن آيات عالم الآخرة أنه مع التضاد والتباين بين أهل الجنة وأهل النار ، وشدة حرارة النار ، فإنه يجري حوار بين الفريقين ، قال تعالى ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

وورد بسند ضعيف عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (إن أناساً من أهل الجنة يتطلعون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ، فوالله ما دخلنا الجنة إلا بتعليمكم؟! فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل)^(٤).

و(عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، لكل جزء منها حرها)^(٥). ترى كيف يكون الحديث بين أهل الجنة والنار مع الإحساس بلهب النار من مسافة بعيدة ، الجواب من وجوه :

الأول : لا يصيب حر النار أهل الجنة وإن أشرفوا عليها ، قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٦).

(١) سورة الزمر ٧٣.

(٢) سورة الزمر ٧٣ .

(٣) سورة الأعراف ٥٠.

(٤) الدر المنثور ١/١٠٤ .

(٥) الدر المنثور ١/٤٧ .

(٦) سورة مريم ٧١.

الثاني : طوي المسافات بين أهل الجنة والنار فيسمع بعضهم حديث بعض .

الثالث : كيفيات متعددة بفضل الله للحجة على أهل النار ، وليشكر المؤمنون الذين عملوا الصالحات الله عز وجل لذا ورد قوله تعالى ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

كم مرة حج النبي (ص)

في عدد المرات التي حجها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجوه:
الأول : حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة عشرين حجة ، وهو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام^(٢).

الثاني : حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ثلاث حجج: حجتين قبل الهجرة، وحجة الوداع)^(٣)، عن جابر بن عبد الله الأنصاري .

الثالث : حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة وبعدها لا يعرف عددها ولم يحج بعد الهجرة إلا حجة الوداع^(٤).

والنسبة المنطقية بين موضوع آية البحث وآيات القرآن الأخرى متعددة لأن موضوع آية السياق متعدد ، فمثلاً تبدأ آية البحث بكلمة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ والنسبة بينها وبين قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾^(٥) هو العموم والخصوص المطلق ، إذ أن الإستجابة في آية البحث أعم ، بينما يختص موضوع الإستجابة في الآية أعلاه بنصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في واقعة بدر .

(١) سورة يونس ١٠.

(٢) البحار ٣٩٨/٢١.

(٣) البحار ٣٩٨/٢١.

(٤) البحار ٣٩٨/٢١.

(٥) سورة الأنفال ٩.

ليبان قانون الدنيا دار الإستجابة للمؤمنين بخصوص الوقائع وأمور الدنيا والآخرة ، فليس من حصر لميادين الإستجابة من الله عز وجل ، لتشمل موضوع الدعاء وغيره ، ويتجلى قانون نفع دعاء الحي للمعدوم ممن مات ومن لم يولد بعد .

و(عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَقَعَ فِي أَبِی الْعَبَّاسِ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَطَمَهُ الْعَبَّاسُ فَجَاءَ قَوْمَهُ فَقَالُوا وَاللَّهِ لَنُلَطِّمَنَّ كَمَا لَطَمَهُ فَلَبِسُوا السِّلَاحَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ قَالُوا أَنْتَ قَالَ فَإِنَّ الْعَبَّاسَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ فَلَا تَسُبُّوا مَوْتَانَا فَتَوُذُّوا أَحْيَاءَنَا فَجَاءَ الْقَوْمُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِكَ^(١) .

وإذا كان كفار قريش يتقلبون ويسافرون بين البلدان فانهم حرموا على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الحج والعمرة ، مع أنه بيت الله وقد جعله للناس جميعاً ، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

صيغة الجمع (جنات)

ورد ذكر الجنة في القرآن بصيغ متعددة ، جنة ، الجنة ، جتان ، جنتين ، الجنتين ، الجنان .

وقد تأتي بعض هذه الأسماء بخصوص الحياة الدنيا وكما في لفظ ﴿جَنَّاتٍ﴾ الذي ورد مرتين وفي آيتين متجاورتين بقوله تعالى ﴿وَكُلُوا إِذْ دَخَلْتُمْ جَنَّاتِكُمْ قُلْتُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَبُّنًا أَقَلَّ مِنْكُمْ مَالًا وَكَذًا * فَعَسَى رَبِّي

(١) مسند أحمد ١٣٠/٦ .

(٢) سورة آل عمران ٩٦ .

أَنْ يُؤْتَيْنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿١﴾.

وورد ذكر الجنات في القرآن لجنات وبساتين الدنيا ، كما في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ (٢) .

وورد ذكر الجنات بخصوص الآخرة نحو (٥٩) مرة ، منها آية السياق ، والجنة لغة هي البستان من الشجر والنخل الذي يستتر ما بداخله .
(و) والجنة : البستان ، ومنه الجنات . والعرب تسمي النخيل جنة .
وقال زهير :

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ ... مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سَحْقًا ﴿٣﴾ .
والجنة بكسر الجيم ، الجن سمي به لستارهم عن الأنظار ، قال تعالى ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٤) .

والجنة : الجنون لاستتار وغياب العقل عن المجنون ، قال تعالى ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ (٥) والجن بالفتح : القبر لأنه يستر جسد الميت .

ترى لماذا ذكرت آية البحث الجنات بصيغة الجمع ، ولم تقل (جنة) بصيغة المفرد ، فيه وجوه :

الأول : بيان الفضل العظيم من الله عز وجل على المؤمنين والمؤمنات في الآخرة .

الثاني : بيان تعدد الجنات في الآخرة .

(١) سورة الكهف ٣٩-٤٠ .

(٢) سورة الأنعام ١٤١ .

(٣) الصحاح في اللغة ١/ ١٠٥ .

(٤) سورة السجدة ١٣ .

(٥) سورة سبأ ٨ .

الثالث : تفرق المؤمنين في الجنات المتعددة بحسب الإيمان ، ومراتب التقوى وعمل الصالحات ، ودرجة الصبر والقتال والشهادة .
وفي الأذى الذي لاقاه الصحابة من المشركين ثواب عظيم ، وهل في عدم اغترار المؤمن بتقلب الذين كفروا في البلاد أجر وموضوعية في مراتب السكن في الجنة ، الجواب نعم ، لقانون النفع العظيم من الإمتثال والعمل بأحكام الآية القرآنية .

تقسيم مستحدث لمعجزات النبي (ص)

لقد قمت بتقسيم معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تقسيماً مستحدثاً إلى قسمين :

الأول : المعجزات الذاتية التي تشمل السنة القولية والفعلية مثل حديث الإسراء والمعراج وانشقاق القمر ، وحنين جذع النخلة .

الثاني : المعجزات الغيرية التي تتجلى في مظاهر نبوته في اتباع الأمة له ، وشواهد الإعجاز في سيرة أهل البيت والصحابة .

ويجمع القسمين قوله تعالى ﴿وَقَبِّلْكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(١) في صلاة الجماعة وإتيان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الصلاة في أوقاتها ، وهو لا يتعارض مع المعنى الثاني للآية و(عن أبي الجارود قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله عز وجل (وتقبلك في الساجدين) قال: يرى قلبه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه (عبد الله بن عبد المطلب) من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام)^(٢).

ومع الأذى الشديد الذي لاقاه المسلمون فانهم لم يفارقوا الصلاة بل كانت الغذاء والمدد اليومي الذي يخفف عنهم الأذى ، ويصرف عنهم

(١) سورة الشعراء ٢١٩.

(٢) البحار ٣/١٥.

الضرر ، وهو من أسرار أمر الله عز وجل للمسلمين والمسلمات بالإستعانة بها بقوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١).

وتارة تكون المعجزة الغيرية مرآة للمعجزة الذاتية كما في محاكاة المسلمين لصلاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(٢) وحسن امثال المسلمين للأوامر الإلهية بخصوص الصلاة ، وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه ، واتصاف المسلمين بالأخلاق الحميدة لقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

وأخرى تكون المعجزة الغيرية ابتداء ورشحة من رشحات وفيوضات الرسالة كما في دفاع المسلمين عن الإسلام ، وامتناعهم عن الإفتتان بالذين كفروا ، وكثرة أموالهم ، وتقلبهم في البلاد.

دلائل الإستجابة

ومن رحمة الله عز وجل مجئ النعم الدنيوية للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ولكن المؤمن يقابلها بالشكر الذي يتجلى ببهاء في الآية السابقة ، ويمكن أن تسمى صفات المؤمنين صفات الشاكرين ، وقد ذكرت الآية السابقة عدة صفات للمؤمنين :

الأولى : اجتهاد المؤمنين بالدعاء الذي يدل عليه أول آية السياق بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ﴾ وقد تضمنت الآيات الأربعة السابقة نداء الإستغاثة والدعاء ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات.

ونزلت هذه الآية بذكر الإستجابة من الله ربهم .
وليكون تقدير هذه الآيات : نادوا ربنا فاستجاب لهم ربهم .

(١) سورة البقرة ٤٥.

(٢) البيهقي / السنن الكبرى ٣٤٥/٢ .

(٣) سورة القلم ٤.

الثانية : دلالة قوله تعالى ﴿رَبُّهُمْ﴾ على الوعد من الله للمؤمنين أولي الألباب الذين يلجأون إلى الدعاء المقرون بالصبر في طاعة الله .

الثالثة : بيان قانون من الإرادة التكوينية وهو حفظ الله لكل عمل للمؤمنين والمؤمنات وإثابتهم عليه كالصلاة والصيام والزكاة ، وإن لم يلاقوا الأذى في سبيل الله .

الرابعة : قانون التأخي بين الرجال والنساء من المؤمنين ، وبينما كان العرب يغزو بعضهم بعضاً ، ويسبون النساء والصبيان الذين لا حول لهم ، صارت النسوة أخوات للرجال بصفة الإيمان فانقطع الغزو والسبي بينهم لإدراك المسلم لقانون حرمة سبي أخواته .

الخامسة : من معاني قوله تعالى ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(١) ، دعوة المسلمين والمسلمات إلى التمسك بأحكام الشريعة ، والحلال والحرام التي في القرآن والسنة ، قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^{(٢)(٣)} .

السادسة : قانون موضوعية الهجرة في بناء صرح الإسلام ، وذكرها في آية بصيغة الإطلاق ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾^(٤) ليشمل :

الأول : المهاجرون إلى الحبشة وعددهم ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة .

الثاني : هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته إلى المدينة .

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٣) أنظر الجزء الواحد والسبعين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٤) سورة آل عمران ١٩٥ .

الثالث : المهاجرون إلى المدينة رجالاً ونساءً .

الرابع : الذين هاجروا إلى مكة للإلتحاق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل هجرته إلى المدينة ، وأخبر ابن عباس عن بدء إسلام أبي ذر قال (أن رجلاً خرج بمكة يزعم أنه نبي أرسل أخاه فقال اذهب فأتني بخبر هذا الرجل وبما تسمع منه .

فانطلق الرجل حتى أتى مكة فسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجع إلى أبي ذر فأخبره أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بمكارم الأخلاق .

فقال أبو ذر ما شفيتني فخرج أبو ذر ومعه شنة فيها ماؤه وزاده حتى أتى مكة ففرق أن يسأل أحداً عن شيء ولما يلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فأدركه الليل فبات في ناحية المسجد فلما أعتم مر به^(١) .

فقال ممن الرجل قال رجل من غفار قال قم إلى منزلك^(٢) قال فانطلق به إلى منزله ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

وغدا أبو ذر يطلب فلم يلقه وكره أن يسأل أحداً عنه فعاد فنام حتى أمسى فمر بي علي .

فقال أما إن للرجل أن يعرف منزله فانطلق به فبات حتى أصبح لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

فأصبح اليوم الثالث فأخذ على علي لثن أفشي إليه الذي يريد ليكتمن عليه وليستره ففعل .

فأخبره أنه بلغه خروج هذا الرجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي^(٣) ليأتيني بخبره وبما سمع منه فلم يأتني بما يشفيني من حديثه فجئت بنفسه لالقاءه .

(١) الظاهر أن كلمة علي عليه السلام سقطت من النسخ .

(٢) من الكرم الطاغى أن يطلق على بيته أنه منزل الضيف .

(٣) في الأصل (خي) وهو من سهو النساخ .

فقال له علي إني غاد فاتبع أثري فإني إن رأيت ما أخاف عليك اعتللت بالقيام كأنني أمريق الماء فأتيتك وإن لم أر أحدا فاتبع أثري حتى تدخل حيث أدخل ففعل حتى دخل على أثر علي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره الخبر.

وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم من ساعته ثم قال يا نبي الله ما تأمرني .

قال ترجع الى قومك حتى يبلغك أمري .

فقال له والذي نفسي بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد. فدخل المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال المشركون صبأ الرجل صبأ الرجل فضربوه حتى صرع^(١).

الخامس : مطلق هجرة الأنبياء والمؤمنين منه في النبي لوط عليه السلام ، قول الله تعالى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) .

وهل يدل قوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾^(٣) ، على إرادة الهجرة من الكفر إلى الإيمان ، الجواب لا ، فالقول المتبقي منه هو هجرة الأبدان والانتقال من بلد الإقامة إلى بلد آخر بقصد سلامة الدين ، وفي التنزيل ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾^(٤) وكل فقرة من الآية تدل على الإيمان والثبات عليه .

(١) الطبقات الكبرى ٢٢٤/٤.

(٢) سورة العنكبوت ٢٦.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

(٤) سورة آل عمران ٢٦.

قانون جهاد الصبر

لقد قام المشركون باخراج شطر من الأنبياء من أوطانهم ، فتلقوا الإخراج من الديار بالصبر والقبول لقوله تعالى ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(١) وتقدير الآية : وأخرج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق ، إذ القرآن يفسر بعضه بعضاً ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٢).

وأيهما أفضل وأحسن للمسلم البقاء في الديار بين ظهرائي الكفار ، أو الثواب الذي يترتب على الإخراج من الديار ، الجواب هو الثاني ، وهو الذي تدل عليه آية السياق لما فيها من الوعد الإلهي ، وقال تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٣).

فقد كانت قريش تؤذي النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عند أدائهم الصلاة ، فهاجرت طائفة منهم إلى الحبشة ، وهاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأكثر أصحابه الأوائل إلى المدينة فصاروا يصلون الصلوات الخمسة بأمان وطمأنينة ، وبني النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مسجده في المدينة ليكون مزاراً لوفود المسلمين من مختلف البلاد في كل أيام السنة وإلى يومنا هذا.

ليبان تضمن آية البحث ﴿لَا يُغْنِي عَنْكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٤) بشارة بأن القلب والضرب في البلاد سيكون للمسلمين ، ويكون سفرهم في طاعة

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة الحج ٤٠.

(٣) سورة البقرة ٢١٦.

(٤) سورة آل عمران ١٩٥.

الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَرِيدُ أَنْ نَبُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١).

ومن الآيات في المقام أنه لما تم فتح مكة لم يبق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيها ويدير أمور الإمامة والتبليغ في أم القرى ، بل بقي فيها عدة أيام وانقلب راجعاً إلى المدينة (عن ابن عباس قال: أقام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين، وفي لفظ: أقمنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة تسعة عشر نقصر الصلاة)^(٢). ليصبح الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم من أم القرى في حال ندامة وخزي وأسف ، (عن ابن عباس، قال: رأى أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي والناس يطأون عقبه.

فقال في نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال. فجاءه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى ضرب بيده في صدره، فقال: إذا يخزيك الله. قال: أتوب إلى الله وأستغفر الله.

وروى نحوه، مرسلًا، أبو إسحاق السبيعي، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم.

وقال موسى بن أعين، عن إسحاق بن راشد، عن الزهري، عن ابن المسيب، قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا. فقال أبو سفيان لهند: أترى هذا من الله - ثم أصبح فغدا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: قلت لهند أترى هذا من الله، نعم، هذا من الله .

فقال: أشهد أنك عبد الله ورسوله. والذي يحلف به أبو سفيان، ما سمع قولي هذا أحد من الناس إلا الله وهند)^(٣).

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة العباد ٢٦١/٥.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٣١٩/١.

أي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبره ابتداء بما جرى بينه وبين زوجته هند بنت عتبة لبيان أن قيام الصحابة بالتكبير والتهليل والطواف حول البيت حتى الصباح معجزة غيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشاهد على صدق رسالته وهو من رشحات قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

فمع أن الآية أعلاه نزلت بخصوص صلح الحديبية فهي مقدمة لفتح مكة سلماً من غير قتال .
وصبغة السلم في فتح مكة من مصاديق صفة (المبين) للفتح ، وكذا سعيه ، ومنه رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم للملوك عصره يدعوهم إلى الإسلام .

الإعجاز الغيري في آية الوأد

آية السياق من آيات القرآن التي تكرم المسلمين رجالاً ونساءً ، وتؤسس لقانون التفاؤل ووجوب العناية بالبنت وحسن تربيتها .
إذ ذكرت عدم تضييع عمل النساء في طاعة الله بقوله تعالى ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٢).
وهل ينتفع الوالدان من عمل البنت المؤمنة ، الجواب نعم ، وكذا ينتفع منه زوجها وأولادها .
ومن آيات إكرام القرآن للبنت من حين ولادتها قوله تعالى في ولادة مريم ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾^(٣) ، وما فيه من إظهار المائز والفضل للمشبه به وهو الأنثى .

(١) سورة الفتح ١.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

(٣) سورة آل عمران ٣٦.

وقال (قتادة وغيره : وبدأت بذكر الأهم في نفسها ، وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول : وليس الأنثى كالذكر)^(١).

ولكن جاءت الآية أعلاه بصيغة التشبيه بأداة التشبيه الكاف بين المشبه وهو الذكر والمشبّه به وهي الأنثى لبيان علو شأنها كما يقال : البستان جميل كالجنة.

وفي الآية إخبار بأن الله عز وجل يرزق هذه الأنثى كرامة وعزاً وتلد عيسى عليه السلام ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

فورد الإصطفاء في الآية من جهتين مطلقاً ومقيداً على نساء أهل زمانها ، لبيان قانون نهى آيات إكرام المرأة عن إيذائها .

ومن الإعجاز الغيري في آية ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾^(٣) ، مسائل :

الأولى : التوثيق السماوي لحالات الوأد وذبح البنات عند العرب في الجاهلية .

والمؤودة هي الأنثى المولودة حديثاً تدفن حية خشية سبي الأعداء لها ، أو خشية الفقر والفاقة (وكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته)^(٤).

ونزل القرآن بالوعد الكريم برزق الأولاد معهم ، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾^(٥).

والشواهد اليومية على تنجز وعد الله عز وجل بالرزق الكريم للأبناء والأبناء في كل زمان .

(١) تفسير الثعالبي ٢٠٣/١ .

(٢) سورة آل عمران ٤٢ .

(٣) سورة التكوين ٨ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢٧/١٧ .

(٥) سورة الإسراء ٣١ .

الثانية : ذم القرآن للوآد .

الثالثة : بعث الذين وأدوا بناتهم للإستغفار والكفارة وإظهار الندم .
(عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾^(١) قال : جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أعتق عن كل واحدة رقبة ، قال إني صاحب إبل . قال : فأهد عن كل واحدة بدنة^(٢) .

ووفد قيس بن عاصم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع وفد تميم في السنة التاسعة للهجرة وأعلنوا إسلامهم .

وكان سبب وأد قيس لبناته أنه سيبت له بنت من قبل أعداء لهم ، ولما تم الصلح وعاد السبي أبت ابنته العودة وبقيت مع زوجها ، فحلف قيس أن يوآد كل بنت تولد له ، وهذه اليمين باطلة ونسختها وحرمتها آية الوآد .

وعن أبي خديجة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : إني قد ولدت بنتا وربيتها حتى إذا بلغت فألبستها وحليتها ثم جئت بها إلى قلب فدفعتها في جوفه ، وكان آخر ما سمعت منها وهي تقول يا أبتاه .

فما كفارة ذلك ، قال : ألك أم حية ، قال : لا ، قال : فلك خالة حية؟ قال : نعم ، قال : فابررها فإنها بمنزلة الأم يكفر عنك ما صنعت ، قال أبو خديجة : فقلت لابي عبدالله عليه السلام : متى كان هذا .

فقال : كان في الجاهلية وكانوا يقتلون البنات مخافة أن يسبين فيلدن في قوم آخرين)^(٣) .

(١) سورة التكوير ٨ .

(٢) الدر المنثور ٢٠٦/١٠ .

(٣) الكليني / الكافي ٢/٢٣٣ .

الرابعة : إنقطاع الواد بآية واحدة من القرآن وإلى يوم القيامة ، وهو من إعجاز القرآن الغيري .

فلا تستطيع دول على قطعه وتنزيه المجتمعات منه إلا بقوانين صارمة وانفاق أموال كثيرة ، وفتح السجون للمخالفين ، وقد يعود من جديد ، فنزلت آيتان في مكة من بضع كلمات لتقطع الواد إلى يوم القيامة .

ليبان النفع العظيم للآية القرآنية ، وبقائها غضة طرية إلى يوم القيامة مع سلامتها من التحريف فلا تستطيع دول ومؤسسات وأموال طائلة أن تنفع الناس في سبل الصلاح مثل الآية القرآنية ، وهو من الشواهد على إعجاز القرآن ، وحاجة الناس له تنزيلاً وموضوعاً وتلاوة وحكماً .

الخامسة : إنتفاء أسباب الواد وهو غزو القبائل بعضها بعضاً لتبدل الحال وصيرورة الناس إخوة بالإيمان ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١) . وحتى لو تجدد الغزو ظلماً وتعدياً فانه لا يقع وأد للبنات .

السادسة : إكرام المسلمين للمرأة ، قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾^(٢) .

السابعة : تهيئة أسباب ومقدمات أداء المرأة للفرائض العبادية ، وتيسير أدائها لحج بيت الله الحرام .

وإنصافها في الأثر بعد أن كان العرب لا يعطون المرأة من الميراث شيئاً فنزل قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ ﴾^(٣) .

الثامنة : كثرة الزواج في الإسلام ، وزيادة النسل والأولاد لأنه لا يتم إلا بطرفين ، الزوج والزوجة ، مع إباحة تعدد الزوجات للرجل إلى أربعة وهذه مسألة نضيفها لأول مرة في بيان علة ومنافع تعدد الزوجات مع شرط

(١) سورة الحجرات ١٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٣) سورة النساء ١١ .

العدالة بينهم ومنها استئصال الواد ، فلا تكون البنت عالة على أهلها إنما تصبح أما وقد أوصى القرآن والسنة بإكرام الأم ، قال تعالى ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١).

و(عن سعيد بن هلال ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : تناكحوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة)^(٢).
التاسعة : تنمية ملكة الأخلاق الحميدة عند المسلمين والمسلمات ،
 وصلاح مجتمعات المسلمين ، ونشر شآبيب الرأفة والرحمة بين الناس ، قال تعالى ﴿وَأَنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾^(٣) ، ومن اقتداء المسلمين بخلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم التنزه عن الواد.

قانون استئصال الواد

حينما أخبر الله عز وجل الملائكة عن جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) ، تساءلوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٥) ، فأجابهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وواد البنات من الفساد في الأرض ، ومن سفك الدماء لذا فإن الواو في ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ تفيد العطف لإجتماع الفساد والسفك بالواد ، وتفيد الإستئناف ، فقد يقوم الإنسان بالقتل ظلماً من غير أن يفسد في الأرض .
 وفي آية الواد مسائل :

(١) سورة النساء ٣٦.

(٢) الدر المنثور ٣/٣٤٥.

(٣) سورة القلم ٤.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

الأولى : من علم الله عز وجل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعناية المسلمين بالبنات بلطف وفضل من الله والذي تدل عليه آية السياق بقوله تعالى ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى﴾^(١) ، عن قتل البنات ، ودفنهن أحياء.

(روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من بيت فيه البنات إلا نزلت كل يوم عليه اثنتا عشرة بركة ورحمة من السماء ، ولا ينقطع زيارة الملائكة من ذلك البيت يكتبون لأبيهم كل يوم ليلة عبادة سنة)^(٢).

و(عن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : لَا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ)^(٣).

وعن (عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله حرم عليكم عقوق الامهات ووآد البنات ومنع وهات وكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال)^(٤).

ليبان قانون تعضيد السنة النبوية للقرآن ، بتأكيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحرمة وأد البنات .

الثانية : النهي عن التشاؤم وإظهار الأسف عند ولادة البنت قال تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾^(٥).

فنزلت آية النهي عن الوأد ليتلقى المسلم ولادة البنت بالشكر لله عز وجل ، والعناية بها ، ولا يعير الناس أحدهم إذا ولدت له بنت .

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) مستدرک الوسائل ٨٨/١٥ .

(٣) مسند أحمد ٣٥/٣٤٣ .

(٤) البيهقي / السنن الكبرى ٦/٦٣ .

(٥) سورة النحل ٥٨-٥٩.

الثالثة : لقد كان وأد البنات يهدد المجتمعات في وجودها ، فنزلت بضع كلمات من القرآن لتستأصله وتمنعه إلى يوم القيامة بقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(١) لبيان قانون حاجة الناس للآية القرآنية وما فيها من التشريع ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) انفاذ محبة البنت إلى قلب أبيها طوعاً وانطباعاً ، سواء في صغرها أو عندما تكبر وتتزوج وتكون أما ، وكانوا في الجاهلية محرومين من هذه النعمة وما فيها من البركة.

الرابعة : آية حرمة الوأد ، وانقطاعه إلى يوم القيامة دعوة للمسلمات والنساء جميعاً للشكر لله عز وجل على بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن وحفظه وأحكامه ، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

مسائل في معجزة انقطاع الوأد

لقد نزلت آية الوأد في مكة وفيها دعوة للناس لإجتنب عادات قبيحة معتادين عليها ، وقد تكون هذه الدعوة في بدايات الإسلام سبباً لعزوف الناس عن الإسلام وقبول ما فيه من التكاليف ، ولكنه التنزيل الذي لا يخشى الظالمين ، ولا يلحظ العواطف والأهواء المخالفة للقوانين والقواعد العامة في خلافة الإنسان بقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤).

(١) سورة التكويد ٨-٩.

(٢) سورة فصلت ٥٣.

(٣) سورة الحجر ٩.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

ولم يتأخر نزول حرمة الوأد إلى ما بعد الهجرة النبوية والفتح ، بل نزلت أو أن اشتداد أذى قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه .

ومن الآيات عدم اتخاذ المشركين هذه الحرمة لصرف الناس عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنها من الفطرة السليمة ، ولقانون حجب المشركين عن تشويه التنزيل ، وقانون عجز الذين كفروا عن صرف الناس عن آيات التنزيل والإصغاء لها .

لقد كان إنقطاع الوأد معجزة غريبة للقرآن ، وفيه مسائل :
الأولى : قانون قبح الوأد واتصال مضامين هذا القانون إلى يوم القيامة ببركة القرآن .

الثانية : جذب قلوب النساء إلى الإيمان ، وبعث النفرة في نفوسنا من الكفر ورجالاته .

الثالثة : قانون ملاحقة آية الوأد للذين كفروا في أسفارهم وتقلبهم في البلاد الذي تذكره آية البحث ، فمن خصائص الفطرة الإنسانية الكره لمن يقوم بقتل المولودة خشية الإملاق والفقر .

الرابعة : نزول القرآن سبب لإنقطاع الوأد وامتناع أسبابه وهي الغزو بين القبائل ، وخشية سبي البنات .

الخامسة : قانون مصاحبة الرزق الكريم للإيمان إذ توالى النعم على المسلمين وأهل الجزيرة ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) .

و﴿ نُو ﴾ حرف إمتناع لإمتناع لبيان تحقق مصداق الإيمان والتقوى بأهل المدينة ومكة وعامة المسلمين ، وكيف أن الله عز وجل فتح عليهم بركات

من السماء والأرض ، ولييان قانون أن يكذب قوم بالرسالة فان الله عز وجل يأتي بقوم يؤمنون بها ، فتتوالى عليهم الخيرات .

قانون التهجير عناء وشدة

تبين آية السياق الأذى الشديد الذي يلاقيه المهجرون من ديارهم سواء الأذى الإقتصادي أو الإجتماعي ، والمخاطر التي يتعرضون لها ، وتشتت الأسر والعوائل ، وتعطل المكاسب لولا فضل الله .

لقد أتخذ المستكبرون هذا التهجير وسيلة لزجر الناس عن دخول الإسلام ، فنزلت آية السياق لمنع هذا الأثر باخبارها عن الثواب العظيم الذي ينتظر الذين أخرجوا من ديارهم ، إذ صار جهاداً بالنفوس والأموال من غير قتال ، قال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

تتضمن آية السياق إحصاء الله عز وجل للأذى الذي لاقاه المسلمون والمسلمات لقوله تعالى ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾^(٢) سواء كان هذا الأذى في الأبدان أو الأموال أو القهر أو تخويف وتوبيخ المشركين لهم ظلماً وتعدياً وتحدياً.

والنسبة بين الإخراج من الديار وبين الإيذاء الذي تذكره آية السياق عموم وخصوص مطلق ، فالذين أودوا أعم وأكثر ومنهم الذين أخرجوا من ديارهم في سبيل الله لأن هذا الإخراج أذى محض ، ولكن الله عز وجل يجعله مدخلاً للأمن والسكينة والعز ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

ومن معاني هذا العموم أن الذين توجهوا بالدعاء إلى الله في الآيات الأربعة قبل السابقة والنداء (ربنا) يشمل الذين أودوا في سبيل الله ، كما

(١) سورة النحل ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

يشمل كل مسلم ومسلمة وإن لم يؤذوا في سبيل الله ، لذا ابتدأت آية السياق بصيغة العموم ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾^(١) .

ليدل الجمع بين آية البحث والآية السابقة لها على تعدد الأذى الذي لاقاه المسلمون ، وفيه ضرر كبير ، ولكن الله عز وجل منع هذا الضرر وخفف وطأة الأذى بسبيل وصيغ من رحمته ، ومنها الأمن وسلامة الدين في بلد الهجرة في المدينة ، وتلقي الأنصار للمهاجرين بمعاني الأخوة والمودة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٢) .

وتتضمن إخبار آية السياق الإخبار عن قيام المسلمين بالقتال ، وشهادة طائفة منهم ، وتدل آيات القرآن على صيغة الدفاع في قتال المسلمين ، وأنه خاص لوجه الله عز وجل ، وحفظ النبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣) .

الوجه الثاني : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا

عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٤) .

وفيها مسائل :

الأولى : تتضمن آية السياق دعاء الذين حباهم الله بالعقول الراجعة بدلالة اختيارهم الإيمان بدليل قوله تعالى قبل ست آيات ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ

الْأَلْبَابُ﴾^(٥) .

وقال المتنبي:

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) سورة آل عمران ١١١ .

(٣) سورة البقرة ١٩٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٩٤ .

(٥) سورة آل عمران ١٩٠ .

(ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم)^(١).
وهذا القول قول شاعر وفيه رائحة الحسد.

لقد وردت الآيات محل البحث بالثناء على أولي الألباب الذين سخروا عقولهم لبعث الجوارح والأركان لطاعة الله عز وجل ، نعم تنعم المشركون بتقلبهم في البلاد ، ولكنه متاع قليل سرعان ما يزول .

ومن مصاديق الإيمان في المقام إقرارهم بأن مقاليد الأمور كلها بيد الله عز وجل ، فبادروا بالتوجه إليه بلسان العبودية والدعاء بالمسائل والحاجات المتعددة ، ومن فضل الله عز وجل أنه يحب من عباده الدعاء وبث حاجاتهم وشكواهم إليه ، لذا جاءت آية السياق بالدعاء ، لذا قال تعالى ﴿ادْعُونِي﴾ بصيغة الأمر ، والأصل فيه الوجوب ، ووعد الله بالإستجابة ، وقال تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(٢) .

الثانية : ابتدأت آية السياق بالنداء (ربنا) وهو أبهى وأعذب نداء ، النداء الذي لا يفارق مشارق الأرض ومغاربها في كل ساعة من ساعات الحياة الدنيا من يوم هبوط آدم وحواء إلى الأرض وإلى يوم ينفخ في الصور.

فلا بد من وجود أمة تذكّر الله وتدعوه وتقيم الصلاة ، وترجو فضل الله عز وجل .

وتبين الآية مسألة وهي صدور هذا الدعاء من أولي الألباب مجتمعين ومتفرقين ، فهو لم يصدر من فرد واحد أو جماعة منهم .

وهل يختص قول (ربنا) في آية السياق بالمسلمين والمسلمات ، وقراءتهم القرآن ، الجواب لا ، فهو نداء الأنبياء والصالحين ، وأتباع الأنبياء ، وهو

(١) تفسير القرطبي ١١/١٥٣.

(٢) سورة الفرقان ٧٧.

قوس الصعود الشاهد على تحقق المصداق العبادي وفي كل ساعة من آنات الزمان الطولية ، لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١). ولما جعل الله عز وجل عبادة الناس له هي علة خلقهم فانه هداهم لسننها ، وقربهم إليها ، ويسر لهم طرقها ، وفيه وجوه :

الأول : قانون كل آية كونية تقرب الناس إلى عبادة الله .

الثاني : قانون كل آية قرآنية خطاب لأولي الألباب للإخلاص في عبادة الله .

الثالث : قانون الدعاء عبادة لله عز وجل .

الرابع : تقريب الناس إلى طاعة الله لطف منه تعالى ، ولا يحصى مصاديق اللطف في المقام إلا الله ، ومن الآيات أن كل تقريب لإنسان في المقام يختلف عن كيفية تقريب غيره من الناس لقانون تباين الناس في الحال والمزاج ، فهذا التقريب مثل بصمة اليد وبصمة العين كل واحدة منهما لا تجتمع عند اثنين من البشر .

الثالثة : لقد أخبرت آية البحث عن الأمن والسعة التي يعيشها الذين كفروا ، وحفظ أموالهم وتجارتهم ، وهو من مصاديق تقلبهم في البلاد ، وما فيه من النعم والسير في القرى والبلدان لتحريض الناس على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وجمع الجيوش لقتاله وأحياء حلفهم مع القبائل للباطل والظلم ، وهذا السير من مصاديق تقلبهم في البلاد ، بينما ينشغل المؤمنون بالدعاء والاستجارة بالله عز وجل ، كما في آية السياق ﴿رَبَّنَا وَآتْنَا﴾.

وقد ورد لفظ ﴿رَبَّنَا وَآتْنَا﴾ ثلاث مرات في القرآن ، ولم يرد باضافة حرف الواو بين نداء الربوبية المطلقة والمسألة إلا في آية السياق لبيان ثبات

الذين آمنوا في مقامات الإيمان ، وعلمهم بأن الأمور كلها بيد الله ، وعدم إلتفاتهم إلى ما عند الذين كفروا من الأموال والجاه والسلطان.

الرابعة : ذكرت آية السياق سؤال المسلمين الله عز وجل بتنجز وعده لهم على السنة الرسل الذين بعثهم للناس .

ومن هذا الوعد الأمن وسعة العيش والنصر وخزي الكافرين ، ومنه مضامين آية البحث بحجب الذين كفروا عن القلب في البلاد بما هم كفار ومنع أضرار هذا القلب والتثقل ومنها مؤازرة الكفار بعضهم لبعض ، ومحاربة المسلمين والتضييق عليهم.

وبعد أن هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ووقع معركة بدر منعت قريش دخول المهاجرين والأنصار مكة ، وصدوهم عن أداء مناسك الحج والعمرة.

وقد وعد الله عز وجل بهلاك الظالمين بآية منه بقوله تعالى ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

الخامسة : لقد أخبرت آيات عديدة عن لحوق الخزي بالذين كفروا في الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، لبيان مسائل:

الأولى : قانون تعدد الخزي الذي يلحق الذين كفروا.

الثانية : قانون خزي الكافرين حتمي .

الثالثة : قانون الخزي يوم القيامة اشد بمراتب من الخزي في الحياة الدنيا.

الرابعة : قانون اجتماع الخزي والعذاب الأليم على الكافرين يوم القيامة .

(١) سورة ابراهيم ١٣.

(٢) سورة التوبة ٢.

الخامسة : الخزي الذي يصيب الذين كفروا من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة ، وينزل أشد أنواع الخزي والفضيحة والعار بالذين كفروا الذين يحاربون النبوة والتنزيل .

السادسة : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ، ودار امتحان ، ويفيد الجمع بين آية السياق وآية البحث توفيق المسلمين في سبل مرضاة الله وتخلف الذين كفروا عن واجباتهم التي تتجلى في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، لبيان أن عبادة الناس لله رحمة بهم ونعمة وخير محض لهم جميعاً مع غنى الله عز وجل عنها وعنهم ، قال تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وفي مفهوم الآية أعلاه إنذار للكافرين وتكرر هذا الإنذار بوضوح في آية البحث ، وكأنه من المجلمل والمبين .

لقد حرم الذين جحدوا بالتوحيد أنفسهم من نداء التوحيد (ربنا) والذي يدل على الحاجة إليه مجئ حرف الواو بعده ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾ مع ما فيه من العذوبة والطمأنينة ، وقول (ربنا) في أول آية السياق من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣).

قانون تقلب الذين كفروا وبال عليهم

اختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٤)، وفيه بشارة للذين آمنوا وإنذار للذين كفروا ، ومن مصاديق الإنذار بخصوص آية البحث أن تقلب وتنتقل الذين كفروا في البلاد وبال عليهم .

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

(٣) سورة الرعد ٢٨.

(٤) سورة آل عمران ١٩٤.

ولم يرد قوله تعالى ﴿لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ في القرآن إلا في آية البحث ،
 وورد مرة واحدة بصيغة الغائب ﴿إِنْ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١).

وكل منهما في سورة آل عمران وهي سورة مدنية ، وفيه دعوة للناس
 جميعاً للتدبر فيما وعد الله عز وجل الملائكة والجنس والإنس ، وهل من
 وعود خاصة في المقام .

الجواب نعم ، منها وعود الله عز وجل للأنبياء ، مثل الشفاعة ووعد
 الله للشهداء بالحياة من حين القتل ، قال تعالى ﴿إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهَ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
 مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢) ، وقال تعالى
 ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣).
 ومن الوعد الإلهي ما يكون في الدنيا مثل نصر الأنبياء ومنها قوله تعالى
 ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾^(٤).

ومن بدائع الحياة الدنيا في المقام أمور :

الأول : قانون مصاحبة الوعيد الإلهي للمؤمنين .

الثاني : قانون حرمان الذين كفروا أنفسهم من الوعد الإلهي .

الثالث : قانون تغشي الوعد الإلهي للدنيا والآخرة .

(١) سورة آل عمران ٩.

(٢) سورة التوبة ١١١.

(٣) سورة آل عمران ١٦٩.

(٤) سورة القصص ٦١.

قد تقدم في الجزء الخمسين بعد المائتين عنوان (ربنا) سور الموجبة الكلية لوحدة المؤمنين).

لقد تفضل الله عز وجل ونفخ في آدم من روحه وجعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، ليكون الإيمان وأداء الفرائض العبادية الصلة العامة بين الأجيال ، ومصادق تعاهد الخلافة في الأرض .

لقد نزلت آية البحث لتدل في مفهومها على خيبة الذين كفروا ، وأنهم لا يجنون من قلبهم في البلاد إلا الإثم وتراكم الذنوب عليهم ، وعزلتهم وابتعاد الناس عنهم .

نداء (ربنا) حصن

لقد تقدم في الجزء الثاني والستين بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير آية السياق ذكر ثلاثة قوانين في ثلاثة أسطر (فمن خصائص القرآن قانون الدعاء للدنيا والآخرة ، وبيان قانون وهو لو تردد الأمر بين إرادة الدنيا والآخرة أو الدنيا وحدها ، أو الآخرة وحدها ، فالصحيح هو قانون أصالة الإطلاق في الدعاء ، وإرادة عالم الدنيا والآخرة مجتمعين ومتفرقين)^(٢).

وكل قانون نعمة عظمى من عند الله حرم الذين كفروا أنفسهم منها ، ومن منافعها في الدنيا والآخرة .

وقد ورد النداء العام (ربنا) مائة وست مرات في القرآن لبيان حاجة الناس في الدنيا والآخرة لنداء (ربنا) ، وقانون تفضل الله عز وجل بتعليم الناس نداء (ربنا) وهدايتهم إليه بصيغ من البلاغ واللفظ ومنها بعثة الأنبياء والتنزيل ، والوقائع والإبتلاء العام والخاص في الدنيا .

ومن معاني التعليم العمومي تكراره وتعدد موضوع الدعاء في القرآن ، وقانون وصول آيات القرآن للناس جميعاً ، وقانون إنعدام الحاجز والبرزخ

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) أنظر الجزء الثاني والستين بعد المائتين من هذا السفر ص ٧٥.

بين الناس وبين التنزيل قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

فمن إعجاز الآية أعلاه نسبة مجئ التنزيل إلى الناس مع أن القرآن نزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبيان فضل الله عز وجل على الناس في إيصال التنزيل للأجيال المتعاقبة ، ومنه وجوب تلاوة كل مسلم ومسلمة سور وآيات من القرآن في كل صلاة من الصلوات اليومية الخمسة على نحو الوجوب العيني.

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام في تلاوة القرآن وتعاهد الصلاة في أوقاتها وفي الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل لبيان عبوديته لله عز وجل ، ومنع الغلو في شخصه الكريم ، وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَنَنْكَرُ لَكُمْ بَرِئًا مِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ إِنَّمَا أُحْذَرُ أَنَّكُمْ بِاللَّغْوِ مِثْلُكُمْ فَاصْلَحُوا لِقَاءَ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ مُعْجِبُونَ﴾^(٢).

ليان أن الوحي الذي ينزل على النبي محمد واقية له وللمسلمين من الاغترار بالذين كفروا ، وتقلبهم في البلاد بلباس الكفر .

قانون الدعاء شاهد التضاد بين الإيمان والكفر

يفيد الجمع بين أول كلمة من آية السياق وبين مضامين آية البحث قانون التضاد بين المسلمين والذين كفروا ، فقول (ربنا) إيمان وإقرار ببربوية الله المطلقة ، وتسليم بأن الله عز وجل هو الذي بعث الأنبياء ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وأنزل الكتب السماوية عليهم.

(و) عن قتادة عن أنس قال سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا وهو في سفر يقول الله أكبر الله أكبر قال نبي الله صلى

(١) سورة النحل ٤٤.

(٢) سورة الكهف ١١٠.

الله عليه وآله وسلم على الفطرة قال أشهد أن لا إله إلا الله قال
خرج من النار فاستبق القوم فإذا راعي غنم حضرت الصلاة فقام
يؤذن^(١).

وبينما يتقلب الذين كفروا في البلاد يتفكر الذين آمنوا بملكوت
السموات والأرض واقتران هذا التفكير بالإقرار بالوحدانية وبدائع صنع
الله وبيان المائز بين الصانع والمصنوع ، والمحدث والمحدث ، إذ ورد قبل
خمس آيات في الثناء على المؤمنين ﴿وَيَتَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

لقد تكرر قول (ربنا) في القرآن ليواطب المسلمون على الدعاء
والتضرع إلى الله ، وإظهار الخشوع له.

وقول (ربنا) احتراز من الاغترار بالذين كفروا الذي تذكره آية
البحث ، ومن البديع في نظم القرآن تكرار نداء (ربنا) خمس
مرات في الآيات الأربعة السابقة والتي جاء بعدها قوله تعالى
﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(٣) ، وقد حرم الذين كفروا أنفسهم من نعمة
الإستجابة هذه .

ومن تقدير النداء في آية البحث : ربنا ولا يغرننا تقلب الذين كفروا في
البلاد .



(١) النسائي / السنن الكبرى ٢٠٧/٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٩١ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٥ .

قانون انتشار الإسلام بالصبر والبرهان

ابتدأت آية السياق بالدعاء ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾^(١) (٢) وتقدم في الجزء الثاني والستين بعد المائتين أنه لم يرد هذا الشرط من الآية إلا في آية البحث إذ تنفرد بحرف الواو في ﴿وَآتِنَا﴾ وهل هو من وعد الله بتقلب المؤمنين في البلاد.

الجواب نعم ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣).

فلم تمر الأيام والليالي على معركة بدر ، وأحد ، ومعركة الأحزاب التي أحاط بالمدينة المنورة فيها عشرة آلاف من المشركين ، وأصاب الخوف الصحابة وأهلهم لولا فضل الله عز وجل بصرفهم بعد أن خسروا فارس مضر عمرو بن ود العامري القرشي ، قتله الإمام علي عليه السلام وأصاب قريش الملل لطول الحصار الذي استمر نحو عشرين ليلة حول الخندق.

ليتم صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة بعد رؤيا رآها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ

(١) سورة آل عمران ١٩٤.

(٢) أنظر الجزء الثاني والستين بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٣) سورة النور ٥٥.

شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١﴾ .

واستطاع الصحابة من المهاجرين والأنصار الضرب في الأرض والسفر من غير خشية من المشركين ، وكان هذا الصلح مناسبة لدخول أفواج من الناس في الإسلام ، لذا سمّاه الله عز وجل بالفتح المبين ، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (٢) وهذا الصلح المبارك مقدمة لفتح مكة بعده بستين في العاشر من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة في آية عظمى .

ليبان قانون انتشار الإسلام بالحكمة والحجة والمعجزة والبرهان وليس بالقتال ، وفي تسمية الصلح فتحاً مبيناً دعوة للناس في كل زمان للجوء إلى الصلح ونبد الخلاف والقتال وسفك الدماء .

ثم نزلت آية السيف ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) لتضييق الأرض على الذين كفروا وينقطع قلبهم في البلاد ، قال تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٤) .

قانون وجوب التصديق بالوعد الإلهي

من معاني الصلة بين آية السياق وآية البحث التضاد بين التصديق بالوعد الإلهي وبين الاغترار بقلب الذين كفروا في البلاد ، إذ يبعث الوعد الإلهي المؤمنين على الصبر ، ويجعلهم في حال عز وغنى وسلامة من

(١) سورة الفتح ٢٧.

(٢) سورة الفتح ١.

(٣) سورة التوبة ٥.

(٤) سورة القصص ٥.

الإفتتان بما عند الذين كفروا من النعم التي هي امتحان لهم وحجة عليهم ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وتدل آية السياق على تفقه المسلمين في الدين ومعرفتهم بسبق رسالات متعددة لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتصديقهم بها ، قال تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلُ مِنْ رُسُلِهِمْ إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلُ الْكِتَابِ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

ومن الوعد الإلهي الذي جاء به الرسل قانون انحسار دولة الذين كفروا ، وقانون هلاك الطغاة الظالمين ، ورجوع الناس جميعاً إلى الله في الآخرة ليقفوا بين يديه للحساب والجزاء ، قال تعالى ﴿وَالْمَوْتَى يَعْثُرُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٣).

قانون دعاء المؤمنين إنذار للكافرين

لقد سأل المسلمون الله عز وجل في آية السياق أن يؤتيهم ما وعدهم على السنة الرسل الذين بعثهم لأهل الأرض ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وما جاء على السنة الرسل هلاك الظالمين كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَتُسَكِّنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾^(٤).

(١) سورة المنافقون ٨.

(٢) سورة البقرة ١٣٦.

(٣) سورة الأنعام ٣٦.

(٤) سورة إبراهيم ١٣-١٤.

والنسبة بين الظالمين وبين الذين كفروا عموم وخصوص مطلق ،
وتكون النسبة أحياناً التساوي لقوله تعالى ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١)
لبيان شدة ظلم الإنسان لنفسه وغيره باختياره الكفر.
والمختار أن المقصود هلاك الظالمين في الآية أعلاه من سورة إبراهيم هم
الكافرون الذين آذوا المؤمنين .

لتتضمن الآية الإنذار للظالمين من قريش الذين أصروا على الكفر
والجحود وأذوا المسلمين وأخرجوهم من مكة والبشارة للنبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم بفتح مكة وبوقف الحروب والإقتال .

ليكون من إعجاز آية البحث أمور :

الأول : بعث المسلمين على الصبر وتحمل أذى المشركين .

الثاني : الإقامة في منازل الإيمان .

الثالث : الإجهاد في الدعاء وهل منه آية السياق ، الجواب نعم.

فلا مانع من اجتماع صفة القرآنية والدعاء في آن واحد ، وهو من فضل
الله في تعدد مصاديق الأجر والثواب في تلاوة القرآن ، ويكون أيضاً من
معاني الجمع بين الآيات أعلاه وآية البحث ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
الْبِلَادِ﴾^(٢) ﴿لَسَوْفَ كُنْتُمْ النَّارُضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ﴾^(٣).

قانون التضاد بين المؤمنين والذين كفروا

من وجوه التضاد بين المؤمنين والذين كفروا استجارة المؤمنين بالله عز
وجل في آية السياق من الخزي يوم القيامة أما الذين كفروا فلا يسألون الله
عز وجل النجاة من الخزي يومئذ لأنهم مشغولون بالتقلب في البلاد ومتاع

(١) سورة البقرة ٢٥٤.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

(٣) سورة إبراهيم ١٤.

الدنيا مع الإقامة على الكفر والجحود ، قال تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١).

لقد جعل الله عز وجل النعم على الناس في الدنيا واسطة ووسيلة وتذكرة ليشكروه .

ومن معاني خزي الذين كفروا يوم القيامة الإفتضاح بين الخلائق بقبح العمل في الدنيا ، وسوء العاقبة وأن مصيرهم إلى النار ، قال تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُولَئِكَ بِالنَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

ومن مصاديق الخزي يومئذ العطش الشديد ، والعجز عن الوصول إلى الخوض ، وقانون تسلّم الكافر كتاب وصحيفة الأعمال في اليد اليسرى ومن الخلف ، وقد تقدم في الجزء السابق قول مستحدث منا أن كتاب الكافر يختلف في لونه عن كتاب المؤمن .

ومن وجوه الاختلاف بين الحياة الدنيا والآخرة ، تقلب الذين كفروا في البلاد في الحياة الدنيا ، وتقلب المؤمنين بين المساجد وأوقات صلاة الفريضة اليومية ماجدّ الجديدان ، كلما طل عليهم يوم جديد تنقلوا فيه بين صلاة الفجر ، وصلاة الظهر ، وصلاة العصر ، وصلاة المغرب ، وصلاة العشاء إلى آخر الزمان .

واتخذ الذين كفروا أسفارهم وتجارتهم مادة وسلاحاً لمحاربة الصلاة وأدائها ، وفي التنزيل ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٣).

(١) سورة النحل ٢٧.

(٢) سورة النور ٥٧.

(٣) سورة غافر ٥١.

آية ﴿لَا يَنْفِرَنَّ﴾ باحث على الدعاء

هل نزول آية البحث بخصوص الذين كفروا وتمتعهم بالأموال والتثقل في البلاد بجاء باحث للمسلمين للدعاء إلى الله عز وجل ، الجواب نعم ، وهذا الدعاء من وجوه :

الأول : سؤال الله عز وجل بأن يرزق المسلمين أكثر مما رزق الذين كفروا ، وهو الذي تم بالغنائم وفي صلح الحديبية وبعد فتح مكة .
 ، ولم تأت هذه الغنائم عن غزو وهجوم من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما كان المشركون هم الذين يغزون ويعتدون ، ويختارون مكان وأوان المعركة ، كما في معركة بدر وأحد والخندق من قبل مشرقي قريش .
 وكما في معركة حنين إذ كانت ثقيف وهوازن هم المعتدون ، فقد كمنوا في الوادي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عند رجوعهم من فتح مكة فأخزاهم الله عز وجل .
 ومن الغنائم التي وقعت يومئذ بيد المسلمين أربعون ألف شاة ، وأربعة وعشرون ألف من الإبل .

الثاني : سؤال التضييق على الذين كفروا بما يحول دون إيذائهم للمسلمين .

الثالث : سؤال العصمة من الاغترار بالذين كفروا لبيان قانون بيان وإخبار القرآن مناسبة للدعاء والنجوى .

الرابع : سؤال فوز المؤمنين بالنعمة الدنيوية والتقلب في البلاد لتسخيرها في طاعة الله ، وجذب الناس لسبل الرشاد والهداية .

الخامس : الدعاء للسلامة والعصمة من سيرة الذين كفروا وإختيارهم اللهو واللعب ، فحتى اذا تقلب المؤمنون في البلاد فانه تقلب في سبيل الله ، ودعوة اليه تعالى ، وقانون عمارة القرى والبلدان بالصلاة في أول

أوقاتها ، قال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاكُم﴾^(١) .

السادس : توجه المسلمين بالحمد والشكر لله عز وجل على هدايتهم للإيمان والدعاء ، وسلامتهم من الكفر والضلالة ، ويتجلى قانون قول الحمد لله واقية من الاغترار بالذين كفروا .

وقد تفضل الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتلو على نحو الوجوب العيني قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) سبع عشرة مرة في الصلاة اليومية المنبسط على آثات الليل والنهار .

ذكر الله في آية السياق

آية السياق من مصاديق قوله تعالى ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٣) ، وكل فرد منها واقية من الاغترار بالذين كفروا ، وهي من وجوه :
الأول : ابتداء الآية بالنداء (ربنا) .

الثاني : يفيد حرف الواو في ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا﴾ العطف والإستئناف ، أما العطف فلوحدة موضوع الدعاء ، وأما الإستئناف فليبان استقلال النداء (ربنا) وأنه وحده لجوء إلى الله عز وجل ، وهو أعم من موضوع الدعاء في الآية ، وفيه الأجر والثواب .

الثالث : سؤال المسلمين والمسلمات الله عز وجل بأن يهبهم ويؤتيهم المصاديق الواقعية للوعود التي نزلت بها الكتب السماوية ، وجاء بها الرسل من عند الله تعالى .

(١) سورة محمد ١٩ .

(٢) سورة الفاتحة ٢ .

(٣) سورة الأحزاب ٤١ .

ولم تذكر الآية أفراد الوعود ولكنها ظاهرة في ثنايا آيات التنزيل ، ومن آيات الوعد الإلهي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) ، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) ، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣) ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٤) ، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٥) ، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾^(٦) .

الرابع : ذكرت آية السياق دعاء المسلمين بالنجاة من الخزي يوم القيامة ، لطوله وشدة وتعدد الأهوال فيه ، قال تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٧) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي عنها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره).

(١) سورة البقرة ٢٦٨.

(٢) سورة آل عمران ١٧٤.

(٣) سورة النساء ٩٥.

(٤) سورة النساء ١٢٢.

(٥) سورة إبراهيم ٤٧.

(٦) سورة الذاريات ٥.

(٧) سورة المعارج ٤-٥.

كلما بردت أعيطت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار^(١).

وهل مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة حقيقة أم تقديراً لأن الأحوال التي فيه والعطش والجوع وطول القيام والوقوف تظهره طويلاً جداً ، الجواب هو الأول لحمل الكلام العربي على حقيقته ، وليبان أن عروج الملائكة والأرواح على مراحل .

لقد حرم الذين كفروا أنفسهم من الدعاء للنجاة من الخزي يوم القيامة ، وأبوا الإمتناع عن أسباب ومقدمات هذا الخزي .

الخامس : دلالة آية السياق على إقرار المسلمين والمسلمات باليوم الآخر ، وأن الناس يحشرون ويقومون بين يدي الله عز وجل ، وأن الموت ليس أمراً عديمًا إنما هو واسطة الانتقال إلى عالم الحساب والخلود .

ومن مصاديق الكفر والجحود في آية البحث ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحودهم بيوم القيامة وعالم الحساب ، ولاخير في تمتعهم في الدنيا لما فيه من سوء العاقبة المترشحة عن الكفر .

السادس : تسليم المسلمين بأن الوعود التي وعدهم الله عز وجل بها مع كثرتها وشمولها للحياة الدنيا والآخرة منجزة ، فمشيئة الله في السموات والأرض مطلقة ، قال تعالى ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَكَاتٍ﴾^(٢) ، وإذ وعد الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات بالإقامة في جنات الخلد فانه تعالى وعد المنافقين والكفار نار جهنم ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(٣).

(١) تفسير القرطبي ١١٨/٨ .

(٢) سورة النعام ١٣٤ .

(٣) سورة التوبة ٦٨- .

قانون الدعاء بالأعم

من إعجاز القرآن تعليم المسلمين بالدعاء بالأعم والأشمل ، والذي جاء في آية السياق من جهات :

الأولى : صيغة الجمع بقول (ربنا) لبيان أن دعاء المسلم نيابة عن غيره من المسلمين شاهد على تسليمهم بالتوحيد وأنه ليس من إله إلا الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

و(عن أبي أيوب قال من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان أعظم أجرا وأفضل ممن اعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل)^(٢).

الثانية : صيغة الجمع وإطلاق المسألة في ﴿وَأَتْنَا﴾ وفيه دلالة بأن خزائن السموات والأرض بيد الله عز وجل وحده ، وهو الذي يعطي بالمسألة والسؤال من غير مقابل أو بدل ، وهو سبحانه ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

وتبين الآية أن من يريد شيئاً من أمور الدنيا والآخرة فعليه باللجوء إلى الله عز وجل ، والتقيد بسنن التقوى ، ومنه التقلب في البلاد بأمن وسعة وتعاهد لسنن الإيمان ، وإقامة الفرائض العبادية في أوقاتها .

الثالثة : تفقه المسلمين في الدين ، وتصديقهم بما ورد في القرآن وعلى لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وألسنة الأنبياء السابقين من الوعد الإلهي للمؤمنين .

(١) سورة آل عمران ١٨ .

(٢) النسائي / السنن الكبرى ٣٥/٦ .

(٣) سورة آل عمران ٩٧ .

أما الكفار الذين تذكروهم آية البحث فانهم حرموا أنفسهم من البشارات والوعود الإلهية في الدنيا والآخرة ، وصار تقلبهم في البلاد سبباً للغرور والطغيان .

الرابعة : تدعو آية السياق المسلمين إلى الدعاء متفرقين ومجتمعين ، وتأمين بعضهم على دعاء بعض ، قال تعالى ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾^(١).

وتدل الآية أعلاه على خسارة الذين كفروا الآخرة لتكذيبهم النبوة والتنزيل ، وفي الآية أعلاه إضمار وتقديره : فسوف يكون العذاب لازماً لقانون الملازمة بين الكفر والعذاب الأخروي .

و(عن أبي بن كعب قال : أربع كن يوم بدر ﴿أَوَيَاتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^(٢) ذاك يوم بدر ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(٣) ذاك يوم بدر ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾^(٤) ذاك يوم بدر ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾^(٥) ذاك يوم بدر)^(٦).

وهذا صحيح وموضوع الآية أعلاه أعم .

الخامسة : صيغة الجمع في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وفيه حذف

وتقديره على وجوه :

الأول : على السنة رسلك .

(١) سورة الفرقان ٧٧.

(٢) سورة الحج ٥٥.

(٣) سورة الفرقان ٧٧.

(٤) سورة الدخان ١٦.

(٥) سورة السجدة ٢١.

(٦) سورة آل عمران ١٩١.

الثاني : في التنزيل على رسلك .

الثالث : في الوحي على رسلك ، وحديث الملائكة معهم .

والنسبة بين الوحي والتنزيل عموم وخصوص مطلق ، فالوحي أعم .
ومما وعد به الرسل الأمن والسلامة والرزق الكريم والعافية في الدنيا ،
واللبث الدائم في الجنان يوم القيامة .

بشارة انكفاء الذين كفروا

ابتدأت آية السياق بالدعاء (ربنا) ترى من القائل (ربنا).
الجواب إنهم أولو الألباب الذين اتخذوا من عقولهم وسيلة للتفكر
والتدبر في الخلائق وعالم الأكوان مع التسليم بأنها من بديع صنع الله عز
وجل ، ولا يقدر عليها غيره سبحانه ، لذا بادروا بعد التفكير إلى القول
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾^(١).

ليجمع التسليم بالربوبية المطلقة لله عز وجل والثناء عليه سبحانه
وتمجيده ، والإقرار بأسباب للخلق نعجز عن إدراكها فنكتفي بالقول
سبحانك لمظاهر الحكمة والعظمة في بدائع صنع في خلق السموات
والأرض.

(وعن ابن عباس قال : مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قوم
يتفكرون في الله فقال : تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لن
تقدروا).

وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا^(٢).
ويتضمن الحديث الأول أعلاه تأديب المسلمين ، وإرشادهم إلى
التفكير السليم والهادف .

(١) سورة آل عمران ١٩١.

(٢) الدر المنثور ٩/٣٣٢ .

وأما الحديث الثاني فيتضمن أيضاً التحذير والإنذار من التفكير في الله ، إذ جعل الله عز وجل العقول قاصرة عن درك كنهه ، ومتخلفة عن الوصول إلى ماهية الذات القدسية ، ويتغشى هذا القصور جميع الخلائق بما فيهم الملائكة لذا التجأوا إلى التسييح والتهليل وانقطعوا إلى الذكر ، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(١).

ليبيان فضل الله عز وجل على الناس باستغفار الملائكة للمؤمنين والمؤمنات خاصة ، وفيه استدامة للحياة الدنيا ، والسعة في الرزق ببركة أهل الإيمان في الأرض ، ودعاء الملائكة لهم .

وفي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وهو اليوم ، أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى ، والأرض إلى حوزهم ، والعرش على مناكبهم ، لهم زجل بالتسييح .

يقولون سبحان ذي العرش والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس ، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح ، الذي يميت الخلق ولا يموت)^(٢).

وتدل آية البحث على حرمان الذين كفروا أنفسهم من التفكير في بدائع الخلق ، وما فيها من البراهين التي تدعو إلى الإيمان وإخلاص العبادة لله عز وجل وانشغلوا بالثقل في البلاد للعب واللهو والمنكرات.

(١) سورة غافر ٧.

(٢) البيهقي / البعث والنشور ١٣٧/٣ .

فبعث الله عز وجل النبي محمداً يدعو الناس للإيمان ولم تمر على هجرته إلى المدينة سوى ثماني سنوات حتى تم فتح مكة ، ثم ضاقت الأرض على الذين حاربوا الإسلام وامتنعوا عن التصديق بالنبوة والتنزيل كما في هوازن وثقيف.

فبعد أن وصف القرآن المسلمين يوم حنين بقوله تعالى ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾^(١) ، في ساعة من نهار ثم جاء النصر من عند الله عز وجل ، فان المشركين من ثقيف وهوازن صاروا بعد المعركة يخشون الخروج من مدينتهم الطائف وقراهم خشية من المسلمين إذ انتشر الإسلام ، وصارت الطرق إلى مكة وغيرها آمنة ، تقام فيها الصلاة جماعة وفرادى ، فانقلب قلب الكفار في البلاد إلى عكوف وعزلة مع إنقطاع تجارتهم وضربهم في الأرض .

ليكون من مفاهيم قوله تعالى ﴿لَا يَغُرَّتْكَ قُلُوبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) ، الإنذار للذين كفروا بالإنكفاء ، وفيه وجوه :

الأول : إنه من اللوازم المصاحبة للكفر والجحود .

الثاني : إنه من سخط الله عز وجل العاجل بالجاحدين بربوبيته وملكيته للسموات والأرض .

الثالث : الإنذار الواقعي للذين كفروا من الله تعالى ، بعد الإمهال منه تعالى في قلبهم في الأرض ، وحلمه عليهم في صدودهم عن النبوة والتنزيل .

ويدل الجمع بين آية البحث وآيات الصبر على البشارة بانقطاع قلب الذين كفروا في البلاد .

(١) سورة التوبة ٢٥.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

الوجه الثالث : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا

يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ
الْأَبْرَارِ﴾^(١).

وفيها مسائل :

الأولى : ابتدأت آية السياق بالدعاء (ربنا) الصادر من المسلمين والمسلمات ، يقابله في آية البحث ضرب الذين كفروا في الأرض ، وفضحهم ومحو الشأن الرفيع لهم عند أهل القرى وفي الأمصار ، وفيه بشارة إزاحة الخوف والضعف والوهن عن المسلمين ، ومقدمة لتقلبهم في البلاد بلواء التوحيد واقامة الصلاة ، وليمنع دعاؤهم (ربنا) تقلب الذين كفروا في البلاد.

وهل الدعاء (ربنا) من مصاديق العبادة في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) الجواب نعم.

الثانية : تتضمن آية السياق إخبار المسلمين عن سماعهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو يناديهم وغيرهم للإيمان ، وفيه حجة على الذين كفروا لإعراضهم عن هذا النداء ، وما تقلبهم وتنقلهم في الأمصار إلا مناسبة لاستماعهم لآيات القرآن ، ورؤيتهم للمسلمين وهم يقيمون الصلاة ، ويتحلون بالأخلاق الحميدة ، ويدعون إلى الله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، امتثالاً لأمر الله عز وجل ، إذ قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٩٣.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

(٣) سورة فاطر ٣٠.

ليبان أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة بالناس جميعاً ودعوة للمشركين للهداية والإيمان ، فمع أنهم يتخذون القلب والسفر بين البلدان للتجارة والجاه فانهم يلاقون الشواهد والبراهين التي تدعوهم إلى الإيمان والتصديق بالنبوة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

ومن معاني نعت تجار قريش بالذين كفروا أنهم اثناء سفرهم وتقلبهم في البلاد يمتنعون عن إذاعة معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآيات القرآن النازلة من عند الله ، وهذا الإمتناع من مصاديق الكفر والجحود .

ليكون من معاني ﴿لَا يَرْضَىٰ لِقَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) أنه لا بد من بلوغ آيات القرآن ومعجزات النبوة إلى أهل البلدان التي يصل إليها رجال قريش ، وهداية رهط من الناس للتصديق بها ، والإحتجاج على تجار قريش بها ، ومنه حديث هرقل مع أبي سفيان ومن معه من تجار قريش ، إذ شهد هرقل بعلامات النبوة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : يدل قوله تعالى ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾^(٣) على الصيت والجمهوريّة والإعلان العام في هذا النداء ، وفيه شهادة سماوية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقيامه بقانون الدعوة الرسالية العلنية العامة للإيمان بالله والنبوة والتنزيل ، ويدل قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

(٣) سورة آل عمران ١٩٣.

اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا»^(١)، ولم يناد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمسألة خاصة أو سلطنة أو رفعة قبيلة أو أهل بلدة أو الدفاع عنهم وعنهما .
ليتجلى قانون دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإيمان ولإنشاء أمة مؤمنة والحجة على الناس.

ويدل على هذا العموم في النداء على بلوغه إلى المشركين خاصة مع تقلبهم في البلاد فان لم يسمعوه في قريتهم وبلدتهم فانهم يسمعونه في مصر آخر.

ومع الدعوة العلنية العامة كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتصل بمن يدخل مكة معتمراً أو للزيارة والتبضع ، فيتلو عليه القرآن ويخبره أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويدعوه للإسلام .

ليكون القلب في البلاد على وجوه :

الأول : إنه مناسبة لسماع النداء الرسالي وآيات القرآن .

الثاني : إنه سبيل للهداية والإيمان .

الثالث : قيام الحجة على الذين كفروا .

الرابع : قانون احتجاج المسلمين على الذين كفروا وتلاوة آيات القرآن عليهم.

الخامس : قانون رؤية الذين كفروا المسلمين وهم يؤدون الصلاة وفيه ترغيب لهم بالإسلام ، وبعث للنفرة من الكذب .

السادس : تحلي المسلمين بالأخلاق الحميدة ، وتنزههم عن السرقة والزنا والكذب ونحوه .

الرابعة : بيان التباين بين النداء الإيمانى العام الذي يملأ الأرض وبين قلب الذين كفروا في البلاد من غير نفع أخروي لهم أو لغيرهم ، ليكون

(١) سورة الأعراف ١٥٨.

البقاء للنداء الإيماني ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

ليكون من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تجدد نداءه للإيمان في كل زمان ، وملاقاة هذا النداء للذين كفروا في الأماكن والأمصاير التي يتقلبون فيها ، فاذا جاءوا إلى مكة سمعوا آيات قرآنية حديثة النزول ، وإذا ذهبوا إلى بلدة أخرى سمعوا أخبار النبوة وتكرار هزيمة المشركين في المعارك مثل معركة بدر ، وأحد ، والخيندق .

الخامسة : بيان حسن اختيار المسلمين بالإهداء إلى الإيمان ، وتلقي دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول والرضا والتسليم ، وكذا بالنسبة لأتباع الأنبياء السابقين.

وجاءت كلمة واحدة في آية السياق ﴿فَأَمَّا﴾ لتتضمن النجاة في الشائتين ، لترتب النجاة فيهما على الإيمان وأداء الفرائض العبادية ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾^(٢).

ومن التباين والتضاد في تفسير الجمع بين آية البحث وآية السياق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٣).

السادسة : من منافع الإيمان المبادرة إلى الدعاء وسؤال الله عز وجل المغفرة ، هذا السؤال الذي منع الذين كفروا أنفسهم منه ، وانشغلوا باللهو واللعب مع الإصرار على الجحود .

(١) سورة الرعد ١٧.

(٢) سورة لقمان ٨.

(٣) سورة فاطر ٧.

وهل في قول الذين آمنوا ﴿فَاَمَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾^(١)، دعوة للذين كفروا للإيمان ، الجواب نعم ، لتكون هذه الدعوة مناسبة للأجر العظيم للمؤمنين ، ونشر ألوية الرحمة والتراحم في الأرض .

وجاءت الآية أعلاه بصيغة الجمع لبيان قانون منافع المؤمن للمسلمين ، فهو يدعو لنفسه ولهم ، ومن يعرفهم والذين لا يعرفهم .

السابعة : تبين آية السياق تفقه المسلمين في الدين ، وقرارهم بيوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء ، وأن مصير الذين كفروا إلى النار ليصاحبهم الخزي والعار أمام الخلائق فلا ينفعهم تقلبهم في الدنيا بين الأمصار ، ولا الأموال التي جمعوها في التجارة ثم سخروها في محاربة النبوة والتنزيل .

وإذا كان المسلم يحزن للأذى الذي يتعرض له وإخوته في الإيمان ويتألم بسبب اضطهاد واستضعاف المشركين لهم فإن المدار على عاقبة الأمور ، ليكون هذا الأذى والألم أجراً وثواباً لهم ، وبلاء وسبباً لسخط الله عز وجل على المشركين ، قال تعالى ﴿كَمْ بَاءٍ سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُسْرُ الْمَصِيئِ﴾^{(٢)(٣)}.

وتبين آية السياق حال الجهالة التي عليها الذين كفروا بانشغالهم بالدنيا ومباهجها ، وعدم الالتفات إلى عالم ما بعد الموت من أنواع الأهوال والحساب ، ليكونوا من الذين ذكرتهم الآية ﴿وَمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٣.

(٢) سورة آل عمران ١٦٢.

(٣) أنظر الجزء الثامن والأربعين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٤) سورة آل عمران ١٩٢.

دلائل خاتمة آية السياق

أختتمت آية السياق بدعاء المؤمنين ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ لسؤال مغادرة المسلم الحياة الدنيا من منازل الإيمان والإنابة والإقامة على أداء الفرائض العبادية لبيان خسارة الذين كفروا إذ يأتيهم الموت بغتة وهم فرحون بتقلبهم في البلاد ليفاجئهم ضيق القبر ، وغلظة وشدة منكر ونكير معهم كحساب ابتدائي في القبر ، ويرجون العودة إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحاً وإخبار الناس عما لقوا من الأهوال من أول ساعة دخلوا فيها القبر، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(١).

لقد أراد الله للمؤمنين اتخاذ الحياة الدنيا دار عبادة ودعاء وصلاح فأمرهم ونهاهم ، وتتضمن آية السياق في منطوقها ومفهومها الأمر ، وتتضمن آية البحث النهي عن الاغترار بالذين كفروا ، والإفتتان بتقلبهم في البلاد .

ويدل قوله تعالى ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٢) على الفصل والتمييز بين المؤمنين والكافرين من حين الوفاة وقبض الملائكة الأرواح .
(وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونّه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم!)

(١) سورة المؤمنون ٩٩-١٠٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٣.

فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض^(١).

ليان ماهية حضور الأعمال في الآخرة من وجوه :

الأول : إيمان المسلمين والصالحات التي عملوها .

الثاني : جحود الكفار والسيئات التي عملوها في الدنيا .

الثالث : مجئ حسنات للمؤمنين لم يعملوها ، ولكنها بدل عن السيئات

بسبب استغفارهم وتوبتهم ودعائهم ، قال تعالى ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

الرابع : قانون مضاعفة حسنات المؤمنين وزيادة الأجر عليها .

إعجاز الآية الذاتي

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣) للناس جميعاً لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٤) ليهتدي الناس لسبيل الإيمان ، وينتفع الذين آمنوا من البشارات ، وتكون هي والإنذارات حجة على الذين كفروا .

وابتدأت آية البحث بحرف (لا) الذي يدخل على الجملة الفعلية ويفيد النهي والابتعاد والإمتناع عن الإقتداء بالذين كفروا .

ومن إعجاز الآية ما تتضمنه من علوم الغيب بالتباين بين أحوال المؤمنين من الأذى والضرر الذي أخبرت عنه الآية السابقة من الهجرة ، والإخراج من الديار ، والأذى الشديد في سبيل الله ، والقتال دفاعاً عن بيضة الإسلام

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩٩.

(٢) سورة الفرقان ٧٠.

(٣) سورة الاحزاب ٤٥ .

(٤) سورة سبأ ٢٨.

، وبين حال الغنى والجاه التي يتصف بها المشركون ، ومنها ﴿رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١). في التجارة إلى اليمن في الشتاء ، وهي بلاد حامية ، وإلى الشام في الصيف لبرودتها وامتناع الحر فيها ، ويسوقون في هذه الرحلة مئات وآلاف من الإبل محملة بالبضائع .

فمثلاً تتألف قافلة أبي سفيان التي وقعت معركة بدر بسببها في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة من ألف بعير محملة بالذهب والفضة والأقمشة ، والحنطة ، والشعير ، والقطن ، وليس من أهل بيت في مكة إلا واشتركوا في أموالها .

وكان عموم الإشتراك هذا مقدمة إغارة أهل مكة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بذريعة تعرضهم للقافلة .

والمختار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعرض لها ، فان قلت قد ورد قوله تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الجواب المودة كيفية نفسانية ، ولا تصل إلى العزم والقصد ومقدمات الفعل .

لقد كان المشركون هم الغزاة في معركة بدر ، ومن الثابت تاريخياً أنهم الذين بدأوا برمي السهام وطلب المبارزة والقتال ، فلقوا الهزيمة ، قال تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

لقد كان المشركون في معركة بدر أكثر عدداً وعدة ومؤونة وإبلاً وخيلاً باضعاف مضاعفة لما عند المسلمين ، فمثلاً عدد الإبل عند المشركين في الميدان سبعمائة ، وعند المسلمين سبعون ، وعدد الخيل عند المشركين مائة ، وعند المسلمين فرس واحدة .

فنزلت آية البحث لمنع المسلمين من الإفتتان بما عند المشركين والفشل والخوف والجبن والتردد في الدفاع عن النبوة والتنزيل ، وشخص النبي محمد

(١) سورة قريش ٣ .

(٢) سورة الأنفال ٣٠ .

صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ ، لبيان مسألة بخصوص إعجاز الآية بشمولها لحال الحرب والسلام .

لذا يباح لبس الحرير في الحرب من غير حاجة استثناء من حرمة لبسه لبيان أن المسلمين في حال غنى وسعة ، ونكاية بالذين أشركوا من قريش وحلفائهم .

وبعد تعدد دعاء المؤمنين ، وتعدد المسائل في الآية السابقة ومجيئها بالوعد الإلهي والبشارة باستجابة الله عز وجل لدعائهم ، والزيادة من فضله لقانون عطاء الله أعظم وأكثر من مسائل الدعاء إذ تضمنت عدم تضييع الله لكل عمل صالح عمله المسلم أو المسلمة .

ليدل في الدلالة التضمنية على إحصاء الله عز وجل للأعمال وحضورها يوم القيامة لترتب الثواب على عمل الصالحات ، والعقاب على عمل السيئات مع غياب سيئات المؤمنين لأن الله عز وجل يحوها ، وهم في الدنيا ، فلا تدخل معهم القبر ، وهو من أعظم النعم على الناس في الدنيا والآخرة ، فان محو وإزالة السيئات باب للرزق الكريم والسعادة في الدنيا ، وسبيل نجاة في الآخرة وقد ورد في الآية السابقة لآية البحث ﴿لَا تُكْرَهُ عَنْهُمْ﴾^(١).

فنزلت آية البحث لمنع مقدمات الإفتتان بالذين كفروا ووقوع المسلم في حيز الحرام أو التخلف عن أداء الوظائف العبادية إذ يتوجه الخطاب والنهي في الآية إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمقصود أفراد الأمة وأجيالها المتعاقبة ، ومن معاني (لا يغرنك) إرادة كل إنسان .
ومن وجوه تقدير الآية : يا أيها الناس لا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد.

فلا تختص الآية بالكفار من قريش الذين امتنع قلبهم في البلاد ككفار لدخولهم الإسلام يوم فتح مكة وإن كان منهم الطلقاء ، وقد خرج مع النبي

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة بعد الفتح ألفان من مسلمي الفتح ، ويعني هذا الخروج قريتهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإمكان حديثهم معه ، والسلامة من إجهازهم على النبي واغتياله وإن وقعت حوادث يوم حنين وفي غيره ، دفعها الله عز وجل بالمعجزة .

منها (عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن شيبه بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين قد عرى ، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما .

فقلت : اليوم أدرك ثأري منه - قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه ، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً ، عليه درع بيضاء كأنها فضة ، يكشف عنها العجاج ، فقلت: عمه ولن يخذله .

قال : فجئته عن يساره ، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقلت: ابن عمه ولن يخذله .

فجئته من خلفه ، فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف ، إذ رفع لي شَوْاظ من نار بيني وبينه ، كأنه برق .

فخفت أن تمحشني ، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: "يا شيب ، يا شيب ادن مني اللهم أذهب عنه الشيطان .

قال : فرفعت إليه بصري ، ولهو أحب إلي من سمعي وبصري ، فقال : يا شيب قاتل الكفار^(١) .

ومن إعجاز الآية توجه الخطاب فيها إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع بيان الحالة الاجتماعية والاقتصادية العامة ، وأن الذين كفروا في مندوحة وسعة من أمرهم ، والله يعلم بكثرة أموالهم ولم يستطيعوا حيازتها لولا فضل الله عز وجل عليهم بجوارهم للبيت الحرام ، لتكون استدراجاً من عند الله عز وجل لهم .

(١) تفسير ابن كثير ١٢٩/٤ .

ولم يرد لفظ (مناد) في القرآن إلا مرتين ، واحدة في آية البحث والمراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والثانية بخصوص الآخرة في قوله تعالى ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(١).

و(عن بريدة قال : ملك قائم على صخرة بيت المقدس واضع إصبعيه في أذنيه ينادي يقول : يا أيها الناس هلموا إلى الحساب)^(٢).

ويمكن تسمية آية البحث آية ﴿لَا يُغْنِيكَ﴾ ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في

آية البحث .

إعجاز الآية الغيري

ابتدأت آية البحث بالنهاي ﴿لَا يُغْنِيكَ﴾ في خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأجيال المسلمين المتعاقبة لمنعمهم من الإفتتان بالذين كفروا . وهل ورد ذكر تقلبهم في البلاد على نحو الحصر في باب الإفتتان أم أنه عام في السعة والمندوحة التي عندهم . المختار هو الثاني من جهات :

الأولى : دلالة الضرب في البلاد وكثر الأسفار على السعة والغنيمة .
(و) عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سافروا تصحوا وتغنموا^(٣).

الثانية : تدعو آية البحث المسلمين إلى السفر في التجارة والمكاسب والدعوة إلى الله عز وجل ، ومنافسة المشركين في هذا الباب بكشف حقائق التنزيل ، ودفع شبهاتهم وافتراءهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة ق ٤١.

(٢) الدر المنثور ٩/ ٢٩٤ .

(٣) الدر المنثور ٨/ ٤٨

وسلم والقرآن ، قال تعالى ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِيَّ وَأَسْعَدُ فَيَأْتِيكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

الثالثة : آية البحث تزكية وإمضاء سماوي للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، فصحيح أن هجرة الحبشة تمت قبل هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ هاجر رهط من المسلمين والمسلمات إليها على دفعات بعد اشتداد أذى قريش للنبي وأهل بيته وأصحابه ، وتألف أول فوج هاجر منهم من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة في شهر رجب من السنة الخامسة للهجرة تسللوا تحت جناح الظلام بين راكب وراجل ، ثم توالى أفواج الهجرة .

لقد بدأ الإسلام بالإنتماء الفردي من قبل أهل البيت والصحابة الأوائل من قريش ، ثم تبعهم الأنصار الذين كان إيمانهم الجماعي معجزة غيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ليصبح تقلب الذين كفروا في البلاد حجة عليهم ، ويصير من فضل الله بياناً لدلائل النبوة كما في شهادة أبي سفيان في حضرة قيصر ، إذ أراد أبو سفيان الإنتقاص من شواهد النبوة وإنكارها فآخزاه الله بشهادة قيصر بتجلي معالم الإيمان في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

إذ قام الصحابي دحية الكلبي بعد صلح الحديبية بتسليم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيصر لعظيم بصرى وهي بلدة في الشام ، قام الأخير بدفع الكتاب إلى قيصر فلما قرأه (سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش كانوا في غزة ، فجيء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا.

فقال لأصحابه -وأجلسهم خلفه - : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه. فقال أبو سفيان: فوالله لولا أن يأتروا علي الكذب لكذبت. فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر.

قلت : لا ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو صانع فيها -يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين^(١) وكان السؤال بواسطة الترجمان .

وقال قيصر (فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم قلت بل ضعفاؤهم قال أيزيدون أم ينقصون قلت بل يزدون قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه قلت لا .

قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قلت لا . قال فهل يغدر قلت لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها قال ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال فهل قاتلتمونه قلت نعم قال فكيف كان قتالكم إياه قلت الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه .

قال ماذا يأمركم قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آبائكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان قل له سألتك عن نسبه فرعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله .

فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه (من ملك) فذكرت أن لا فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

(١) تفسير ابن كثير ٦/٣٠٤ .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الايمان حتى يتم.

وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر^(١).

قانون البيان الذاتي للقرآن

لا تجد أحداً من علماء الإسلام يمنع من السؤال عن القرآن ولو بقصد الجدل خاصة وأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وما تحتاج من تفسير لآية قرآنية تجد بيانه في آية أخرى ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

فمن ضمن كل شيء في الآية أعلاه ذات القرآن ، إذ بين نفسه وأنه كلام الله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣). ومن معاني الآية أعلاه وجوه :

الأول : قانون عصمة القرآن من التحريف .

الثاني : قانون سلامة القرآن من الزيادة أو النقص ، فما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : قانون افتضاح وسقوط التفسير والتأويل المخالف لمعاني ومقاصد الآية الكريمة .

الرابع : قانون التسليم بنزول القرآن من عند الله عز وجل.

(١) البداية والنهاية ٢٦٤/٤.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) سورة فصلت ٤٢.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (مثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث ، بينما الأرض ميتة هامة ثم لا يزال ترسل الأدوية حتى تبذر وتنبت ويتم شأنها ، ويخرج الله ما فيها من زيتها ومعاش الناس ، وكذلك فعل الله بهذا القرآن والناس .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾^(١) إلى قوله ﴿حَمِيدٌ﴾ فقال : إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحب إليه من شيء خرج منه يعني القرآن^(٢).

قانون إنذار الكافرين الذين يتقلبون في البلاد

من خصائص القرآن أن كل آية من آياته إنذار للذين كفروا سواء في منطوقها أو مفهومها ودلالاتها .

ومن معاني آية البحث الإنذار للذين كفروا ، وحجب المتعة عنهم بالسفر والتعقب في البلاد ، لذا أخبرت الآية التالية بأن عاقبتهم إلى النار ، ليتجلى قانون كل ما كان عاقبته إلى النار لا يغرّبه .

وآية البحث واقية للمسلمين والمسلمات من الإنجرار إلى زخارف الدنيا ، وتتضمن إدراك قانون زوال مباحج الدنيا عن الذين كفروا بالله والنبوة .

ويرى المسلمون كيف أن كفار قريش يسوقون القوافل والإبل الكثيرة في الصحارى إلى الشام وإلى اليمن وغيرها ، ويعودون بالتجارات بسلام ، ويكسبون الأموال ، ومعه يظهرون العداء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل السفر والضرب والتجارة وبعد عودتهم وتحصيل الأرباح .

ليكون من معاني الآية : يا أيها الذين آمنوا لا يغرنكم عودة الذين كفروا من أسفارهم سالمين ، وتبعث الآية الناس على الزهد فيما عند المشركين من

(١) سورة فصلت ٤١.

(٢) الدر المنثور ٤٩/٩.

الأموال والشأن ، ليكون سبباً في عزوف وإعراض الناس عنهم ، وإمتناعهم عن دعوتهم لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
فمن تقلب الذين كفروا في البلاد الذي تذكره آية البحث طوافهم على القبائل لحشدتهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمنع من دخول الإسلام ، فجاءت آية البحث بشاره صدود الناس عنهم .
ومن هذا التقلب محاولة قريش تحريض ملك الروم ، وكسرى فارس ، ويهود المدينة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لولا فضل الله في تنامي وازدياد دخول الناس في الإسلام باليوم واللييلة والأسبوع ، وكثرة المهاجرين ، واستعداد المسلمين للدفاع عن النبوة والتنزيل من منازل التوحيد .

إعجاز صيغة العموم

من إعجاز الآية صيغة العموم الإستغراقي من جهات :
الأولى : النهي العام عن الاغترار بالذين كفروا .
الثانية : توثيق تقلب وسفر الذين كفروا في الأمصار المتعددة ، لأن البلاد : جمع بلد .
الثالثة : ذكر الذين كفروا عامة ، ولم ينحصر التقلب والسفر برؤسائهم ، لبيان كثرة النعم التي رزقهم الله .
الرابعة : تحلي المسلمين بالصبر وعدم الإفتتان بالذين كفروا إنذار وتحذير لهم من قتال المسلمين وغزو مدينة رسول الله .
وفي واقعة بدر بعث رؤساء جيش قريش عمير بن وهب الجمحي ليحرز لهم عدد المهاجرين والأنصار الذين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ولكن امهلوني حتى انظر ألقوم كمين أو مدد قال فضرب في بطن الوادي حتى ابعده فلم ير شيئاً فرجع إليهم .

فقال ما رأيت سيثا ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا
نواضح يثرب^(١) تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ الا سيوفهم.
والله ما أرى ان يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم فإذا اصابوا
منكم عدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم^(٢).

الآية سلاح

تبين آية البحث قانون ضبط الحالة والكيفية للمسلمين بأحكام وقواعد
سماوية ثابتة تتجدد مع الزمان تقود إلى التقوى ، وتمنع من الزيف وديب
مفاهيم الشك والإرتياب.

وتبين الإعجاز بقانون منع القرآن المسلم من الإرتداد ، وقانون نفاذ
دعوة القرآن إلى شغاف القلوب لذا قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٣).

وبالإسناد (عن أبي ليلى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : تمسكوا بطاعة
 أئمتكم ولا تخالفوهم فإن طاعتهم طاعة الله وإن معصيتهم معصية الله وإن
 الله إنما بعثني أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فمن خلفني في ذاك
 فهو وليي ومن ولي من أمركم شيئا فعمل بغير ذلك فعليه لعنة الله والملائكة
 والناس أجمعين)^(٤).

(١) نواضح يثرب : الإبل التي يستقى عليها الماء لأن أهل يثرب أصحاب زراعة ،
ويقومون بسقي المزروعات .

وهل يحمل هذا الوصف تعريض قريش بأهل يثرب بانهم أهل زراعة وسقي مزروعات
وأراد عمير بن وهب بيان أنهم يوم بدر رجال قتال أشداء ، المختار نعم ، وهو من
مصاديق قانون إنذار الكافرين بعضهم لبعض.

(٢) عيون الأثر ١/ ٣٣٣ .

(٣) سورة النحل ١٢٥ .

(٤) المعجم الكبير ٢٢/ ٣٧٣ .

وأبو عمر العبسي هو محمد بن أبي قيس وهو ضعيف متروك الحديث وقال ابن الأثير (ومحمد بن أبي قيس هو: محمد بن سعيد المصلوب الشامي، وهو أبو عمر العبسي، وكثيراً ما يدلّس به أهل الحديث ليخفى أمره، وهو ضعيف متروك الحديث، ومدار الحديث عليه. أخرجه الثلاثة)^(١).

ولا ينحصر الأمر بالنهاي عن الاغترار بالذين كفروا انما يدعو القرآن لجدالهم بالحجة والبرهان ، قال تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَاتِّبِ هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢). ومن معاني التسليح بآية البحث تنميتها للملكة الصبر عند المسلمين لتكون مقدمة لتلقي الأحكام الشرعية بالقبول والإمثال .

ومن الآيات في المقام نزول آيات وسور القرآن على نحو التدرج والتوالي في مدة ثلاث وعشرين سنة من ابتداء بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

مفهوم الآية

تبدأ آية البحث بـ(لا) الناهية التي تتضمن المنع في خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعدم الإنجرار إلى الوقوف والإفتتان بما عند الذين كفروا من النعم ، إنما جعلها الله عز وجل حجة عليهم ، ومادة لإستدراجهم ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

ومن الآيات في المقام رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآيات القرآن ، فالجحود بها وإنكار نزولها من عند الله عز وجل كفر وسبب لدخول النار في الآخرة ، قال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفَاءَ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾^(٤).

(١) أسد الغابة ٣/ ٢٣٨.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

(٣) سورة الأعراف ١٨٢.

(٤) سورة الروم ١٦.

ومن مفاهيم الآية انقطاع افتتان الناس بالهالة التي يحيط المشركون بها أنفسهم ، والشأن العام الذي عندهم ، فلا تكون لهم رهبة في قلوب المسلمين عند اللقاء ، ولا يتبعهم عامة الناس عند دعوتهم للبقاء على الشرك ، ومحاولة تجنيدهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي معركة بدر لما رجع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة ، وتقديمهم الأسرى وعليهم شقران غلام النبي محمد الذي إذ لم يعتقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ بعد ، فخرج أهل المدينة ومنهم وجوه الخزرج إلى الروحاء يهتثون النبي بفتح الله ، والغلبة على المشركين المعتدين .

(فقال سلمة بن سلامة بن وقش: ما الذي تهتثوننا به؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلحاً.

فتبسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا ابن أخي، أولئك الملاء، لو رأيتهم لهبتهم، ولو أمروك لأطعتهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته، وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم .

فقال سلمة : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، إنك يا رسول الله لم تزل عني معرضاً منذ كنا بالروحاء في بدأتنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما ما قلت للأعرابي وقعت على ناقتك فهي حبل منك، ففحشت وقلت ما لا علم لك به ، وأما ما قلت في القوم، فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهداها. فاعتذر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معذرتة^(١).

وفي تنبيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورده على سلمة بن سلامة تأديب للمسلمين ، وبيان للآية العظمى بنزول الملائكة للنصر في معركة بدر مع قلة عدد وعدة ومؤن النبي وأصحابه ، وعودتهم بالغنائم والأسرى ، وفيه مصداق لآية البحث لصيرورة المسلمين في حال عدم الاغترار بالذين

(١) مغازي الواقدي ٤٢/١ .

كفروا لأنهم أصبحوا في حال خسارة ، وفرار وانتقال حال الذل من المسلمين إليهم ليلازمهم في الدنيا وفي الآخرة ، مع التباين في مصداق الذل. فالذل الذي ذكرته آية (بدر) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) هو القلة والإستضعاف ، أما الذل الذي لحق كفار قريش ومن يتبعهم فهو الفضيحة والخزي والوهن.

وفي ذم المشركين وسوء عاقبتهم في الآخرة ، قال تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذِّلِّ يُنْظَرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾^(٢).

أي يعرض عامة المشركين على النار في الآخرة ، وقد ورد قوله تعالى ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ مرة أخرى بخصوص عالم البرزخ في قوله تعالى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٣) ، في آل فرعون وهو من قانون تأكيد الخاص للعام ، وهذا القانون مستحدث هنا فما يصيب آل فرعون بسبب شركهم يصيب المشركين عامة ، مع بيان نكتة في المقام وهي أن رؤساء الكفر أشد عذاباً يوم القيامة .

ومن مفاهيم آية البحث إصلاح المسلمين للسعة في الرزق ، وكثرة الأموال ، والإمارة والحكم بين الناس بعدم الإنشغال بالتقلب في البلاد ، وكثرة الإسفار لأن الملاك هو أداء الفرائض العبادية وعمل الصالحات والإستعداد لعالم الحساب ، والدفاع عن بيضة الإسلام وتعاهد أصول وفروع الدين .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة الشورى ٤٥.

(٣) سورة غافر ٤٦.

وتطفئ آية البحث البريق واللمعان الذي يحيط بالذين كفروا بكثرة أموالهم وفيها إضعاف لشأنهم بين الناس ، إذ يكتسب الناس من المسلمين الصبر ومصاديق التنزه عن الاغترار بالذين كفروا.

وتلاوة المسلمين لآية البحث خير محض فهذه التلاوة برزخ ومانع من الفتنة والإفتتان بالذين كفروا وإن كانوا أصحاب جاه وسلطان وأموال . ومن مفاهيم آية البحث نهى الناس عن ولاية الذين كفروا من أصحاب الرياسة والأموال فقد يكون الاغترار بالذين كفروا مقدمة لهذه الولاية أو اتخاذهم بطانة ، فهذه الآية عنه من الأصل ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

إنفاذات الآية

في الآية تأديب للمسلمين وإصلاح للمجتمعات . وفي حديث ضعيف سنداً عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال (ادبني ربي فأحسن تأديبي)^(٢).

ويتجلى حسن تأديب الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بآيات من التنزيل منها قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٤).

لقد جعل الله عز وجل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٥)، ومن مصاديق الخلافة تنقل الإنسان في الأرض ، وضربه فيها للكسب والرزق ، وسخر

(١) سورة آل عمران ١١٨.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٣٣١/١٣ .

(٣) سورة القلم ٤.

(٤) سورة النجم ٣-٤.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

الله عز وجل للناس وسائط التنقل بفضل وإكرام إضافي منه تعالى لهم جميعاً البر والفاجر كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(١).

فاتخذ الذين كفروا هذه النعمة وسيلة لمحاربة النبوة والتنزيل إذ انتفعوا منها انتفاعاً كثيراً ولم يشكروا الله عز وجل عليها بالقول والفعل. ومن الشكر على نعمة التنقل في الأمصار الإقرار بالتوحيد والتسليم بأن الأرض ملك طلق لله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢).

وتدعو آية البحث المسلمين إلى الإجهاد في طاعة الله ، وعدم الالتفات إلى ما عند الذين كفروا من النعم ، وعدم إيذائهم أو محاولة سلب أموالهم ، أو قطع طريق تجارتهم. فان قلت قد ورد في كتب السيرة اعتراض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقافلة أبي سفيان واحتوائها التي صارت سبباً لنشوب معركة بدر.

والجواب لم يثبت هذا الإعتراض ، إنما كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كتيبة استطلاع حول المدينة ونشر للإسلام ، ودعوة أهل القبائل إلى التوحيد ، ولكن أبا سفيان ومن معه بعث رسالة إلى قريش يطلب النجدة والإغاثة .

واتفق أن أغلب بيوتات مكة شاركت في هذه القافلة فخرج ألف من رجال قريش وعندما التقوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أصرت قريش على القتال.

(١) سورة الإسراء ٧٠.

(٢) سورة لقمان ٢٦.

وتقدم ثلاثة من فرسانهم للمبارزة كما تقدم بالتفصيل ، قال تعالى ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(١).

فان قيل قد ورد قوله تعالى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾^(٢) ، أي القافلة ، والجواب هذا التمني كيفية نفسانية ويعضده حكم القصاص لإستيلاء رجال قريش على أملاك وأموال النبي وأصحابه في مكة ، وحرمانهم من التجارة والضرب في الأرض ، إذ قام المشركون بالتضييق على المسلمين ، وإيذائهم جسدياً وفي أموالهم. فمن إعجاز آية البحث عصمة المسلمين من الأخلاق الرديئة وحال السلب والنهب التي كانت سائدة في أيام الجاهلية ، ومنه إجتباب المسلمين التعدي على حقوق وأموال المشركين دعوة لهم للإيمان .

الآية لطف

من خصائص الآية القرآنية بعثها الطمأنينة في النفس ، والرضا بما قدر الله ، وهي نوع صلة بين الله وروح العبد ، وتكون لها الحكومة على جوارحه وأفعاله.

فذاات الآية القرآنية قانون ضبط لأنماط السلوك ، ومنها آية البحث التي تمنع المسلمين والمسلمات من الإفتتان بما عند الذين كفروا من النعم ، فلا يغترون بكثرة أسفار الذين كفروا ، وجنيهم الأرباح في هذه الأسفار ، في الوقت الذي تكون فيه تجارة المسلمين أداء الصلاة خمس مرات في اليوم ،

(١) سورة الحج ١٩.

(٢) سورة الأنفال ٧.

قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾^(١).

ومن اللطف الإلهي في آية البحث بعثها المسلمين لعباداتهم والتفقه في الدين ، وعدم الإنشغال بما عند الآخرين من النعم والسطوة والجاه ، إنما يكون مدار التمايز عندهم وعند الملائكة هو الإيمان الذي هو النعمة العظمى ، وسبيل النجاة .

لذا فرض الله عز وجل على كل مسلم ومسلمة تلاوة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) ، سبع عشرة مرة في اليوم على نحو الوجوب العيني في الصلاة اليومية.

وهل منه عدم الاغترار بالذين كفروا ، الجواب نعم ، كما أن الصراط المستقيم واقية من الإفتتان بالذين كفروا وما في أيديهم وانبساط الأمور لهم بحيث صاروا يتقلبون في الأمصار تعظيماً لشعائر الله.

ولما بينت الآية السابقة ما يلاقيه المؤمنون من التهجير والأذى والإضطراب إلى القتال ، وسقوط الشهداء منهم ، كما في شهادة سبعين قتيلاً من الصحابة في معركة أحد التي كان المشركون هم الغزاة فيها ، نزلت آية البحث لعصمة المسلمين من الفتنة والإفتتان بالثراء الذي عند الذين كفروا. و(عن أنس : قتل من الانصار يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون ويوم اليمامة سبعون)^(٣).

إذ بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبعين من القراء فعرض لهم حيّان من بني سليم في الطريق فقاتلوهم عند بئر يقال له بئر معونة.

(١) سورة الجاثية ٣٠.

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٩١/٣ .

وجاءت آية البحث لمواساة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين
وبعث السكينة في نفوسهم

الآية بشارة

لقد تضمن القرآن البشارات المتعددة ، منها ما يكون في الدنيا كبشارة
النصر والتمكين في الأرض للمؤمنين ، والغيث والرزق الكريم كما ترد
البشرى بالواقع اليومي للناس في معاملاتهم ، وبالرؤيا الصالحة وليس من
حصر لوجوه البشارة في الدنيا .

وتتضمن ذات الآية القرآنية البشارة العامة والخاصة وفي الدنيا والآخرة ،
فهي رحمة من عند الله عز وجل أنزلها للعباد لتصبح سبيل العز وجني
الحسنات والنجاة في الدارين ، قال تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ *
هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

و(عن أبي موسى : عن النبي صلى الله عليه وسلم : مثل الذي يقرأ
القرآن كمثل الأثرجة ، طعمها طيب وريحها طيب. والذي لا يقرأ القرآن
كالثمرة ، طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل
الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل
الخنزلة طعمها مر ولا ريح لها) (٢).

وهل تتضمن آية البحث البشارة في مفهومها ، الجواب نعم ، لما فيها من
الإستغناء عن الإفتتان بالذين كفروا وما بين أيديهم من النعم ، ولأن الآية
التالية تتضمن الإخبار بأن متاعهم في الدنيا قليل وإلى زوال .

ويتعلق النهي ﴿ لَا يَغُرَّكَ ﴾ (٣) ، بالمسلمين لأن النبي محمداً صلى الله عليه
وآله وسلم معصوم من الاغترار بالذين كفروا ، ولأنه يتلقى الوحي كل يوم

(١) سورة النمل ١-٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧/١ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٧.

، وخاطبه الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) فان آية البحث تدل على استدامة الإسلام ، وصيرورة المسلمين في حرز من الإنذار والإفتتان بالذين كفروا ، وما يترتب على هذا الاغترار من ضعف العقيدة أو قلة الصبر .

الآية إنذار

لقد اتصفت الآيات والصور المكية بالقصر ، وبلغة الإنذار والوعيد للذين كفروا ، ونزلت آية البحث وهي آية مدنية قصيرة وبذات لغة الإنذار للذين كفروا ، ولكن لغة الخطاب فيها موجهة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلحق به الأمة والناس جميعاً .

لتكون تحذيراً لهم ، وإنذاراً ووعيداً للذين كفروا في النشاطين ، ويمكن إنشاء علم جديد في علم الإحصاء وباب الإنذار القرآني من وجوه :
الأول : إنذار الذين كفروا بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في آية البحث .

الثاني : إنذار الذين كفروا بالخطاب إلى المسلمين مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾^(٢) ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُنْظَرْنَفُسُ مَا قَدَمْتُمْ لَعْدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾^(٤) .

وأخبرت الآية أعلاه عن قيام المشركين باخراج الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من ديارهم ، ليكون تفسيراً لقوله تعالى في الآية

(١) سورة القلم ٤.

(٢) سورة النساء ٧١.

(٣) سورة الحشر ١٨.

(٤) سورة الممتحنة ١.

السابقة ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(١) وشمولها لشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده في سبيل الله.

الثالث : إنذار الذين كفروا بتوجه الخطاب القرآني إليهم ، للحجة وهو من مصاديق شمول رحمة الله عز وجل في القرآن للناس جميعاً لتكون الآية القرآنية شعبة من الرحمة التي يذكرها الله عز وجل في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الرابع : إنذار الذين كفروا بعالم الآخرة ، وأهواله ، قال تعالى ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فُتْرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَا مَا هَٰذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٣).

ولم يرد في القرآن لفظ (هول) و(أهوال) بصيغة الجمع ، ولكنه ورد في السنة النبوية .

وورد عن (جابر بن عبد الله يقول : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَمْنُوا الْمَوْتَ فَإِنَّ هَوْلَ الْمَطْلَعِ شَدِيدٌ وَإِنَّ مِنَ السَّعَادَةِ أَنْ يَطُولَ عُمْرُ الْعَبْدِ وَيَرْزُقَهُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ)^(٤).

ومنها (عن ابن عباس ، أن عثمان بن عفان ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجد هوز حطي كلمن صغفص قرشت فقال : الألف آلاء الله ، والباء بهاء الله ، والجيم جمال الله ، والدال دين الله ، وأما هوز فأهوال جهنم .

وأما حطي فهي لا إله إلا الله تحط الخطايا ، وأما كلمن فكاف من كريم ، ولام من الله ، وميم من منان ، ونون من المهيمن .

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٣) سورة الكهف ٤٩ .

(٤) مسند أحمد ٨٦/٢٩ .

وأما صغفص فصاع بصاع كما تدين تدان ، وأما قرشت فقرصة الناس للحساب^(١).

وعن أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا أيها الناس إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم على صلاة في دار الدنيا إنه قد كان في الله وملائكته كفاية إذ يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٢) فأمر بذلك المؤمنين ليشيهم عليه^(٣).

وآية البحث إنذار للذين كفروا بانقطاع كثرة أسفارهم وتجارتهم ، قال تعالى ﴿نَسِيتُمْ قَلِيلًا مِمَّا نَضُطِّرُّهُمْ إِلَيْهِ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(٤) بنسبة تمتع الذين كفروا في الدنيا إلى الله عز وجل لبيان زوال النعم عنهم ، أما وهم أحياء أو عند موتهم وحسابهم الإبتدائي من قبل منكر ونكير في القبر ، ثم الحساب الدقيق والشامل يوم القيامة .

الصلة بين أول وآخر الآية

ابتدأت آية البحث بالحرف (لا) الذي يفيد النهي والمنع ، ومن إعجاز القرآن في المقام وجوه :

الأول : كثرة الأوامر والنواهي في القرآن .

الثاني : قانون تقييد المسلمين بأحكام القرآن ، والنسبة بينها وبين الأوامر والنواهي عموم وخصوص مطلق .

الثالث : قانون الأجر والثواب في التقييد والإمتثال للأوامر والنواهي القرآنية .

الرابع : قانون كل أمر ونهي في القرآن هو من عند الله عز وجل .

(١) الاصبهاني / معرفة الصحابة ٦٣/١٤ .

(٢) سورة الأحزاب ٥٦ .

(٣) السيوطي / جمع الجوامع ٧٣٧/١ .

(٤) سورة هود ٢٤ .

الخامس : قانون تقريب الله عز وجل المسلمين إلى الإمتثال للأوامر والنواهي القرآنية وإعانتهم في مسالك هذا الإمتثال .

ويتوجه النهي في القرآن إلى كل من :

الأول : إلى رسول الله على نحو الخصوص ، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

الثاني : الخطاب إلى رسول الله والمراد أفراد الأمة ، ومنه آية البحث .

الثالث : الخطاب إلى المسلمين والمسلمات ، ومنه النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ الذي ورد في القرآن تسعاً وثمانين مرة ، ولم يرد نداء (يا أيها المؤمنون) في القرآن مع ورود سورة منه اسمها سورة المؤمنون .

الرابع : الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٢).

الخامس : الخطاب إلى بني إسرائيل ، قال تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارُهِمٌ﴾^(٣).

السادس : الخطاب إلى الناس جميعاً ، ومنه ما ورد بذات صيغة وموضوع النهي في آية البحث في عدم الغرور ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَاٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ

(١) سورة الأعراف ١٥٨.

(٢) سورة النساء ١٧١.

(٣) سورة البقرة ٤٠.

وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْنِيَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنِيَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ^(١)، كما ورد الخطاب بصيغة (يا بني آدم) كما في قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ^(٢)﴾.

وقوله تعالى ﴿لَا يَغْنِيَنَّكُمْ﴾ في آية البحث خطاب موجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمقصود الأمة.

و﴿لَا يَغْنِيَنَّكُمْ﴾ فعل مضارع مبني على الفتح ، والكاف مفعول به ، أما الفاعل فهو (تقلب) وفيه دلالة على وجود المصداق الخارجي لتقلب الذين كفروا في الأمصار .

وهل تدل عليه آيات من القرآن ، الجواب نعم ، فمن إعجاز القرآن قانون كل أمر ونهي في القرآن له ما بينه ويؤكد ، في آيات القرآن الأخرى.

فمن مصاديق هذا القلب في القرآن قوله تعالى ﴿إِلَافٍ قُرْشٍ *
إِلَافِهِمْ رَحْلَ الشَّيْءِ وَالصَّيْفِ^(٣)﴾، ومنه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^{(٤)(٥)}﴾.

(١) سورة لقمان ٣٣.

(٢) سورة يس ٦٠.

(٣) سورة قريش ١-٢.

(٤) سورة آل عمران ١٥٦.

(٥) أنظر الجزء الرابع والثلاثين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

من غايات الآية

ذكرت آية البحث الموضوع المنهي عنه وهو الاغترار بكثرة أسفار الذين كفروا ، وضربهم في الأرض للتجارة ، وتقلبهم في البلاد بأمان وسعة في الجاه والشأن في الحل والترحال في مقابل حال الإستضعاف التي يتصف بها المسلمون ، واضطرارهم للهجرة وترك ديارهم .

والمعروف في كل زمان ملاقة المهاجر الصعاب والمخاطر في الطريق ، وضيق وقلة الرزق والكسب خاصة في أيام التنزيل ، وقد هاجر الشباب والشيوخ من المسلمين من أهل مكة إلى المدينة التي كان أهلها يمتنون الزراعة والسقي ولا خبرة أو معرفة لأهل مكة بمهنة الزراعة مع قلة الموارد في المدينة .

فانشأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الصفة) في مؤخرة المسجد النبوي للصحابة الغرباء العزاب القادمين إلى المدينة ، وظللها بجريد النخل ، والتي سميت (دكة الأغوات) وهذه التسمية معاصرة وهي متأخرة زماناً عن أيام التنزيل والتابعين .

فقد يفتتن بعض المسلمين بحال الغبطة والمندوحة التي عليها الذين كفروا ، ويحصل ديب الشك بين الصحابة ، فينشط النفاق والإرجاف في المدينة ، قال تعالى ﴿لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

فمن الإعجاز في آية البحث منع الفتنة بين المسلمين ، واضعاف الصحابة في ملاقة جيوش المشركين الغازية ، وتتجلى مصاديق ﴿تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢)، في كل من معركة بدر ، وأحد ، والخندق ، لزحفهم وقصدهم القتال في كل منها ، ومجيئهم بخيلاء وصهيل الخيل ورغاء الإبل

(١) سورة الأحزاب ٦٠.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

ولمعان السيوف وإقامة الولائم في الطريق إلى المعركة مع كثرة الأشعار والأهازيج التي تنم عن الإقامة على الشرك ، وإرادة الإنتقام وقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، قال تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

وليكون من تقدير آية البحث : لا يغرنك الذين كفروا في تهديدهم ووعيدهم إذ كان رجالا قريشا يبعثون رسائل التهديد للمهاجرين والأنصار خاصة بعد معركة بدر ولحوق الخسارة بالمشركين وإصابتهم بالهزيمة الماحقة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^{(٢)(٣)}.

وفي الآية مسائل :

الأولى : وقاية المسلمين من اليأس والقنوط .

الثانية : تفقه المسلمين في أمور الدين والدنيا ، وتغشي رحمة الله عز وجل في الحياة الدنيا الناس جميعاً ، لتكون رحمته بالذين كفروا وبالأعلى عليهم في الآخرة لجحودهم بالنعمة .

الثالثة : بيان الأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين .

الرابعة : التخفيف عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسلامة أصحابه من الاغترار بالذين كفروا .

الخامسة : منع المسلمين من الإرتداد الذي يأتي بسبب الإفتتان بالذين كفروا .

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٤١.

(٣) أنظر الجزء الثالث عشر بعد المائة من هذا السفر والذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة مع قلة كلماتها والحمد لله.

السادسة : تدعو آية البحث المسلمين إلى العناية بعباداتهم .

السابعة : منع حدوث الفتنة في صفوف المسلمين .

الثامنة : تحذير أهل البلاد المختلفة من الذين كفروا وتقلبهم بين الأمصار.

التاسعة : ذم الذين كفروا .

العاشرة : بيان أن المدار على عالم الآخرة ، وحال الإنسان فيها ، قال تعالى ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

الحادي عشر : صيرورة النعم التي عند الذين كفروا ، ومنها التقلب في البلاد وبالأعلى عليهم في الآخرة لتسخيرهم لها بمعصية الله ومحاربة النبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٢) .

أسباب النزول

نزلت آية البحث في رجال قريش من المشركين ، إذ كانوا في سعة ورخاء ، وسطوة وجاه عند القبائل وفي بلاد الروم وفارس واليمن ، ويقومون بايذاء المؤمنين وإخراجهم من ديارهم ، قال تعالى ﴿ لِّلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾^(٣) .

(١) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٢) سورة الزمر ٧١ .

(٣) سورة الحشر ٨ .

فتساءل بعض المؤمنين قد أصابنا الجهد والأذى ونحن في طاعة الله ، فنزلت الآية دعوة لهم للصبر ، فصحيح أن الخطاب فيها متوجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكن المقصود هم الأمة بأجيالها المتعاقبة وبيان أن تصرف المشركين في التجارات ، ونفاذ أوامرهم في المجتمعات إنما هو قصير مدته ، وإلى زوال ، وما كان قصيراً وزائلاً ، لا يغتر به ، ولا يفتن الناس به .

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين الرضا بما قسم لهم ، وتعاهد الفرائض العبادية ، والعصمة من الإرتداد ، فقد يكون الاغترار بالذين كفروا سبباً لديب الريب والشك إلى النفوس أو ضعف الإيمان ، فنزلت آية البحث مواساة وتسلية للمؤمنين وإعانة لهم للثبات في مقامات الإيمان .

والمدار على عموم واستدامة أحكام مضامين الآية ، وعدم الوقوف عند أسباب النزول ، فقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان وافتتان ، ومنه التباين بين الناس في الرزق والنعمة والجاء والسلطان ، قال تعالى ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ قَوْمٌ مَسْأَلَةً فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُأُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١) (٢) .

فتكون آية البحث حرزاً عندما تنزل خسارة أو أذى بالمسلمين ، وبشارة زوال البلاء وانصراف الأذى ، وبيان قانون النعم الظاهرة عند الذين كفروا لا تمنع من استيلاء الألم والحسرة والحزن عليهم ، خاصة وأن آيات القرآن تترى في نزولها وتضمنها الإنذار والوعيد لهم بالعذاب الأليم .

(١) سورة آل عمران ١٤٠ .

(٢) أنظر الجزء الحادي عشر والثاني عشر بعد المائة من هذا السفر الذي للذين اختصا بتفسير هذه الآية الكريمة .

ومن معاني الجمع بين قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١) في الآية أعلاه وبين ذم آية البحث للذين كفروا وقوله تعالى في الآية التالية ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ بشارة فتح مكة وإنحسار سلطان الذين كفروا .

قانون الملازمة بين الإيمان والصبر

لقد بقي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة بعد البعثة النبوية يدعو إلى الإسلام في مكة ، ولاقى وأصحابه أشد ضروب الأذى ، وفرضت قريش حصاراً اقتصادياً واجتماعياً على بني هاشم لمدة ثلاث سنوات من أول السنة السابعة للهجرة إلى السنة العاشرة ليتخلوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقتله قريش ، فانحاز بنو هاشم مؤمنهم وكافرهم إلى شعب أبي طالب باستثناء أبي لهب الذي كان من أشد الناس عداوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا غرابة أن تنزل سورة قرآنية في ذمه وأولها ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْمِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي يَدِهَا حِجْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾^(٢).
(عن ابن عباس قال : لما نزلت { وأنذر عشيرتك الأقربين }^(٣) ورهطك منهم المخلصين خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى صعد على الصفا فنادى يا صباحاه .

فقالوا من هذا الذي يهتف؟

قالوا : محمد .

فاجتمعوا إليه ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا : نعم .

(١) سورة آل عمران ١٤٠.

(٢) سورة المسد ١-٥.

(٣) سورة الشعراء ٢١٤.

ما جربنا عليك إلا صدقاً قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا! فنزلت { تبث يدا أبي لهب وتب }^(١) (٢).

وتب : أي خسر ، وفي ذم الذين ظلموا أنفسهم باتخاذ الشركاء لله ، قال تعالى ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾^(٣) ونزلت آية البحث في مشركي العرب من قريش وحلفائهم (وذلك أنهم كانوا في رخاء ولين من العيش وكانوا يتجرون ويتنعمون،

فقال بعض المؤمنين : إن أعداء الله فيما يرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد،

فنزلت هذه الآية).^(٤)

وكانوا قبل هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يطوفون على وفود القبائل في موسم الحج يحذرونهم وينذرونهم من التصديق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته ودعوته إلى التوحيد ، وينعتونه بأنه كذاب وساحر ، وأي وفد يحضر إلى مكة يحذرونه من الإستماع إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد أظهر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه أبهى مصاديق الصبر ، ومنه عدم الإفتتان بنفوذ وجاه وسلطان كفار قريش ، وعن الإمام علي عليه السلام قال (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، إذا قطع الرأس نتن باقي الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له)^(٥).

(١) سورة المسد ١-٢.

(٢) الدر المنثور ٤١٢/٧.

(٣) سورة هود ١٠١.

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ٣٢١/٣.

(٥) الدر المنثور ١٠٧/١.

ملاحقة قريش لمهاجري الحبشة

حينما هاجر رهط من المسلمين إلى الحبشة أرسلت قريش خلفهم وفداً يتألف من عمرو بن عبد ود العامري ، وعبد الله بن ربيعة بالهدايا الجزيلة إلى النجاشي وبطارقته مع طلب لتسليم المهاجرين المسلمين لهما ، فأبى النجاشي عليهما بعد مناظرة معهم برئاسة جعفر الطيار ، وتلاوته لآيات من القرآن خاصة في عيسى ومريم عليهما السلام (فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، ثم قال اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ردوا عليهما هداياهم فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي)^(١).

لقد كانت هجرة الحبشة وتحمل بني هاشم الحصار لثلاث سنوات شاهداً على عدم الإفتتان بما في أيدي المشركين من الأموال والجاه العريض ، وهجرة الحبشة أكبر سفارة عقائدية في تلك الأزمنة ، وهي دعوة للمسلمين للهجرة لسلامة الدين.

وإذ تذكر آية البحث تقلب الذين كفروا في الأمصار بكفرهم فانهم كانوا يحملون معهم أصنام صغيرة ، كما نصبوا أصناماً في الطريق العامة ، فقد عزف الصحابة عنهم وعن مفاهيم الوثنية ، واختاروا أداء الصلاة في دار الغربة بعيداً عن إيذاء قريش لهم بسبب الصلاة ، قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^(٢) ومع أنهم حديثوا عهد بالإسلام ، ولم ينزل من القرآن إلا شطره ، فقد حافظوا على إسلامهم في الحبشة وسط مجتمع النصراني المتجانس اجتماعياً ، لبيان قانون آيات القرآن حرز مصاحب في الحل والسفر .

(١) ذخائر العقبى ٢١١/١.

(٢) سورة العلق ٩-١٠.

غُرُور الَّذِينَ كَفَرُوا

لقد سعت قريش في قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واختاروا عشرة من فتيانهم للإشتراك في قتله ، وضياح دمه بين البيوتات والقبائل ، وحمل بني هاشم على قبول الدية ، وهذا السعي من التمكن والتقلب في البلاد .

(عن ابن عباس في قوله { وإذ يكرهك الذين كفروا ليشتموك }^(١) قال : تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه .

فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ، فبات علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً عليه السلام يحسبونه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوه علياً عليه السلام رد الله مكرهم .

فقالوا : أين صاحبك هذا؟ قال : لا أدري ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال^(٢) .

فأمر الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة في ذات الليلة التي أرادوا فيها قتله .

لتنقل قريش في قلبها في البلاد إلى تجهيز الجيوش لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنفاق الأموال عليها ، والإنشغال عن التجارة والتقلب في البلاد ، نعم معركة بدر وللسرعة في الخروج لإنقاذ قافلة أبي

(١) سورة الأنفال ٣٠ .

(٢) الدر المنثور ٤/٤٤١ .

سفيان بادعاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يريدون الإستيلاء عليها جمعت قريش نحو ألف من أهل مكة .

وبعد هزيمتهم في معركة بدر استعدوا للمعركة أحد بأن اختاروا نفرًا من رؤسائهم ليطوفوا بين القبائل يدعونها للنصرة وإحياء الأحلاف بينهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع دفع الأموال لرؤساء القبائل والشعراء .

فخرجوا ثلاثة آلاف مقاتل نحو المدينة منهم ألفان مستأجرون ، وكانهم مما يسمون في هذا الزمان بالمرتزقة ، فصاروا وبالأعلى قريش لكثرة الإنفاق عليهم ، وسرعة الانسحاب من ميدان المعركة ، وعدم الجدية في القتال ، لنزول قوله تعالى في هذه المعركة ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْسَى الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ليكون تقلب الذين كفروا في البلاد وبالأعلى عليهم لأنهم سخروا نعمة التقلب هذه لمحاربة النبوة والتنزيل ، والبلاد والأرض كلها ملك لله عز وجل ، قال تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

التفسير

تفسير ﴿لَا يَغْرَنَّكَ﴾

يتوجه الخطاب في آية البحث للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة التحذير والتنبية والإنذار والمراد أهل بيته وأصحابه وأجيال المسلمين وعامة الناس لمنع الإفتتان بما عند الذين كفروا من النعم والسلطنة وكثرة الأموال ، والإنتشار والسياحة في الأرض ، وركوب أفخر وأسرع الرواحل والمركبات.

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة الزمر ٤٤.

وكان أهل البيت والصحابة في فقر وعوز ، وعندما حاصرت قريش بني هاشم في شعب أبي طالب في مكة أصابهم الجوع والفاقة لأنه حصار اجتماعي واقتصادي ، إذ منعوا البيع والشراء والنكاح منهم ، فكان الإثنان من صبيانهم يقتسمون التمرة الواحدة ، وتصيب الغبطة الذي تكون نواتها من حصته ، ومع هذا صبروا وانضم إليهم بعض الصحابة ليكونوا بديلاً مباركاً عن أبي لهب الذي اختار الإصطفاف مع المشركين ، وعدم اللجوء إلى الشعب مع أنه عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ويحتمل الحرف (لا) في ﴿لَا يَغْرَنَّكَ﴾ وجوهاً :

الأول : النهي .

الثاني : النفي .

الثالث : إجماع النهي والنفي .

والمختار هو الأول ، ويمكن أن يقال أن المراد من هذا المعنى هم المسلمون لأن الخطاب توجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد عامة الأمة بأجيالها .

ويكون الخطاب عاماً لكل إنسان ، وتقديره : يا أيها الإنسان لا يغرنك تقلب الذين كفروا بالبلاد .

وقد ورد لفظ ﴿لَا يَغْرَنَّكَ﴾ في حديث يهود المدينة مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد واقعة بدر (عن ابن إسحاق قال: كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمعهم بسوق بني قينقاع. ثم قال: يا معشر اليهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبحت فيهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس^(١).

لقد تضمنت آية البحث النهي عن الاغترار بتقلب الذين كفروا. والتقلب في المقام مثال على أمور يتمتع بها الكفار ، ومنها :
الأول : كثرة الأموال .

الثاني : الضرب في الأرض للتجارة والكسب ، كما في قوله تعالى ﴿لَا يَلَابِفُ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(٢)،

الثالث : الجاه العريض بين أهل المدن والقبائل .

الرابع : طواف رجالات قريش على حلفائهم من القبائل .

الخامس : التنقل بين المدن والقرى لجمع الديون والأموال الربوية.

السادس : قيام الذين كفروا بالبيع والشراء في الأمصار.

ولا يختص موضوع الآية بالملأ من قريش ، بل يشمل أسفار الذين كفروا مطلقاً .

وهل يختص النهي بهذا التقلب ، الجواب لا ، إنما ذكرته الآية من باب المثال الأهم ، فيجب ألا يغتر المسلمون بما عند الذين كفروا من المال والجاه والشأن.

لقد لاقت دعوة النبي محمد في بداياتها صدوداً وعداء ومحاربة من قبل رؤساء قريش ، وإعراضاً من أكثر قبائل العرب ، فكان النبي يدعو الناس منفردين ومجتمعين إلى الإسلام .

وهل تلاوة القرآن عليهم من هذه الدعوة ، الجواب نعم ، لبيان أن صحابة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأوائل وأهل بيته كانوا يدعون إلى الله عز وجل ، فتحملوا الأذى والتهجير وهو الذي بينته الآية

(١) تفسير الطبري ٢٢٨/٦ .

(٢) سورة قريش ١-٢ .

السابقة بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ مِنْكُمْ مِنْ بَعْضِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١).

ومن الإعجاز فيها ابتداءها باستجابة الله عز وجل لدعائهم قبل ذكر الأذى الذي أصابهم وفيه ثناء عليهم ، وتخفيف عنهم ، وإخبار عن ابتداء حال الأمن وسيادة أحكام الشريعة ، فهذه الآيات مدنية والتي تبين إنتفاء حال استضعاف المسلمين ، والذي وثقه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢) بقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فلا تكون للكفار اليد الطولى ، ولا يستطيعون منع المسلمين من الخروج من المدينة ، ولا الحيلولة دون دخول الأفراد في الإسلام ، وهجرتهم إلى المدينة ، لذا أنشأ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بناء الصفة بجوار مسجده في المدينة لاستقبال المهاجرين العزاب الجدد .

لتدل الآية التالية على قرب انقطاع أسفار وتجارات الذين كفروا وتصرفهم في الطرق العامة بين مكة والبلدان والقرى الأخرى .
ولتحمل الآية التالية ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣) معاني متعددة منها :

الأول : قرب أيام فتح مكة وقُدوم وفود القبائل إلى المدينة لإعلان إسلامهم ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(١).

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران ١٩٧.

الثاني : يدل على قرب نزول البلاء بالذين كفروا قوله تعالى ﴿أَوِاخُذَهُمْ فِي تَقْلِهِمْ فَأَمْهَمُ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٢) ، فقد يكون تقلب الذين كفروا في البلاد وكثرة أسفارهم وبالأعلى عليهم ، وسبباً لهلاكهم خارج مدنهم وقراهم .

الثالث : مجئ العذاب للذين كفروا من جهة لا يتوقعونها ولم يحسبوا لها حساباً.

وحيثما جهزت قريش الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتلاهم الله بتعطيل التجارات لتسخيرهم إبل التجارة لحمل الجنود عليها ، ولذبح عدد منها كل يوم لإطعامهم ، ونقص الأموال ، والتخلف عن سداد الديون وتراكم الأرباح الربوية عليها.

ليبان قانون الذين كفروا وأعمالهم غير خافية على الله ، وقانون لا يتمتع أحد عن حساب الله للناس ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣).

ومن معاني النهي في الآية عن الاغترار بالذين كفروا أنه مقدمة لثبات الصحابة في ميدان الدفاع في معارك الإسلام الأولى إذ يلتقون مع الذين كفروا في الميدان ويدنو بعضهم لبعض وتبدو الهيبة واللباس الجيد ولمعان السيوف والدروع والخيول عند المشركين فنزلت الآية لعدم الإفتتان بهم.

وفي معركة بدر كان عند المشركين مائة فرس وليس عند المسلمين منها إلا فرس واحدة.

وفي عشية المعركة بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام (علي بن أبي طالب ، والزيير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص - في نفر من أصحابه - إلى ماء بدر ، يلتمسون الخبر .

(١) سورة النصر ١-٢.

(٢) سورة النحل ٤٦.

(٣) سورة غافر ١٧.

فأصابوا راوية لقريش، فيها غلام أسود لبني الحجاج، اسمه: أسلم، وغلام لبني العاص بن سعيد عريض بن يسار، وفر الباقون وكانوا كثيراً. وأول من بلغ قريشاً من الفرار: رجل اسمه عجير، فبلغهم خبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا آل غالب، هذا ابن أبي كبشة مع أصحابه، قد أخذوا راويتكم مع غلامين منا أيها الورد.

فوقع في جيشهم انزعاج واضطراب وخوف، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلامين سألوهما، وهو - عليه الصلاة والسلام - يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان صاحب العير، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وسلم - عليه الصلاة والسلام - من صلاته فقال: "إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله! إنهما لقريش، أخبراني عن قريش."

قالا: هم والله وراء هذا الكتيب العقنقل^(١) فقال لهما: كم القوم. فقالا: كثير، قال: كم عدتهم، قالا: ما ندري، قال: كم ينحرون كل يوم من الإبل، قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً.

فقال عليه الصلاة والسلام: القوم بين التسعمائة والألف. ثم قال لهما: فمن فيهم من أشرف قريش، قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية ابن خلف، ونُبَيْه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو بن عبد ود العامري فأقبل عليه الصلاة والسلام على الناس قائلاً: هذه والله مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها^(٢).

(١) العقنقل: التل من الرمل المتراكم المتداخل، و(عن ابن الأعرابي الرمل الكثير يقال

له العقنقل فإذا نقص، فهو كتيب فإذا نقص عنه، فهو عوكل فإذا نقص عنه، فهو سقط فإذا نقص عنه، فهو عذاب فإذا نقص عنه، فهو لبب) فقه اللغة ١/٦٦.

(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل ١/٢٤٨.

فلم يفتن المسلمون بكثرة البذل عند المشركين مع قلة الزاد عند المسلمين ، ولا بالأسماء والعناوين ذات الصيت لرجالاتهم .

ليكون قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في خاتمة الحديث أعلاه صار خاصة أبناء قريش في تناول سيوفكم ، وأن الهزيمة تنتظرهم فلا يغرنكم الشأن الذي اكتسبته هذه الأسماء من كثرة أموالهم وأسفارهم ، وفيه دعوة نبوية للمهاجرين والأنصار ألا يفروا من الميدان.

فكان المشركون هم الذين فروا ، وتركوا إبلهم ومؤنهم غنائم للصحابة ليكون من معاني ﴿لَا يَغْرَبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) الدعوة السماوية لثبات المسلمين في الميدان.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يفري إذا لاقى)^(٢).

ليكون المسلمون ورثة الأنبياء في العبادة وفي الثبات في ميدان الدفاع . ومن مصاديق آية البحث قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾^(٣).

و(لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادة ، فاشتد عليه ، فجعل يصلي الليل كله حتى شق عليه ذلك ، ونحل جسمه ، وتغير لونه فقال أبو جهل وأصحابه : إنك شقي فأتنا بآية أنه ليس مع إلهك إله ، فنزل (طه) يعني : يا رجل بلسانك ، وعننى به النبي صلى الله عليه وسلم)^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٠١/٦ .

(٣) سورة الكهف ٦.

(٤) السمرقندي / بحر العلوم ٨٧/٣.

علم المناسبة

وردت ذات لغة الخطاب والنهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نفس موضوع لزوم الإمتناع عن الإفتتان والاغترار بالذين كفروا بقوله تعالى ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾^(١).

ومن معاني الجمع بين الآيتين قيام الذين كفروا اثناء أسفارهم وتقلبهم في البلاد بالجدال بآيات الله سواء في إقبالهم وعودتهم إلى مكة أو في خروجهم منها إلى الشام أو اليمن للتجارة .

وورد التحذير إلى الناس جميعاً بالنهي عن الاغترار بالحياة الدنيا لأنها زائلة ومتاع قليل يتعقبها عالم الحساب على نحو الحتم والقطع ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٢).

وقيل معنى الغرور في الآية أعلاه هو الشيطان .

وتقدير الآية : فلا يغرنكم بالله الشيطان .

ولكن معنى الآية أعم منها تسويق العمل العبادي والصالحات ومنها كثرة الأمانى ، وتكرار المعصية والإقامة عليها رجاء العفو من الله ، ولا يأتي العفو بالتمني إنما بالتوبة والإنابة .

ولم يرد لفظ (لا يغرنك) في القرآن إلا في آية البحث .

إكرام النبي محمد في آية (لا يغرنك)

صحيح أن آية البحث ابتدأت ب (لا الناهية) إلا أن هذا النهي والإمثال له يقود إلى الجنة ، والإقامة في النعيم فيها ، فهي أجر وثواب عن الفتنة والإفتتان ، ودعوة لثبات القلوب في مقامات الإيمان ، وتلقي الأوامر

(١) سورة غافر ٤.

(٢) سورة فاطر ٥.

والنواهي بالرضا والقبول ، وفيها أكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من جهات :

الأولى : توجه الخطاب من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : في الآية ذكر للنبي ، ودعوة للناس للإقتداء به في فعله ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١) .

الثالثة : تعلق النهي في الكيفية النفسانية التي يكون عليها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون بما يصير واقية من الإفتتان بالذين كفروا أو تتبع أخبار أسفارهم وكثرة أموالهم وكيفية تصرفهم وتنعمهم بها .

الرابعة : تدعو آية البحث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى إرشاد المسلمين إلى عدم الإلتفات لما عند المشركين من النعم لأنها متاع قليل وفيها عذاب شديد لهم لعدم تسخيرهم لها في مرضاة الله .

الخامسة : إصلاح المسلمين للإمارة والحكم بالكتاب والسنة ، وعدم التهاون مع الذين كفروا لما لهم من الشأن العام .

السادسة : بيان عدم أهمية التقلب في البلاد في حياة الناس والأمور العامة لأن المدار على الإيمان وإن صاحبه الفقر ، والعجز عن السفر والضرب في الأرض .

السابعة : آية البحث باب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيها تأديب للمسلمين والتعاون بينهم لإجتنب الإنشغال بالنعم التي عند الذين كفروا ، أو سؤال لماذا لا تسلب هذه النعمة منهم ، وتكون عندنا فنسخرها في طاعة الله ، إنما الحياة الدنيا دار امتحان واختبار .

وأراد الله عز وجل بيان معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي انتصاره وأصحابه وهم في حال عوز وفقر مع قلة العدد على المشركين ذوي النعم والكثرة والجاه العريض ، والقدرة على التقلب في البلاد .

تفسير ﴿تَقْلَبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾

لا تنهى الآية عن التقلب والسياسة والضرب في الأرض للتجارة ، والمكاسب ، والمنافع المحللة غير المحرمة ، ولكنها تتضمن الذم للذين كفروا لأنهم يتنقلون في البلاد بلباس الكفر ، والدعوة الظاهرة أو المعنوية إليه لإفتتان الناس بهم ، ولقيامهم بالإفتراء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحاربتة .

فمن تقلب الذين كفروا في البلاد طواف رجال من قريش على القبائل لجمع الرجال لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، حتى جمعوا ألفين خرجوا معهم إلى معركة أحد .

وكذا قبيلة هوازن وثقيف إذ قاموا بعد فتح مكة بالتحالف مع قبائل أخرى وبادروا لتجهيز عشرين ألفاً لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يتفرغ للتوجه إليهم .

(قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما فتح الله عليه من مكة جمعها ملكها مالك بن عوف النصرى يشهداها من قيس عيلان إلا هؤلاء .

وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب ، ولم يشهداها منهم أحد له اسم .

وفى بنى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شئ إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مجرباً ، وفى ثقيف سيدان لهم ، وفى الاحلاف قارب بن الاسود بن مسعود بن معتب ، وفى بنى مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى^(١) .

وهذا التحالف وتجهيز الجيوش من تقلب الذين كفروا في البلاد ، ومنه الطواف بين القبائل للمكر والظلم للنبوة والتنزيل ولأنفسهم .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٦١٠/٣ .

لقد سمعوا بسيادة الإسلام في مكة ، وتنزيه الحرم من الأصنام ، وإرسال النبي صلى الله عليه وآله وسلم السرايا لاتلاف الإصنام التي حول مكة من غير تعرض للقبائل التي حولها ، فجهز مشركو هوازن وثقيف الجيوش وخرجوا إلى قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يصل إليهم ، واختاروا وادي حنين ، ونزلوا فيه عندما سمعوا بخروج النبي محمد من مكة ومعه عشرة آلاف من أصحابه ، بالإضافة إلى ألفين من مسلمي الفتح ومنهم المؤلف قلوبهم .

ليكون مسير هوازن وثقيف وحلفائهم إلى معركة حنين من تقلب الذين كفروا المذموم في البلاد الذي تذكره آية البحث ، وأحضروا جميع نساءهم وذرائعهم وأنعامهم معهم لكي يقاتلوا دون أعراضهم وأموالهم ، ومع أن عدد المسلمين في معركة حنين نحو نصف عدد المشركين الذين هاجموا المسلمين بغتة بحرب الحماة ، فقد نصر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

ومن الآيات في المقام لجوئهم إلى الدعاء كما في آية السياق ، فهذا النصر من الدعاء والوعد الإلهي الوارد في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾^(١).

من إعجاز القرآن مجيئ كلمة جامعة متعددة المعاني والدلالة ، ومنها كلمة (تقلب) التي تفيد وجوهاً :

الأول : ضرب الذين كفروا في الأرض وكثرة أسفارهم .

الثاني : تعطل عمل الذين كفروا باصرارهم على الكفر في التجارة ، واقتراضهم الأموال بالربا أو بدونه ، إذ كان تجار الشام يقرضون رجالات قريش ليحملوا في قوافلهم الذهب والفضة والطعام والقطن والثياب وغيرها ، مع خطورة الطريق واحتمال تعرض القوافل إلى النهب والسلب في الجزيرة والبيداء سواء في طريق الذهاب إلى مكة أو حال الرجوع منها إذ

أنهم يرجعون بالأموال والبضائع التي جلبوها من اليمن من البرد اليمانية ،
والبهارات والسيوف ومصنوعات الحديد من الهند .

لقد أنعم الله عز وجل على شبه الجزيرة العربية وأهلها بأن توسطت
البحار إذ يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) ، ومن
الغرب البحر الأحمر (بحر القلزم) بطول ألفي كيلو متر ، ومن الجنوب
المحيط الهندي (بحر الحبشة) ومن الشرق الخليج العربي (بحر فارس)

وتتكون في هذا الزمان بفيوضات رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم من تسع دول هي : العراق ، المملكة العربية السعودية ، الأردن ،
الكويت ، قطر ، البحرين ، عمان ، الإمارات العربية المتحدة ، اليمن .

وصنع العرب القوارب ليجروا فيها إلى الموانئ القريبة لأغراض التجارة
، وانتفعوا من الرياح الموسمية وسرعتها في مواسم مخصوصة وهو أمر
يستلزم الشكر لله عز وجل والإقرار بفضلله ، ولكن الذين كفروا تمتعوا بهذه
النعم ، وصاروا بأحسن حال حتى إذا بعث الله عز وجل النبي محمداً من
بين ظهرانهم بالمعجزات العقلية والحسية كفروا وجحدوا ، فنزلت آية
البحث دعوة للمسلمين للصبر ، وعدم الإفتتان بتقلب وضرب الذين كفروا
في البلدان .

الثالث : إكرام القبائل العربية لرجال قريش ونحوهم من أئمة الكفر
كونهم جيران البيت الحرام مع أنهم لم يوفوا حق الجوار .

الرابع : قيام قريش بتسليف الناس في الجزيرة المال عيناً وبضائع مع
حاجة المدين إلى الإمهال ، واستعداده لتحمل الربا والفائدة ، وكانوا
يسلفون المال لمدة سنة مثلاً من غير ربا أو زيادة ، ولكن عند التخلف عن
الموعد تفرض زيادة ربوية على المدين أي أنهم مع كونهم في حال جهل
ووثنية وكفر ، فهم لم يأخذوا الربا حال الإقراض .

الخامس : من تقلب الذين كفروا في البلاد طوافهم على القبائل لمنعهم
من دخول الإسلام ، وللإفتراء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
والتنزيل شعراً ونثراً .

السادس : جمع وتحشيد الرجال لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في معركة بدر ، وأحد ، والخنديق ، وكذا قام مالك بن عوف وهوازن للدخول في معركة حنين .

لقد ذكرت آية البحث تنقل وسفر الذين كفروا في البلاد بصيغة الذم لهم من جهات:

الأولى : نهى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين من الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد .

الثانية : هذا التقلب من مقامات الكفر وبذات الهيئة والسنخية .

الثالثة : قانون قبح تسخير الذين كفروا للنعم الإلهية في معصية الله .

الرابعة : بيان قانون التباين بين المؤمنين والذين كفروا في ذات الفعل ، فالؤمن إذا تقلب في البلاد فانه يتنقل فيها بطاعة الله ، ويكون شاكرًا له سبحانه ، ومن مصاديق هذا الشكر أداء الصلاة في أوقاتها ، ولو في الطرق العامة .

وجوه الكفر

من معاني النهي عن الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد الإشارة إلى الإثم الذي يلحقهم بهذا التقلب ، قال تعالى ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

ولم يرد لفظ ﴿يُضْحَكُوا﴾ و﴿يَبْكُوا﴾ في القرآن إلا في الآية اعلاه

ترى ما المراد من الذين كفروا في آية البحث ، الجواب هم الذين جحدوا بالتوحيد والنبوة ، وأنكروا التنزيل من عند الله ، وامتنعوا عن أداء الصلاة والفرائض العبادية الأخرى .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عندما سئل عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه :

فمنها كفر الجحود، والجحود على وجهين ؛ والكفر بترك ما أمر الله ؛ وكفر البراءة ؛ وكفر النعم.

فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول: لارب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهرية وهم الذين يقولون ﴿وَمَا يُلْكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(١)، وهو دين وضعوه لانفسهم بالاستحسان على غير ثبوت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون، قال الله عزوجل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أن ذلك كما يقولون وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) يعني بتوحيد الله تعالى فهذا أحد وجوه الكفر.

وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن ييحد الجاحد وهو يعلم أنه حق، قد استقر عنده وقد قال الله عزوجل ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٣).

والوجه الثالث من الكفر كفر النعم وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾^(٤)، وقال ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٥)، وقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٦).

(١) سورة الجاثية ٢٤.

(٢) سورة البقرة ٦.

(٣) سورة النمل ١٤.

(٤) سورة النمل ٤٠.

(٥) سورة ابراهيم ٧.

(٦) سورة البقرة ١٥٢.

والوجه الرابع من الكفر ترك ما أمر الله عز وجل به وهو قول الله عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ؟^(١)

فكفرهم بترك ما أمر الله عز وجل به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده فقال ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيَّ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة وذلك قوله عز وجل يحكي قول إبراهيم عليه السلام ﴿كَلِمَاتُكُمْ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾^(٣).

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾^(٤) وقال ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾^(٥)^(٦).

(١) سورة البقرة ٨٤-٨٥.

(٢) سورة البقرة ٨٤-٨٥.

(٣) سورة الممتحنة ٤.

(٤) سورة إبراهيم ٢٢.

(٥) سورة العنكبوت ٢٥.

(٦) الكافي الكليني ٥٤٢/٢.

قانون التقريب إلى الإيمان

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار اختبار للناس ورزقهم العقول للتدبر والتفكر ، وقربهم إلى منازل الإيمان بآيات أكثر من أن تحصى منها آيات كونية يومية متجددة ، ومعجزات النبوة والتنزيل ، وليس من نبي إلا وجاء بمعجزة حسية تدل على صدق نبوته ، وتجذب الناس للإيمان بالله ، ورزق الله عز وجل الرسول محمداً المعجزة الحسية والعقلية ، وكل معجزة حرب على الكفر بأقسامه ، ودعوة للهدى والإيمان .

وفيه حجة متعددة على الذين كفروا لذا بطش الله عز وجل بكفار قريش لقتالهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع رؤيتهم المعجزات تجري من بين يديه ، وبعد إقرارهم بأن آيات القرآن فوق كلام البشر .

فمن فضل الله عز وجل على الناس عامة وعليه خاصة بقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة بعد البعثة في مكة يتلقى آيات وسور القرآن ، ويتلوها على الناس القريب والبعيد ، والمقيم والمسافر ، ورأت قريش ميل النفوس إليه ودخول رهط من الناس في الإسلام ، واضطرار طائفة من الصحابة للهجرة إلى الحبشة حفاظاً على دينه مع إخطار الطريق وبعد المسافة والمستقبل المجهول ، وكيف سخر الله عز وجل لهم ملك الحبشة النجاشي فجعلهم في حياتهم ، وأبى أن يسلمهم إلى وفد قريش المتألف من عمرو بن العاصي وعبد الله بن ربيعة ، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١).

وتبين الآية ضرب الذين كفروا بالتجارة بين الأمصار ، وتحقيقهم للأرباح الطائلة خاصة مع جلب البضائع من الشام واليمن إلى مكة ، وعمارة العرب للمسجد الحرام طيلة أيام السنة بوفودهم من قراهم ومدنهم لأدار العمرة ، ثم يأتي موسم الحج فيجتمع الناس في مكة ، وتقام الأسواق فيه خاصة وأنه يقع في شهر حران ، وهو شهر ذي الحجة ، ويتقدمه شهر

حرام وهو شهر ذي القعدة ، ويتعقبه شهر حرام أيضاً وهو شهر محرم بحيث يستطيع الذي يؤدون مناسك الحج القدوم إلى مكة لحج بيت الله الحرام والرجوع منها بأمان وسلامة ، وهو من بديع صنع الله عز وجل ، وليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١).

فضل الله بالأمن لوفد الحاج أثناء أداء المناسك وعند العودة إلى ديارهم بأحكام الأشهر الحرم وحمل الناس على التقيد بها .
 لبيان المائز بين قيام المسلمين بأداء حج بيت الله الحرام بلباس التقوى وبين تقلب الذين كفروا في البلاد برداء الجحود والعناد ، وإشاعة المعاصي .
 فكان العرب قبل البعثة لا يلتقون إلى دخول وقت صلاة الظهر مثلاً عند زوال الشمس عن كبد السماء ، فأول ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من العبادات هي الصلاة ، قال تعالى ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢) ، بصيغة الأمر الذي يتضمن الوجوب العيني ، ونزل تأكيد إرادة أجيال الأمة في إقامة الصلاة بقوله تعالى ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٣).

ليان أن الصلاة ميراث الأنبياء ، وصبغة الإيمان المتوارثة ، يتقلب بها المؤمنون في الأرض فيكون في قلوبهم وأسفارهم أجر عظيم .
 ومن خصائص أداء المسلم للفرائض العبادية أنه يقرب الناس للإيمان ، ويهذب الأخلاق ، ويصلح المجتمعات ، ويمنع من سيادة مفاهيم الكفر والضلالة .

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة الإسراء ٧٨.

(٣) سورة النساء ١٠٣.

قانون الكفر طارد للنعم

قد يتساءل المؤمن عن إجتماع الضدين عند الذين كفروا وهما :
الأول : الكفر .

الثاني : نعمة القلب في البلاد ومقدماتها وما يترشح عنها من الخيرات ،
فنزلت آية البحث لبيان أن هذا القلب استدراج للذين كفروا ، وسرعان ما
يزول .

وقد جعله الله عند قريش ليؤمنوا برسالة نبوة محمد صلى الله عليه وآله
وسلم كما في سورة قريش ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾^(١) وتتجلى عبادتهم
بالتصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتيان الفرائض
العبادية التي جاء بها ، والإمتناع عن النهي أفراد الواردة في القرآن والسنة ،
ولكنهم اتخذوا من الأصنام شركاء لله عز وجل ، وحاربوا النبي محمداً
بالقول والسلاح والمال ، وسخروا نعمة القلب في البلاد لقتاله وأصحابه
لتغزوهم الحسرة والندامة في الدنيا وتصاحبهم في الآخرة ، كما في قوله تعالى
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْتَفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنتَفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٢).

وقد تقدم في باب الإعراب واللغة أن لفظ (البلاد) جمع بلد ، ترى لماذا
لم تقل الآية (تقلبهم في الأرض) الجواب يدل ذكر البلاد على تعدد
الأمصار التي يدخلها الذين كفروا واختلاطهم بالناس ، كما في قريش
وتنقلها بين البلدان للتجارة والشراء والبيع ، إذ يصغى لهم الناس لما لهم من
جاء ، ولاكتسابهم ثقة الناس في التجارة ، وقضاء الديون ، بينما المسلمون
في حال ضعف واستضعاف ، وقلة موارد ، ومن كان له ملك ومال في مكة

(١) سورة قريش ٣.

(٢) سورة الأنفال ٣٦.

استولى عليه رجالات قريش ، حتى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند فتح مكة نصبت له خيمة بجوار البيت .
وعن أسامة بن زيد (قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً في دارك بمكة ، فقال : وهل ترك لنا عقيل من رباع)^(١).

علم المناسبة

ورد ذكر الذين كفروا في القرآن بصيغ متعددة منها:

الأول : الكافرون .

الثاني : الكفار .

الثالث : الذين كفروا .

الرابع : الكافر بلحاظ اسم الجنس ، والذي ورد مرتين في القرآن ، قال تعالى ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٢) إذ يفيد لفظ ﴿الْكَافِرُ﴾ هنا الإستغراق ، والألف واللام للتعريف وكل كافر هو ظهير ومعين للشيطان والكافرين الآخرين بالعداوة لله ورسله لبيان أن علة سوء عاقبة الذين كفروا لا تختص باختيارهم الضلالة والكفر إنما لعداوتهم لله والرسول .
(عن ابن عباس في قوله ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾^(٣) يعني أبا الحكم : الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا جهل بن هشام)^(٤).

وموضوع الآية أعم ويشمل الذين كفروا في كل زمان بلحاظ صيغة الجمع الواردة في الآية خاصة وأن سورة آل عمران مدنية .

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٩/٥ .

(٢) سورة الفرقان ٥٥ .

(٣) سورة الفرقان ٥٥ .

(٤) الدر المنثور ٣٦٣/٧ .

كما نزل القرآن بوصف الكافرين بالعمي والصم ، قال تعالى ﴿صُمُّكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(١).

وقد ورد لفظ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في القرآن سبعا وخمسين مرة ، وورد لفظ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ سبعا وعشرين مرة لتدل هذه الكثرة على ذم الذين كفروا وبيان قبح اختيارهم ، وسوء عاقبتهم ، وتحذير المسلمين منهم كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾^(٢) ، ليكون النهي عن الإفتتان بالذين كفروا مقدمة لإمتناع المسلمين عن إتخاذ الكافرين أولياء . إذ أن آية البحث حرز من الإفتتان بالذين كفروا ، وباعث للنفرة منهم ، وإدراك لقانون النعم عند الكافرين استدراج ووبال عليهم .

وقد ورد النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٣) في القرآن مرة واحدة في إنذار الكفار من يوم القيامة ، فعندما يساقون إلى النار لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يقبل منهم عذر لتأكيد قانون وجوب المبادرة إلى التوبة .

وجاء بعد هذه الآية مباشرة النداء للمسلمين والمسلمات بالتوبة النصوح رجاء رحمة الله ودخول الجنان بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ١٨.

(٢) سورة النساء ١٤٤.

(٣) سورة التحريم ٧.

(٤) سورة التحريم ٨.

وقد ورد نداء الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تسعا وثمانين مرة في إكرام المسلمين وبعثهم للتقيد بأحكام الشريعة وسنن التقوى ، والإمتناع عن ارتكاب المعاصي^(١).

بحث بلاغي

قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) لبيان فضل الله عز وجل على الناس في هدايتهم للغة التخاطب ، وجعل ألفاظ مخصوصة أزاء معاني معينة ، بحيث يتبادر إلى ذهن السامع المقصود من الكلام حالما يسمعه ، والتبادر من علامات الحقيقة ، فلا ينتقل إلى المجاز إلا مع القرينة الصارفة ، ويكون بيان المتكلم لمقاصده على وجوه :

الأول : الإيجاز وهو إرادة كثرة المعاني بقلّة من الألفاظ مع وفائها بالمقصود والإفصاح عنه ، وإنتفاء اللبس فيه ، ومنه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) ، ومنه ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَمْشِي بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾^(٤).

ومن إعجاز القرآن لغة الإعجاز فيه ، وتجلي معانيها وإمكان استنباط العلماء والمحققين لمعاني مستحدثة لها في كل زمان ومكان لإفادة قانون الآية

(١) وقد صدرت الأجزاء ١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠ - من هذا السفر

بخصوص تفسير نداء الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والحمد لله .

(٢) سورة البقرة ٣١.

(٣) سورة النحل ٨٩.

(٤) سورة طه ١٨.

القرآنية غضة طرية إلى يوم القيامة ، ومن أسباب حلاوة الشعر العربي الإيجاز .

الثاني : الإطناب مصدر أطنب في كلامه إطناباً إذا استمر فيه لبيان المعنى ، ومنه سمي جبل الخيمة طنباً لطوله ، والإطناب زيادة البيان على قدر المعنى لفائدة في سياق الكلام والحال والإطناب في الكلام نقيض الإيجاز ، ومن الإطناب تفصيل الكلام ، وليس إجماله ، وإذا كان الإطناب بدون فائدة فهو حشو وتطويل .

وإذا اقتضى الحال الإطناب يكون الإيجاز مغللاً ، وكذا العكس لقانون لكل مقام مقال ، ومن الإطناب في القرآن قصص الأنبياء ، ومنها قصة يوسف عليه السلام التي اختصت بها سورة كاملة هي سورة يوسف .

الثالث : التساوي بين الألفاظ ومعانيها وفق المتعارف لعامة الناس ، أي أنها ليست من أقسام البلاغة ، وهي واسطة بين الإيجاز والإطناب .

ومن إعجاز القرآن ورود الإيجاز والإطناب الحسن فيه وتفسير آيات القرآن بعضها لبعض .

وأيهما أكثر في القرآن الإيجاز أم الإطناب ، الجواب هو الأول ، لذا فإن كلماته المحدودة تحيط باللامحدود من الوقائع والأحداث .

والإيجاز في آية البحث من جهات :

الأولى : قلة كلمات الآية مع تعدد معانيها .

الثانية : إرادة الصحابة وأجيال المسلمين في خطاب الآية ، وقد نزل القرآن بلغة إياك أعني واسمعي يا جارة .

الثالثة : تضمن الآية الكشف عن كيفية نفسانية للدلالة على أن الله يعلم ما في القلوب ، وهذا العلم خاص بالله عز وجل الذي ﴿أَخَاطَبُ كُلَّ شَيْءٍ عُلْمًا﴾^(١) .

الرابعة : بعث النفرة في النفوس من الكفر ، وإن صاحبتة النعم والزهد والجاه .

الخامسة : ذم الذين كفروا .

التفسير بالتقدير

وهو على وجوه :

الأول : يا أيها النبي ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد ، إذ يرد الخطاب من الله في القرآن إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويراد الأمة ، وهذا العموم هو الأصل إلا إذا ورد دليل على التعيين وإرادة خصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٢) .

الثالث : يا أيها الناس لا يغرنكم ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ .

لتكون آية البحث إنذاراً للكافرين أيضاً بعضهم من بعض ، وتنبهاً لهم لسوء عاقبة تقلبهم وتنقلهم في البلاد بصفة الكفر ، ولقانون الإقامة على الجحود بلاء وضرر .

الرابع : ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فالفتح قريب .

وليس بين نزول آية البحث وبين فتح مكة إلا بضع سنوات إذ أن آية البحث مدنية ، وتم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة .

الخامس : ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله والنبوة والتنزيل في البلاد .

السادس : ﴿لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في البلدان والأمصار المختلفة .

(١) سورة آل عمران ١٩٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٨ .

إذ ورد لفظ (البلاد) في آية البحث والمراد اسم جنس ، ونزلت سورة قريش لتوثق هذا المعنى بتقل كفار قريش بين الشام واليمن وفارس تنقلاً نافعا في الدنيا بكثرة التجارات والأموال .

السابع : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ لقانون محو الكفر لنعمة التنقل في البلاد ، قال تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١)(٢) .

والمراد من قوله تعالى ﴿يُمَحِّصُ﴾ التطهير من الذنوب ، والتخلص من درن الكفر ومفاهيم الشرك والنفاق ، ومن معانيه بلحاظ آية البحث تنزيه المسلمين والمسلمات عن الإفتتان بسطوة وجاه الذين كفروا وكثرة أموالهم .

الثامن : يا أيها الرسول ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فأمر المسلمين بعدم الاغترار بهم ، وذكرهم بآيات الله ، ولزوم التحلي بالصبر .

التاسع : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فانه إلى زوال .

العاشر : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣) .

الحادي عشر : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فستضيّق ﴿عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ (٤) .

(١) سورة آل عمران ١٤١ .

(٢) أنظر الجزء الثالث عشر بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٣) سورة الأعراف ١٢٨ .

(٤) سورة التوبة ١١٨ .

الثاني عشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١) ﴿لَا يَغْرَبَكْ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

الثالث عشر: ﴿لَا يَغْرَبَكْ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ إنما المدار على الإيمان وعمل الصالحات .

الرابع عشر: ﴿لَا يَغْرَبَكْ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فان مرجعهم إلى الله .

الخامس عشر: قانون ﴿ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ استدراج لهم .
السادس عشر: قانون في الإمتناع عن الاغترار بثقل الذين كفروا أجر عظيم .

السابع عشر: لا يغرنك الذين كفروا فان ذات الدنيا متاع قليل ، وان ﴿الْآخِرَةُ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(٢) .

الثامن عشر: يا أيها الذين آمنوا لا يغرنكم رجوع الذين كفروا من سفرهم بالتجارة والبضائع والأموال .
التاسع عشر: يا أيها الناس الإيمان حاجة للناس عند الثقل في البلاد .

قانون الثقل في البلاد

لقد تفضل الله عز وجل وجعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) ، والمراد من الأرض في الآية أعلاه للعهد وهي أيضاً اسم جنس ليشمل إباحة تصرف الناس في مشارق ومغارب الأرض ، بما فيه الرزق الحلال ، وعمارتها بذكر

(١) سورة آل عمران ٢٠٠ .

(٢) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

الله والصلاة ، لذا احتج الملائكة ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

إن وجود الفاسد والمعتدي بين الناس لا يمنع من صحة خلافة الناس فيها ، وبديع صنع الله فيها ، وتحلية الخلافة بذكر المؤمنين لله عز وجل في كل يوم وتزيينها عند الملائكة وسكان السموات بالصلاة خمس مرات في اليوم ، ومنها الوقوف بخشوع وخضوع بين يدي الله ، والركوع والسجود لاستدامة الخلافة ، والرزق الذي يصاحبها حين هبوط آدم وحواء إلى الأرض ، ووراثتهما الصلاة والصيام والحج لذريتهما .

و(قال ابن عباس : لم يمت آدم عليه السلام حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، ورأى آدم عليه السلام فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد)^(٢). أقول : لقد رأى في أولاده الصليبين قتل قابيل لأخيه هابيل مع قلة النسل آنذاك ، وخشية آدم وحواء من إنقراضه ، وهذه الخشية عند الإنسان فطرية لتعاهد واستدامة نعمة الخلافة على جنس الإنسان إلى يوم ينفخ في الصور حيث تنقطع الخلافة قهراً على الناس لشيوع المعاصي عندهم ، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣) ، وهي من رشحات قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤).

فلا بد أن يعمر الإنسان الأرض بالتناسل والتكاثر والإنتشار والتنقل فيها بسنن التقوى ، لذا فإن من منافع النهي في آية البحث ﴿لَا يَغْرِبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٥) إرادة استدامة الحياة

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٦٤/٥.

(٣) سورة النحل ١١٨.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

(٥) سورة آل عمران ١٩٦.

الإنسانية وخلافة الإنسان في الأرض بالتقوى والتنقل في البلاد برداء الإيمان ، فاتخذ الذين كفروا هذه النعمة لنشر مفاهيم الضلالة ، وإشاعة المعصية ، وتكذيب الأنبياء والإستهزاء بالصالحين ، ثم تمادت قريش واتخذوا من الثقلب في الأمصار وسيلة للإفتراء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سخرُوا أموال وإبل التجارة لمحاربتة في معركة بدر ، وأحد ، وحنين ، وغيرها ، فرماهم الله بالوهن وتعطيل التجارة والخسارة .

فصاروا بين أمرين ، أما دخول الإسلام وهو الحق ، أو سلب الثقلب منهم وملاحقتهم وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وتسمى هذه الآية آية السيف ، ولم يرد لفظ السيف في القرآن كما أن موضوعها لا ينحصر بالسيف والقتل إنما يشمل الفداء والطلب والحصار والتضييق لنجاة الناس من مكرهم وفتنتهم إلى أن يتوبوا بدخول الإسلام وإقامة الصلاة ، وهو من مصاديق ما ورد في الآية التالية بأن هذا الثقلب ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾^(٢).

ومن مصاديق المتاع القليل وقلة أيام ثقلب الذين كفروا في البلاد قوله تعالى في الآية التالية ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ وجوه :

الأول : متاع قليل وأيام معدودة .

الثاني : متاع قليل لقانون عدم استدامة ثقلب الذين كفروا في البلاد .

(١) سورة التوبة ٥.

(٢) سورة آل عمران ١٩٧.

الثالث : متاع قليل لقانون استئصال الكفر .

الرابع : متاع قليل لفتح مكة ودخول الناس في الإسلام أفواجاً ، قال

تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾^(١).

الخامس : متاع قليل سرعان ما يزول .

السادس : متاع قليل زائف يتعقبه العقاب والعذاب الأليم في الآخرة ،

قال تعالى ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٢).

السابع : متاع قليل يشغل الكفار عن قتال النبي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم وإن قاتلوه فهم ضعفاء .

الثامن : متاع قليل ثم يكون الثقل في البلاد للمؤمنين

بصفة الإيمان ، مع تعظيم شعائر الله ، وأسباب الصلاح والتقوى .

التاسع : متاع قليل زائل لأن الذين كفروا لم يقابلوه بالشكر لله عز

وجل .

العاشر : متاع قليل فلا يغرنك ثقلهم في البلاد .

الحادي عشر : متاع قليل ، وكل ما هو آت قريب ، وعن الإمام

الصادق عليه السلام (قال : إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى بن مريم عليه السلام: يا عيسى ما أكرمت خليفة بمثل ديني، ولا أنعمت عليها بمثل رحمتي، اغسل بالماء منك ما ظهر، وداو بالحسنات ما بطن، فإنك إلي راجع، فشمركل ما هو آت قريب، وأسمعني منك صوتاً حزينا)^(٣).

(١) سورة النصر ١-٣ .

(٢) سورة النحل ١١٧ .

(٣) البحار ٣١٩/١٤ .

بين القسم واليمين

هما مما إذا اجتماعا افترقا وإذا افترقا اجتماعا ، ومن المترادف اللفظي أي دلالة أكثر من لفظ على معنى واحد مثل المفردات للعسل فيسمى الشهد ، الرحيق ، الورس ، والضريب .

وأسماء السيف مثل الصارم ، والحسام ، والصمصامة والصقيل وغيرها ، نعم لكل اسم دلالة لنوع خاص منها.

وورد التخصيص بين القسم والحلف في القرآن إذ ورد القسم ثمانين مرات في القرآن بما يفيد القطع والجزم والتنجز منها قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾^(١) ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٢).

أما الحلف فمعناه العهد ، وورد الحلف في القرآن في مسألة حنث اليمين ، وفي ذم المنافقين الذين يحلفون كذبا وزورا ، فورد لفظ يحلفون في القرآن عشر مرات كلها بذات المعنى ، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٣).

وقد أقسم الله عز وجل بأنه قادر على أن يمنع الكفار من التقلب في البلاد وأن يهلكهم ويأتي بخير منهم ، قال تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ﴾^(٤).

وفي الآية أعلاه إنذار للذين كفروا بأن يأخذهم الله عز وجل بغتة أو على نحو التدريج من غير أن يضروا إلا أنفسهم ، ويأتي الله عز وجل بمؤمنين يعمرن الأرض بذكر الله عز وجل ، ويتلقون القسم الإلهي في

(١) سورة الواقعة ٧٥-٧٦.

(٢) سورة البلد ١.

(٣) سورة المجادلة ١٨.

(٤) سورة المعارج ٤٠-٤١.

الكتب السماوية بالتصديق والقبول والرضا وطاعة الله عز وجل واجتناب معصيته .

ومن أسباب ذم الذين كفروا إعراضهم عن القسم الإلهي ، وعدم تقيدهم بالإيمان والعهد التي يقطعونها لها وراء الدنيا .

قانون الوعد الإلهي

لقد تفضل الله عز وجل وجعل الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء واختبار ، لبيان قانون الجزاء على التوفيق والنجاح في الإختبار ، وليس من حصر لمصاديق هذا الجزاء إذ يتجلى بالأمن وتوالي النعم في الدنيا ، ثم اللبث الدائم في جنات الخلد والنعيم ، وخيبة وخسارة الذي يفشل في الإختبار باختياره الكفر والمعصية ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْجِيهٌ لَهُمْ﴾^(١).

وتتضمن آية البحث تتضمن الإخبار عن الإمتحان والإختبار في القلب في البلاد ، وكيف أن الكفار يتخذونه للهو واللعب والإقامة على الجحود وسفر المعصية ، ومحاربة النبوة والتنزيل.

ليكون من مفاهيم الآية دعوة المسلمين للسعي في سبل الإيمان واجتياز إختبارات الدنيا ، التي هي يومية متجددة ، نعم هي من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، وقد لاقى الأنبياء وأصحابهم أشد الأذى ، وتدل عليه الآية السابقة ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٢).

(١) سورة محمد ١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

والتي تتضمن الجزاء والوعد الإلهي بالإقامة الدائمة في جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله عز وجل ، كما تدل عليه الأحاديث النبوية الكثيرة ، والثواب العظيم عما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه من الأذى من الذين كفروا .

ترى ما هي النسبة بين آية السياق ﴿وَأَنَّا مَا وَعَدْنَاهُ عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(١) ، وبين الوعد بالجنة ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فما ورد في آية السياق أعم فيشمل الوعد في الدنيا والآخرة ، وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢) .

وهل الوعد بدخول الجنة هو ذاته وعد بالنجاة مطلقاً من النار ، الجواب لا ، فقد يدخل الإنسان النار ثم يخرج بفضل الله عز وجل منها ويدخل الجنة ، فمن الوعد الإلهي دخول المؤمنين الذين يعملون الصالحات الجنة من غير أن تمسهم النار .

لذا ورد قبل أربع آيات قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾^{(٣)(٤)} ، ويبين قوله تعالى ﴿فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾^{(٥)(٦)} ، على أن السلامة من دخول النار نعمة ووعد إلهي قائم بذاته.

(١) سورة آل عمران ١٩٤.

(٢) سورة البقرة ٢٠١.

(٣) سورة آل عمران ١٩٢.

(٤) أنظر الجزء الخمسين بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة.

(٥) سورة آل عمران ١٨٥.

(٦) أنظر الجزء التاسع بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة.

و(عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه)^(١).
والفوز الأمن والنجاة والغبطة والسعادة

النجاة من عذاب القبر في البرزخ

قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران)^(٢).

ترى لماذا جاء قوله تعالى ﴿مَا وَعَدْنَاهُ عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(٣) ، بصيغة الإجمال التي يدل عليها الاسم الموصول (ما) الجواب لكثرة أفراد ومصاديق الوعد الإلهي وعجز الناس عن العلم والإحاطة بها ، ويمكن إحصاء الوعود الإلهية من جهات :

الأولى : الوعود الإلهية الواردة في القرآن ، منطوقاً ، ومفهوماً بالتدبر في آيات وسور القرآن ، آية آية ابتداءً من البسملة في سورة الفاتحة التي تخبر فيها الأسماء الحسنى الثلاثة (الله ، الرحمن ، الرحيم) عن سعة رحمة الله وعفوه وكثرة الإفاضات في النشأتين ، ثم آيات سورة الفاتحة الأخرى ، وهكذا إلى آخر آية في القرآن ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٤).

الثانية : الوعد الإلهي في التوراة والإنجيل ، والوحي للأنبياء السابقين الذي أخبر به القرآن ، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سنته القولية .

(١) الدر المنثور ٩/٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥/٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٤ .

(٤) سورة الناس ٦ .

الثالثة : الوعد الإلهي الذي يأتي بالحديث القدسي وعموم الوحي الذي يخبر عنه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَىٰ * إِنَّمَا وَحْيٌ مُّوحًّى﴾^(١).

فمثلاً من الحديث القدسي ما ورد (عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى إن ربكم رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرة إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت واحدة أو يحاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك الحميد المجيد)^(٢).

ومنه ما ورد عن كعب بن عجرة قال (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن سبعة نفر : أربعة من موالينا وثلاثة من عربنا ، مسندين ظهورنا إلى مسجده ، فقال : ما أجلسكم ، قلنا : جلسنا ننتظر الصلاة .

قال : فأرم^(٣) قليلاً ، ثم أقبل علينا ، فقال : هل تدرون ما يقول ربكم . قلنا : لا . قال : فإن ربكم يقول : من صلى الصلاة لوقتها ، وحافظ عليها ، ولم يضيعها استخفافاً بحقها ، فله علي عهد أن أدخله الجنة ، ومن لم يصلها لوقتها ، ولم يحافظ عليها ، وضيعها استخفافاً بحقها ، فلا عهد له علي ، إن شئت عذبتة ، وإن شئت غفرت له)^(٤).

ومن الوعد الإلهي فوز المؤمن بحب الله عز وجل إذ ورد في السنة النبوية (عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المقة من الله ، والصيت في السماء ، فإذا أحب الله عبداً قال : يا جبريل ، إن ربكم

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) النسائي / السنن الكبرى ٣٩٦/٤ .

(٣) فأرم : أي فسكت .

(٤) الطبراني / المعجم الأوسط ٤٧٧/١٠ .

يحب فلانا ، فأجبه . قال : فينادي جبريل ، فينزل له المقة على أهل الأرض^(١).

قانون إعجاز نظم الآيات

من مصاديق الإعجاز التوقيف في ترتيب ونظم آيات القرآن والجمع أو التعدد والتباين الموضوعي بين الآيتين المتجاورتين ، والمسائل المستنبطة من الصلة بين الآيات المتجاورة .

وتفضل الله عز وجل عليّ بإفراد باب (في سياق الآيات) في تفسير كل آية من آيات القرآن ابتداء من البسملة في سورة الفاتحة إلى الآية التي يختص بتفسيرها هذا الجزء من معالم الإيمان وهي السادسة والتسعون بعد المائة من سورة آل عمران ليكون نواة لمنهاج العلماء في الأجيال اللاحقة لتأليف آلاف المجلدات في هذه العلم باشتراك ذوي الاختصاص في العلوم المختلفة في بيان وجوه الصلة بين كل آية قرآنية مع كل آية من آيات القرآن .

فتأخذ مثلاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ويجمع العلماء من الإختصاصات المختلفة على صلتها بآية ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣)، وآية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤)، وهكذا بيان صلتها مع كل آية من القرآن إلى آية ﴿مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٥)، وهي آخر آية من نظم القرآن ، لتتجلى آلاف الوجوه الإعجازية للقرآن وتنزيله والشواهد على الإعجاز في نظمه السماوي وسلامته من التحريف والزيادة والنقصان .

(١) الطبراني / المعجم الأوسط ١٤/ ٣٤٨ .

(٢) سورة الفاتحة ٢.

(٣) سورة الفاتحة ٣.

(٤) سورة الفاتحة ٤.

(٥) سورة الناس ٦.

ثم تأخذ آية ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وصلتها مع كل آية من آيات القرآن وهكذا.

وكان جبرئيل يعارض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن ويتدارسه معه كل سنة مرة ، وفي السنة التي انتقل فيها إلى الرفيق الأعلى عارضه جبريل مرتين لتوثيق القرآن وتثبيت كلماته وآياته ونظمه ، وتوثيقه الملكوتي لأجيال المسلمين والمسلمات .

وتتضمن آية البحث حصانة المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا ، وهذه الحصانة مدد وعون للمسلمين في ميادين الصبر على الأذى الذي ذكرته الآية السابقة بقوله تعالى ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾^(١).

ومن إعجاز نظم القرآن ذكره لأذى المسلمين برويتهم حال الغبطة التي عليها الذين كفروا بتقلهم في الأمصار للتجارة والسياحة والجاه فنزلت آية البحث لتبعث في نفوسهم الصبر ، ويكون بذاته سبباً للثواب.

قانون الإستجابة فرع حب الله

الإستجابة فرع حب الله عز وجل ورحمة للعباد ، وإذا أحب الله عبداً استجاب لدعائه ، وهل تختص الإستجابة بمن يحبهم ، المختار موضوع الإستجابة أعم ، وإن كنا نجعل مدى وسعة حب الله ، وهو فرع لطفه تعالى ، وبين اللطف الإلهي والحب من الله عموم وخصوص مطلق ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢). ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة المائدة ١٣.

(٣) سورة البقرة ٢٢٢.

(٤) سورة الصف ٤.

وقد ذكرت الآية السابقة آية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١) المسلمين الذين يقاتلون ويقتلون في سبيله بقوله تعالى ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(٢) على نحو الإطلاق ، وجاء التقييد بالآية أعلاه بأنهم يقاتلون ﴿كَانَ بَيْنَهُمْ بَيِّنَاتٌ مَرْصُوعٌ﴾.

ومن حديث سعد بن أبي وقاص (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبه .

قال : فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنَ وُدًّا﴾^(٣) وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل إني أبغضت فلانا فينادي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض)^(٤).

و(عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة في صدور الصالحين والملائكة المقربين - ثم تلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنَ وُدًّا﴾^(٥)، واختلف فيمن نزلت ف قيل في علي (عليه السلام) .

وروى البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : قل يا علي اللهم اجعل لي عندك عهدا واجعل لي في

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة التوبة ١١١.

(٣) سورة مريم ٩٦.

(٤) تفسير القرطبي ١٤٦/١١ .

(٥) سورة مريم ٩٦.

قلوب المؤمنين مودة ، فنزلت الآية ، ذكره الثعلبي^(١) وموضوع الآية القرآنية أعم من سبب النزول .

ومن أحبه الله عز وجل هداه للدعاء ، وقربه إلى مسأله ومناجاته ، ونزلت آية السياق للبعث على حب الله وإقرار الناس بأن الله عز وجل هو قاضي الحاجات الذي بيده مقاليد الأمور ، وفي التنزيل ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢).

وقد تقدم في الجزء السابق قانون حب الله باعث على العمل الصالح ، وتدل آية البحث في مفهومها على عزوف الذين كفروا عن الدعاء . وهذا العزوف من ظلم النفس ، قال تعالى ﴿ قَلِيلٌ مِّمَّنْ يُؤْمِنُ بِمَا كُذِّبُوا ﴾ وهذا العزوف من ظلم النفس ، قال تعالى ﴿ قَلِيلٌ مِّمَّنْ يُؤْمِنُ بِمَا كُذِّبُوا ﴾^(٣).

الافتتان بالذين كفروا

من خصائص المؤمنين اللجوء إلى الله عز وجل ، والإستجارة من فتنه الذين كفروا ، والاحتراز من مفاهيم الضلالة والجحود بالوحدانية . وفي إبراهيم والذين آمنوا معه ورد قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٤).

وليس من حصر لوجوه الفتنة في المقام منها :

الأول : إيذاء الذين كفروا للمؤمنين .

الثاني : تعرض الذين آمنوا للإفتتان بكثرة أموال المشركين ، وما عندهم من الجاه والسلطان .

(١) تفسير القرطبي ١١/١٤٦.

(٢) سورة يس ٨٢.

(٣) سورة النمل ٥٢.

(٤) سورة الممتحنة ٥.

الثالث : تحريض الذين كفروا بعضهم بعضاً على الذين آمنوا .
الرابع : حمل المؤمنين والمؤمنات على الهجرة كما في هجرة إبراهيم عليه السلام وهجرة لوط ، ورد في التنزيل ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) ، وكما في هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة .

الخامس : قيام الذين كفروا باخراج المؤمنين من ديارهم ويدل عليه ما ورد في الآية السابقة ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٢) .

هجرة إبراهيم (ع)

ولد إبراهيم في مدينة أور السومرية التي لا تزال آثارها قائمة إلى هذا الزمان ، والتي تبعد عن مركز محافظة ذي قار نحو (١٥) كم .
 ومن آثار مدينة أور الزقورة وهي كلمة أكديّة معناها المكان المرتفع وهي صرح مدرج بضبط ودقة وبهاء ، قيل بناها الملك (أور نحو) من سلالة أور الثالثة نحو (٢١٠٠) قبل الميلاد وعمر المدينة سابق لبناء الزقورة وهي أقدم من أهرامات مصر وأهرام المكسيك وقيل انشئت أور بحدود (4500) ق.م .
 ومن آثار مدينة أور الظاهرة الآن بيت النبي إبراهيم عليه السلام ولد قرابة سنة ١٩٠٠ ق.م والمقبرة الملكية ، ومعبد دب لال ماخ وقيل هو أول دار عدالة في التاريخ ولكن عدم الإيجاد لا يدل على عدم الوجود ، وبيت الشاعرة النخيدوانا (٢٢٨٦-٢٢٥١) ق.م ، ولغة أهل سومر هي السومرية ، وهم أهل حضارة وعمران ، وامتدت أراضيهم جنوباً لتشمل جزيرة دلمون (البحرين حالياً) وحضارتهم أقدم من البابليين .

(١) سورة العنكبوت ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

نعم هاجر إبراهيم إلى بابل والتي في أرض العراق أيضاً ومعلمها الأثرية قائمة إلى الآن ، وهي من المدن القليلة التي ورد ذكرها في القرآن ، إذ ذكرت فيه مرة واحدة بقوله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾^(١) ، وكان فيها الطاغوت نمرود الذي ادعى الربوبية.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال (ملك الارض كلها أربعة: مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان فسلیمان بن داود وذو القرنين ، والكافران نمرود وبخت نصر ، واسم ذو القرنين عبد الله بن ضحاك بن معد)^(٢).

وبين القرآن جهاد إبراهيم وبصيفة الإحتجاج والبرهان ، وإحاطته بالسلامة بمعجزة من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وذكر أن إبراهيم عليه السلام هاجر إلى مصر ، وكان حاكمها طاغية متجبراً ، إذا سمع بامرأة جميلة طلبها لنفسه فإذا كانت متزوجة قتل زوجها ، ليختص بها .

وقبل الدخول إلى مصر أخبر إبراهيم سارة بأمر هذا الطاغوت ، وطلب منها إذا سألتها الملك عن صلتها بإبراهيم أن تقول هو أخي ، وأراد أنه أخوها في الإسلام .

واخفى إبراهيم عليه السلام سارة عند دخوله مصر ولكن العشار اكتشف الأمر فأرأوا امرأة جميلة ، فأخبروا الملك بأن امرأة جميلة دخلت مصر ومعها رجل ، فأرسل جنوده ليحضروها .

(١) سورة البقرة ١٠٢.

(٢) البحار ٣٦/١٢.

(٣) سورة البقرة ٢٥٨.

و(عن أبي سعيد ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يأتي الناس إبراهيم فيقولون له : اشفع لنا إلى ربك . فيقول : إني كذبت ثلاث كذبات . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما منها كذبة إلا ما حل بها عن دين الله ، قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(١) وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾^(٢) وقوله لسارة إنها أختي)^(٣).

والمراد من الكذب التعريض والتورية وإن كان بصيغة الكذب ، وفيه نجاة لإبراهيم ، وإقامة الحجة على الملك الظالم والملا الذين حوله .
والتعريض ضد التصريح ، ويحتمل التعريض وجهين أو أكثر ، ويكون قصد المتكلم منه غير الوجه الذي يظنه السامع ، وفي المثل (إن في المعاريض لندوحة عن الكذب).

والنسبة بين التورية والتعريض عموم وخصوص مطلق ، فالتورية أعم ويسمى المعنى الذي لم يقصده المتكلم المورى به ، أما المعنى المورى عنه فهو المعنى البعيد الذي يقصده المتكلم .

وفي الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك قال أختي).

قال فأرسل بها قال فأرسل بها إليه وقال لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك.

فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت توضأ وتصلي وتقول اللهم ان كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي الا على زوجي فلا تسلط علي الكافر قال فغط حتى ركض برجله)^(٤).

(١) سورة الصافات ٨٩.

(٢) سورة الأنبياء ٦٣.

(٣) الدر المنثور ٧٠/٧.

(٤) البداية والنهاية ١٥١/١ .

وبثت سارة حزنها وخوفها إلى الله عز وجل بأن هذا الطاغية إذا مات يقولون أنها السبب في قتله وينعتونها بالساحرة فيقتلونها ، فقام ثم مدّ يده لها فشل الله عز وجل يده ولم يستطع تحريكها ، فاصابه الفزع والرعب وكان إبراهيم ساعته منقطعاً إلى الدعاء .

وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْمِنُ الظَّالِمِينَ﴾^(١).
أم أن الآية أعلاه خاصة بمعركة أحد وهي سبب النزول ومعارك الإسلام الأولى ، الجواب هو الأول لأصالة الإطلاق ، فان قلت وردت الآية أعلاه بصيغة المضارع ﴿سَنُلْقِي﴾.

والجواب اثبات شئ لشئ لا يدل على نفيه عن غيره ، بالإضافة إلى وحدة الموضوع من جهات :

الأولى : قانون الملازمة بين الكفر والرعب .

الثانية : قانون القبح الذاتي للشرك وترتب البلاء عليه في الدنيا ، والتقاء الملك الذي أراد الإعتداء على إبراهيم وأهله مع كفار قريش بالشرك بالله .

الثالثة : قانون سوء عاقبة الظالمين ، قال تعالى ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

وإبراهيم هو الذي رفع لواء التوحيد وكسر الأصنام التي يعبد نمروذ وقومه ، فجمعوا له الخطب وجعلوه وسطه وأشعلوا فيه النار وانقذه الله بأية من عنده ، قال تعالى ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٣).

ألا يواجه الملك الظالم ، ويمنعه من زوجته ، وهو يعلم أن الله عز وجل ناصره .

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة البقرة ٢٥٤.

(٣) سورة إبراهيم ٦٩.

وإذا صحت تفاصيل الخبر أعلاه عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا بد من التصديق والتسليم بها ، لبيان ظهور المعجزة الغريبة لإبراهيم عليه السلام بواسطة زوجته سارة ، ولما رأى الملك الظالم المعجزة وعجزه عن إيصال يده إليها ، أهدى لها هاجر جارية .
(وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام والذي عليه الجمهور أنهن صديقات)^(١).

وتدل آيات القرآن على حصر النبوة بالرجال من البشر ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

قانون الإيمان يظهر حسنه الضد

الإيمان هو اعتقاد بالجنان بالله عز وجل رباً وبالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً ، ونطق باللسان بالشهادتين وعمل بالجوارح والأركان في طاعة الله عز وجل بأداء الفرائض العبادية ، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٣).

فالإيمان حاضر بالقلب والنية وعالم الفعل في الأحكام التكليفية الخمسة.

(وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإيمان بضع وسبعون باباً ، أدناها إمطة الأذى عن الطريق ، وأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله)^(٤).
ليبان مراتب الإيمان والإرتقاء في سلم التقوى بالإجتهد في طاعة الله ، واستحضار قصد القربة في الأعمال ، وأن الإيمان من الكلي المشكك الذي

(١) البداية والنهاية ١٥٢/١ .

(٢) سورة النحل ٤٣ .

(٣) سورة الحجرات ٧ .

(٤) الثعلبي / الكشف والبيان ٧٠/١ .

يكون على مراتب متفاوتة ، والنسبة بين الإسلام والإيمان عموم وخصوص مطلق ، فالإيمان أخص .

وقد أخبر الله عز وجل بالأجر والثواب على الإيمان بشعبه المتعددة سواء الاعتقاد بالقلب أو النطق بالشهادتين ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو بالعمل كأداء الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وسائر العمل الصالح واتبان الخيرات ، واجتناب المعصية وارتكاب السيئات ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(١).

وهل حفظ الإيمان من عند الله وعدم ضياعه خاص بالآخرة ، الجواب لا ، إنما يحضر حفظ الله عز وجل للإيمان في الحياة الدنيا بمنافع وفيض على المؤمنين مجتمعين ومتفرقين في الحياة الدنيا أيضاً وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢).

فصحيح أن هذه الآية وردت في سورة يوسف إلا أنها أعم موضوعاً وحكماً ، والله عز وجل يحفظ الإنسان بذاته ، ويحفظ إيمانه ويحول دون افتتانه بالذين كفروا ، ومنه التحذير والتنبيه والإنذار في آية البحث ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾^(٣) ثقل الذين كفروا في البلاد^(٤).

ليبان الحسن الذاتي للإيمان ومن مصاديقه بعث النفرة في النفوس من الكفر ومفاهيم الضلالة ، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ١٤٣.

(٢) سورة يوسف ٦٤.

(٣) سورة آل عمران ١٩٦.

(٤) سورة الحجرات ٧.

والإيمان نعمة عظيمة ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١) ، ومن الشواهد على الحسن الذاتي والغيري للإيمان أن الكافر يتمنى أن يكون مؤمناً ، وإصابة الذي يفعل الفاحشة بالندامة والحسرة عند ارتكابها وما بعدها ، بينما يبعث أداء الفعل العبادي الطمأنينة في النفس ، ليدل قوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢) على أن الذكر عبادة ، والسعة في فضل الله لاكتناز الصالحات حتى عندما يخلو الإنسان مع نفسه أو لا يكون عنده ما يفعله من الصالحات كالصدقة ، فان ذكر الله عز وجل باللسان والتسبيح وتلاوة القرآن حسن ذاتاً وثبات على الإيمان ، وفيه شاهد على حب العبد لله عز وجل ورجاء الفوز بحب الله عز وجل بالصبر في ميادين الطاعة وحسن التوكل عليه تعالى ، قال سبحانه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) .

والصبر والتوكل على الله واقية من الاغترار بالذين كفروا وزينة الدنيا التي تحيط بهم .

وكل من الصبر في طاعة الله ، والتوكل عليه سبحانه شعبة من الإيمان وباعث للبهجة والرضا في النفس .

رؤيا الملوك إنذار

رأى فرعون في منامه كأن ناراً قد اقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فاحرقتها واحرقت القبط وتركت بني اسرائيل .
فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فاخبرهم ، فقالوا له :
يبعث نبي في بني اسرائيل ويخرجك وقومك من ارضك ويبدل دينك وقد اظلك زمانه الذي يولد فيه فامر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني اسرائيل .

(١) سورة فصلت ٣٥ .

(٢) سورة الرعد ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٦ .

وقد يقول قائل بان هذه الرؤيا سببت ابتلاء واذى على بني اسرائيل وهدد النبوة وشخص النبي موسى عليه السلام في أيامه الأولى، والجواب: انها آية من عند الله تعالى، وكان جحود فرعون وقومه بالرؤيا وما فيها من البشارة سبباً لتعجيل العذاب لهم وهلاكهم في البحر .
في آية لم تشهد الدنيا مثلها من الاستئصال الجماعي العاجل بمعجزة مع بقاء النبي في مأمن منذ ولادته .

فلما ولد موسى اضطربت نفس امه لان فرعون نشر عيونيه في المدينة يتفحصون الاطفال ويبحثون عن المواليد من الذكور. وكان من قصة موسى ان ترعرع في بيت فرعون نفسه اذ شاء الله ان يحفظه لأداء الرسالة.
ثم ان فرعون رأى آية اخرى ولكن في اليقظة الى جانب ما رآه في منامه، رأى هزيمة السحرة امام ما اتى الله موسى من معجرات يوم الزينة .
ثم ازداد تمادياً في غيه وعلوه في الارض بغير الحق وابى ان يستجيب لصوت الانذارات المنبعثة من كنوز الرؤيا واحكامها .

وقد روي عن ابن عباس (لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله، ولكنه أبى، للشقاء الذي كتبه الله عليه)^(١).
اما نمروذ بن كتعان بن كوش فقد كان جباراً مستبداً في الملك رؤيا نمروذ في بابل لم يتورع عن ادعاء الربوبية، فلما نازع الله في سلطانه تعرض لسلسلة من انواع الابتلاء والوعيد والانذار والتحذير.

كان اولها ان رأى في منامه كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً.
وفي رواية السدي انه دعا السحرة الكهنة والقافة وهم الذين يخطون في الارض ويمشون فسألهم عن ذلك .

(١) تفسير البغوي ١٩٣/٦ .

فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك اهل بيتك على يديه، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك الناحية سنتها وكان من قصة ابراهيم المولود في تلك السنة ان جعل الله عليه حجباً للنجاة. ان نبأ رؤيا ثمود وفرعون موسى وما اعقبهما من نتائج وخيمة وعقاب شديد لهما انما هو دليل استنباطي قاطع بان لإعراض عن رؤيا الانذارات وتجاهلها مدخل اختياري للهلاك والابتلاء وجلب الأذى والشر .

ويتعزز هذا القول منا بدراسة مقارنة بين ما آل اليه أمر فرعون و ثمود وملكهما وبين النتائج الحميدة التي افرزتها استجابة ملك مصر وفرعون يوسف في تلقي الانذارات والاذعان ليوسف النبي في تأويله وتخويله صلاحيات ادارة شؤون الاقتصاد في البلاد، حيث كانت تلك الرؤيا وكجزء من اعجاز القرآن مدرسة في التخطيط والتدبير والعمل الدؤوب ومنهاجاً في التصنيف الوزاري وتوضيحاً وتنظيماً لأعمالها.

لقد ذكرت آية البحث الذين كفروا بالذم وبمحودهم نعمة القلب والأسفار بين البلدان واتخاذها وسيلة لمحاربة النبوة والتنزيل .

فهل رأى الذين كفروا من قريش رؤى إنذار تزجرهم عن محاربة النبي محمد ، الجواب نعم .

ومن رؤيا الإنذار لقريش رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب التي رأتها قبل قدوم ضمضم بن عمرو الغفاري بثلاثة أيام صريحاً مرسلأ من أبي سفيان رئيس قافلة قريش بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يريدون الإستيلاء عليها وهي رؤيا إنذار لعامة أهل مكة وقد تقدم ذكرها .

و(عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت في المنام كأن أبا جهل أتاني فبايعني ، فلما أسلم خالد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد صدق الله رؤياك يا رسول الله هذا كان إسلام خالد فقال : ليكونن غيره حتى أسلم عكرمة بن أبي جهل فكان ذلك تصديق رؤياه)^(١).

(١) الخصائص الكبرى ٥٣/٢.

قانون التضاد بين الإيمان والكفر

تبين آية البحث التباين والتضاد بين المسلمين والذين كفروا ، إذ جعل الله عز وجل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فصلاً بين الفريقين ، لذا قال المشركون أن النبي محمداً يفرق بين الأخ وأخيه ، والأب وابنه ، بسبب اختيار الإيمان وصيرورة الفرقة بالإيمان .

فجاءت آية البحث لتعزيب الذين آمنوا بصرف أنظارهم عنها ، ولا يقدر على هذا الصرف إلا الله عز وجل فتفضل بآية واحدة من بضع كلمات ، وهي آية البحث لعصمة المسلمين من الإفتتان بما عند الذين كفروا من متاع الحياة الدنيا ، ومباهجها والأموال الطائلة والجاه العريض ، لتكون هذه العصمة على وجوه :

الأول : إنها مقدمة لألفة الذين آمنوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : فيها بعث للسكينة في نفوس المسلمين .

الثالث : قد يكون الاغترار بالذين كفروا مقدمة لذييب الشك في نفس المسلم ، والتساؤل الإستفهامي لماذا تكون الدنيا منقادة لهم ، فنزلت آية البحث لتنمية ملكة الصبر في نفوس المسلمين ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

من خصائص القرآن التفسير الذاتي وأن بعضه يفسر بعضاً ، ومن خصائصه بيان التضاد من وجوه :

الأول : بيان قانون التضاد بين الإيمان والكفر .

الثاني : قانون التضاد بين الشكر لله والجحود .

الثالث : قانون ترتب الثواب على الإيمان ، وقانون ترتب العقاب على الكفر.

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

الرابع : نزول آية في الثناء على المؤمنين كما في آية السياق ، ونزول آية في ذم الذين كفروا كما في آية البحث.

ومن مصاديق ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(١) إخبار كل نبي وكل رسول بالعالم الآخر عالم الحساب والجزاء لذا فان المعاد من أصول الدين عند كل المسلمين ، ويتجلى التضاد فيه بين المؤمنين والكافرين بوضوح ، لتكون آيات القرآن موعظة ووسيلة سماوية مباركة لإيقاظ الناس ، وجذبهم إلى شاطئ الأمان في الآخرة .

ويتكرر قوله تعالى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في القرآن بخصوص المؤمنين الذين يعملون الصالحات لترغيب الناس جميعاً بالإيمان ، وترك التقلب في البلاد بصفات الكفر والجحود ، واتخاذ نوع طريق لمحاربة الإسلام ، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

ومن معاني التضاد المستقرأ من الجمع بين آية البحث وآية السياق تنمية ملكة التوكل على الله عند المسلمين وفيها عصمة من الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد ، وكثرة أموالهم ، لدلالة هذا التقلب على السعة في الرزق وكثرة المكاسب .

و(عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سافروا تصحوا وتغنموا)^(٣).

ليبان نتيجة التضاد بين الإيمان والكفر بصيرورة المؤمنين هم الذين يسافرون ويهاجرون ويدعون إلى الله عز وجل ، مع انحسار سطوة الذي لم

(١) سورة آل عمران ١٩٤.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) الدر المنثور ٤٨/٨ .

يُخْتَرُ التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ قَالَ تَعَالَى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

من الذين عذبتهم قريش

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً بالرسالة وأنزل عليه القرآن وأمره بتبليغ الناس أحكام الشريعة ، فبدأ معها الصراع بين الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، وازدادت حدته بالتناسب الطردي مع بزوغ شمس الإسلام بقيام مشرقي قريش بمحاربته جهاراً ، وفرض الحصار الإقتصادي والاجتماعي على بني هاشم ، وإيذاء الصحابة الأوائل خاصة المستضعفين منهم الذين لا تحميهم عشائر ، ومنهم :

الأول إلى الرابع : عمار بن ياسر العنسي وأبوه وأمه وأخوه عبد الله بن ياسر.

وقتل أبو جهل أمه سمية بنت خباط تحت التعذيب ، وعن محمد بن عمار (أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم . بخير ، ثم تركوه فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : شر ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال : كيف تجد قلبك؟ قال : مطمئن بالإيمان)^(٢).

(ومات ياسر وابنه عبد الله بمكة مسلمين وكانوا كلهم ممن عذب في الله تعالى)^(٣).

الخامس : بلال بن رباح الحبشي ، وكان أبوه من سبي الحبشة.

السادس : خباب بن الأثر التميمي .

السابع : صهيب بن سنان الرومي ، ولم يكن رومياً ، إنما نسب إليهم ، لأنه كان أحمر اللون .

(١) سورة الجمعة ١٠.

(٢) الدر المنثور ١٧٣/٦ .

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣٠٧/١ .

وقد عذبتة قريش عذاباً شديداً ، ولما أراد الهجرة منعه قريش ، فافتدى بماله كله فتركوه .

الثامن : عامر بن فهيرة ، وهو مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي الذي هو أخو عائشة لأمها أم رومان .

وهو من المسلمين الأوائل ، أسلم قبل دخول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دار الأرقم ، وقامت قريش بتعذيبه للرجوع عن دينه فأبى ، واشترأه أبو بكر واعتقه ، وكان يرعى غنم أبي بكر ، وهاجر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبى بكر إلى المدينة ، وكان الدليل الليثي عبد الله بن الأريقط ، وورد ذكرهما عند مرور النبي صلى الله عليه وآله وسلم على خيمة أم معبد الخزاعية^(١).

وشهد عامر بن فهيرة بداراً ، وأحداً ، واستشهد يوم بئر معونة قتله جبار بن سلمى الذي أسلم فيما بعد .

وكان (يقول ما دعاني إلى الإسلام إلا أنني طعنت رجلاً منهم فسمعتة يقول فزت والله فقلت في نفسي ما فاز أليس قد قتلته حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا الشهادة فقلت فاز لعمر الله)^(٢).

والذي قال فزت والله عندما طعن يومئذ هو عامر بن فهيرة ، ولم توجد جثته مع القتلى ، وقيل دفنته الملائكة .

التاسع : أبو فكيهة واسمه يسار وهو مولى صفوان بن أمية بن خلف ، أسلم مع بلال ، وكان يعذب ليرتد عن الإسلام فيمتنع ، قال ابن إسحاق والطبري (فأخذه أمية فربطه في رجله ، وأمر به فجز ، ثم ألقاه في الرمضاء ، ومَرَّ به جَعَل ، فقال: أليس هذا ربك .

فقال : الله ربي وربك. فخنقه خنقاً شديداً ، ومعه أخوه أبي بن خلف ، يقول: زده عذاباً. فلم يزالوا كذلك حتى ظنوه قد مات ، فمر به أبو بكر

(١) أنظر الإستيعاب في معرفة الأصحاب ١٣٧/٢.

(٢) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٦٨/١ .

فاشتراه فأعتقه ، وقيل : إن بني عبد الدار كانوا يعذبونه ، وكان مولى لهم فعذبوه حتى دَلَع لسانه ، ولم يرجع عن دينه وهاجر ، ومات قبل بدر^(١) .
 (قال ابن إسحاق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس يجلس إليه المستضعفون من أصحابه : حباب وعمار وأبو فكيهة يسار . مولى صفوان بن أمية)^(٢) .

من المسلمات الأوائل

من النساء اللاتي عذبتهن قريش بسبب إسلامهن :
الأولى : زينة : وهي مولاة لبني عبد الدار ، وقيل هي رومية ، وكان أبو جهل يعذبها (فلما أسلمت عميت فقال المشركون : أعمتها اللات والعزى لكفرها باللات والعزى . فرد الله عليها بصرها)^(٣) .
 (وأخرج الواقدي من حديث حسان بن ثابت قال : حججت والنبى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الإسلام وأصحابه يعذبون فوقفت على عمرو يعذب جارية بني عمرو بن المؤمل ثم يثب على زينة فيفعل بها ذلك)^(٤) .

الثانية : أم عبيس : كانت فتاة لبني تميم بن مرة ، وهي من المسلمين الأوائل ، واستضعفها المشركون ، وعذبوها ، وكُنيت بابنها عبيس بن كُريز .
الثالثة : حمامة أم بلال : كانت تعذب في الله .

الرابعة : النهديّة وبنّتها : وكانت لبني عبد الدار (بعثتهما سيدتهما تطحنان لها فسمعها وهى تقول لهما : والله لا أعتقكما أبدا . فقال أبو بكر : حل يا أم فلان . فقالت : حل أنت أفسدتهما فأعتقهما .

(١) ابن الأثير / أسد الغابة ١٢٩/٣ .

(٢) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٢/٢ .

(٣) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٩٧/٢ .

(٤) الاصابة في معرفة الصحابة ٤٩٣/٣ .

قال : فبكم هما ، قالت : بكذا وكذا.
 قال : قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها.
 قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها.
 قال : أو ذلك إن شئتما^(١).

الخامسة : جارية بني المؤمل .

السادسة : سمية بنت خباط أم عمار بن ياسر ، قتلها أبو جهل تحت التعذيب ، وهي أول شهيد في الإسلام .

ولا يختص تعذيب قريش للمسلمين بالمستضعفين منهم ، بل حبسوا عدداً من أبناء البيوتات وعذبوهم ، كما فرضوا حصاراً على بني هاشم استمر ثلاث سنين من الأول من محرم من السنة السابعة للهجرة ، وآذوا النبي محمداً بشخصه وبدنه.

وأرادوا قتله وتفضل الله عز وجل وأمره بالهجرة إلى المدينة (يثرب) في ذات الليلة التي احاطوا بيته للإجهاز عليه ، عند السحر ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾^(٢).

وكان كل من يدخل الإسلام يتعرض للأذى والتوبيخ والتبكيك من رؤساء قريش ويشكونه إلى أبيه ، ويأمرونه بحبسه وحمله على الرجوع عن دينه ، حتى رجع بعضهم وخرج مع المشركين في معركة بدر ومنهم من انحاز إلى جانب المسلمين في المعركة.

(وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ الْفَاسِقُ الَّذِي يُغَرِّي بِهِمْ فِي رَجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، إِذَا سَمِعَ بِالرَّجُلِ قَدْ أَسْلَمَ ، لَهُ شَرَفٌ وَمَنْعَةٌ أَنْبَهُ وَأَخْزَاهُ.

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٤٩٣/١ .

(٢) سورة الأنفال ٣٠ .

وَقَالَ تَرَكْتُ دِينَ أَبِيكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، لَنْسَفَهَنَّ حَلْمَكَ ، وَلَنْفِيلَنَّ رَأْيَكَ ، وَلَنْضَعَنَّ شَرْفَكَ ؛ وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا قَالَ وَاللَّهِ لَنْكَسِدَنَّ تِجَارَتَكَ وَلَنْهْلِكَنَّ مَالَكَ ؛ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرْبَهُ وَأَغْرَى بِهِ^(١).

عجز المشركين عن التقلب في البلاد

من مصاديق قوله تعالى في الآية السابقة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(٢)، ابتلاء الذين كفروا بالعجز عن التقلب في البلاد ولم تمر الأيام والليالي حتى تم فتح مكة ، وأصبح الذين كفروا في خوف وذعر ، وعاجزين عن التنقل في البلاد ، ومنهم قبيلة هوازن.

فقبل أن يتم فتح مكة كان رؤساء هوازن ولمدة سنة قبل معركة حنين يمشون في العرب يجمعون الرجال لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن صلح الحديبية لم يشملهم ، وأدركوا صيرورة هذا الصلح قوة وعزاً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ودخول الإسلام في قبيلتهم ورفع الأذان فيها .

والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مشغولون بأداء الفرائض العبادية ، ولم يستعدوا لهوازن وقتالها توكلاً على الله عز وجل ولانقطاعاً إلى الدعاء مع عدم الإفتتان بتقلبهم في البلاد الذي تذكره هذه الآية الكريمة ، ومنها سيرهم في القبائل يحرضون على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وبلغ هوازن وقبائل العرب فتح النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مكة ، والذي صاحبه دخول طوائف من الناس في الإسلام ، وإدراك عامة الناس بأن فتح مكة معجزة جليلة ، وآية تدل على صدق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فبعد تعدد هجوم قريش على المدينة وشدة القتال في معركة بدر وأحد ، والأحزاب ، يتم فتح مكة سلماً من غير قتال يعتد به .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٣٢٠/١ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

ولقد زحفت قريش بعشرة آلاف مقاتل في معركة الأحزاب في شهر شوال من السنة الخامسة قال تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾^(١).

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنها تبعث الخوف والرجاء عند الذي يتدبر في مضامينها من أجيال المسلمين ، وكأنه حاضر في المدينة عند زحف وحصار الأحزاب لهم .

إذ جاءت قريش وأسد وغطفان فخندق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه وبعد ثلاث سنوات زحف النبي محمد بعشرة آلاف لفتح مكة ، وتم بفضل وآية من عند الله .

فاعلنت هوازن وثقيف النفير (قال أئمة المغازي : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة مشت أشراف هوازن، وثقيف بعضها إلى بعض، وأشفقوا أن يغزوهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقالوا: قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا، والرأي أن نغزوه، فحشدوا وبغوا وقالوا: والله إن محمدا لاقى قوما لا يحسنون القتال فاجمعوا أمركم، فسيروا في الناس وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم .

فاجمعت هوازن أمرها، وجمعها مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة النصرى بالصاد المهملة - وأسلم بعد ذلك، وهو - يوم حنين - ابن ثلاثين سنة .

فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ونصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، وهم قليل.

قال محمد بن عمر: لا يبلغون مائة، ولم يشهدا من قيس عيلان - أي بالعين المهملة - إلا هؤلاء، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب، مشى

فيها ابن أبي براء فنهاها عن الحضور وقال: والله لو ناوأوا محمدا من بين المشرق والمغرب لظهر عليهم^(١).

واستقبلوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في عودتهم من مكة وباغتهم بالهجوم كما يأتي ان شاء الله في ذكر معركة حنين في جزء من الأجزاء الخاصة بقانون (لم يغز النبي محمد (ص) أحدا).
وقد صدرت والحمد لله في هذا الباب الأجزاء)

١٦٩-١٦٨-١٦٦-١٦٥-١٦٤

١٧٦-١٧٤-١٧٢-١٧١-١٧٠-

١٨٢-١٨١-١٨٠-١٧٨-١٧٧-

١٩٦-١٩٤-١٩٣-١٨٧-١٨٣-

٢٢٩-٢٢١-٢١٦-٢١٢-٢٠٤-

-٢٣٩-٢٥٦-٢٦١) من هذا السفر (معالم الإيمان).

وانهزمت يوم حنين هوازن وثقيف ومن معهم بآية من عند الله بجنود وملائكة من الله ، وسكينة بعثها الله في نفوس الصحابة ، فلم يتكرر الانسحاب أو الفشل الذي حدث في معركة أحد ، وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوكُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٣١٠/٥ .

(٢) سورة الأحزاب ٢٥-٢٦.

ومن جزاء الكافرين في المقام عجزهم عن التنقل والتقلب في البلاد الذي تذكره آية البحث إذ أصبح رجال ثقيف يخشون الخروج من الطائف فيأخذهم المسلمون وصاروا يخافون أن يتخطفوا خارجها .

قدوم وفد ثقيف إلى المدينة

لقد قدم أحد عشر رجلاً من أشراف ثقيف إلى المدينة في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة بعد عودة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من كتيبة تبوك ليدخلوا الإسلام.

وعلمهم المغيرة بن شعبة كيفية السلام على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتحية الإسلام (السلام عليكم).

ولكنهم أبوا إلا بتحية الجاهلية (فإنهم قالوا: أنعم صباحاً ودخلوا المسجد فقال الناس: يا رسول الله، يدخلون المسجد وهم مشركون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الأرض لا ينجسها شيء ، وقال المغيرة بن شعبة: يا رسول الله، أنزل قومي علي ، وأكرمهم، فإني حديث الجرم فيهم. فقال: لا آمنك أن تكرم قومك.

وكان جرم المغيرة أنه خرج في ستة رجال (من بني مالك إلى مصر تجاراً، حتى إذا كانوا ببزاق عدا عليهم، فذبحهم، واستاق العير، وأسلم)^(١)، فقدموا على المقوقس فحيا بني مالك وجفاه وهو من الأحلاف، وكان معه رجلان الشريد ودمون؛ فلما كانوا بسباق وضعوا شرباً لهم فسقاهم المغيرة بيده، فجعل يخفف عن نفسه وينزع لبني مالك حتى ثملوا وناموا، فلما ناموا وثب إليهم ليقتلهم، فشرد الشريد منهم ليلتئذ؛ وفرق دمون أن يكون هذا سكرأ منه فتغيب، فجعل يصيح: يا دمون يا دمون فلا دمون.

فجعل ييكي، وخاف أن يكون قتله بعضهم، فطلع دمون فقال: أين كنت .

(١) سيرة اعلام النبلاء ٢٦/٣ .

قال: تغيت حين رأيته صنعت ببني مالك ما صنعت، فخشيت أن يكون ذلك ذهاب عقل، قال: إنما صنعت ذلك بهم لما حياهم المقوقس وجفاني.

ثم أقبل بأموالهم حتى أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره الخبر.

فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أخمس هذه الأموال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لسنا نغدر، ولا ينبغي لنا الغدر، فأبى أن يخمس أموالهم^(١).

وعندما قدم وفد ثقيف (على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون فكان خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اكتتبوا كتابهم وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده)^(٢).

وفد ثقيف في المسجد النبوي

ترى لماذا ضرب عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبة في ناحية المسجد، الجواب من وجوه:

الأول: ليروا صلاة الجماعة بامامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحال الخشوع والخضوع لله التي عليها هو وأصحابه.

الثاني: بيان حقيقة وهي أن النبي محمداً لم يطلب الحكم والسلطان والمال.

الثالث: سماع وفد ثقيف تلاوة القرآن في الصلاة وخارجها.

الرابع: قانون طاعة المهاجرين والأنصار لله والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه الطاعة التي كانت تفرع الكافرين.

(١) مغازي الواقدي ٣٨٧/١.

(٢) ابن هشام / السيرة النبوية ٥٣٨/٢.

وهل هي من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْمِنُ الظَّالِمِينَ﴾^(١)،
الجواب نعم ، لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

الخامس : سماع وقد ثقيف خطب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر ، وإنصات المسلمين له .

السادس : فتح صفحة من الجدال والاحتجاج بين الصحابة ووفد ثقيف .

السابع : رؤية وفد ثقيف المعجزات الحسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وموضوعية نزول القرآن ونفعها في صلاح المجتمع وكيف أن المسلمين يبادرون للعمل بأحكام الآيات حال نزولها.

الثامن : إكرام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للوفود التي تقدم إلى المدينة ولينهزموا من صدورهم الغل والحسد .

التاسع : إحاطة أعضاء الوفود بالمعجزات الحسية والعقلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

العاشر : إدراك قانون حلاوة الإيمان وحسنه الذاتي ، وبعث النفرة في نفوسهم من الكفر ومفاهيم الضلالة ، قال تعالى ﴿وَزَيَّنُّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(٣).

الحادي عشر : رؤية خلق النبوة ، وعدم غلو المسلمين بشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقف معهم بين يدي الله عز وجل قائماً

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة المدثر ٣١.

(٣) سورة الحجرات ٧.

وراكعاً وساجداً ، وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَنَنْكَرُ لَكُمْ رُبِّي فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

الثاني عشر : إدراك رجالات قريش لضلالتهم وحمقهم في هجومهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة حنين .

الثالث عشر : بيان قانون الإسلام سلم مقرون بالصلاح .

لقد خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف في السنة العاشرة للبعثة بعد وفاة عمه وكافله أبي طالب وإزدياد أذى قريش له ، فقابلها أهلها بالإعراض والتبكي وتحرير صبيانهم وسفهاهم عليه حتى صاروا يرمونه بالحجارة فادموا قدميه .

ليقدموا إلى المدينة في السنة التاسعة للهجرة ويدخلوا الإسلام بعد أن سألوا النبي محمداً عدة مسائل ذات صبغة الشرك والضلالة فأبى عليهم . وسألوه أن يترك لهم طاغيتهم اللات ، وأن يترك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هدمها فأبى عليهم ، وطلبوا إمهالهم شهراً واحداً فلم يمهلهم .

وطلبوا إعفاءهم من الصلاة فاجابهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقانون إذ قال (لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ فَسَنُوتِيكَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ دَنَاءَةً)^(٢).

يريدون ما في السجود من التطامن ورفع العجيزة.

لتصبح ثقيف بدخول الإسلام يتقبلون في البلاد بلباس الإيمان من غير خوف وخشية من أحد ، وعلى نحو مستديم وليس ﴿مَاعُ قَلِيلٌ﴾^(٣) كما ذكرته الآية التالية .

(١) سورة الكهف ١١٠.

(٢) الروض الأنف ٣١٢/٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٧.

إخراج المؤمنين نفع عام

لقد ذكرت الآية السابقة حال الأذى الشديد الذي لحق المؤمنين ، إذ يدل قوله تعالى ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(١) على تمتع الذين كفروا بالسلطة والشأن ، وإكراه المؤمنين على الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة يثرب ، وعلى الهجرة داخل مكة أيضاً ، وخروج عدد من الصحابة إلى أطرافها ، وهو من مصاديق تسمية مكة أم القرى بقوله تعالى ﴿وَلَنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٢).

لقد صار هذا الإخراج نفعاً عاماً بصبر وجهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من جهات :

الأولى : أداء المهاجرين الفرائض العبادية بمندوحة من غير خوف ، وكان بعض الصحابة في مكة يخرجون لأوديتها بعيداً عن الأنظار ليؤدوا الصلاة ، ويتدارسوا آيات وسور القرآن ، وعلمت بهم قريش وأزداد أذاها لهم ، فصارت الهجرة القهرية مناسبة لتعظيم شعائر الله بعيداً عن أعين الظالمين الذي يلحقهم الإثم بسبب إخراج المؤمنين من ديارهم وحملهم على الهجرة ، أي أن نعمة ومنافع الهجرة للمؤمنين لا تمنع من لحوق الإثم ونزول البلاء بالذين كفروا .

الثانية : نزول المهاجرين على الأنصار زيادة في إيمان الفريقين ، ومنه قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمؤاخاة بينهم في آية تزيج الفوارق في النسب وحمية الجاهلية والتباين في المنزلة الإجتماعية ، وفيها دعوة للأنصار لحسن إيواء إخوانهم من المهاجرين ، وفيه قطع وانتفاء لشعورهم بالغربة في المدينة بعد مغادرة مرابض الصبا بمواساة الأنصار لهم

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة الأنعام ٩٢.

في المأكل والملبس والمسكن ، وإيثارهم على أنفسهم مع النصيحة والصحبة والمحبة والتزاور.

وقد اثنى الله عز وجل على الأنصار بقوله تعالى ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾^(١) ، فليس عندهم حسد للمهاجرين في سبقهم للإسلام وتقديمهم في آيات القرآن بقوله تعالى ﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الذي ورد مرتين في القرآن قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(٢).

ومنها الثناء على المهاجرين في آيات ، ومنه الآية السابقة في قوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(٣) ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين أصحابه في مكة قبل الهجرة ثم كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة بعد قدومه إليها بخمسة أشهر بين تسعين من الصحابة لتكون نواة المؤاخاة بين الآخرين منهم .

ويكون من الإعجاز الغيري في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن المهاجر إلى المدينة يجد له إخوة بعد أن يصل إليها ، ولا يضر في هذه المعجزة بقاء عدد منهم في الصُفة وهي سقيفة بجوار المسجد النبوي برهة من الزمن ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين عدد من الصحابة مرة أخرى .



(١) سورة الحشر ٩.

(٢) سورة التوبة ١٠٠.

(٣) سورة آل عمران ١٩٥.

هل تنال الشفاعة منكراً

قال تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١)، وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية (فقال : إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)^(٢).

ليبان أن الذنوب على قسمين :

الأول : كبائر الذنوب من الإشراك بالله ، وترك الصلاة ، وترك الزكاة ، وقتل النفس التي حرم الله ، وعقوق الوالدين ، والزنا ، والسحر ، والربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، واليمين لجعل الباطل حقاً وبالعكس ، والتي سميت بالغموس لأنها تغمس صاحبها في النار .

الثاني : صفائر الذنوب ، ومنها الحسد ، والسب ، والشتيم ، والغيبة ، وإيذاء الجار ، والغضب بالباطل .

و(عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه)^(٣).

وهل يمكن القول بقانون كل ذنب وفعل منهى عنه في القرآن هو من الكبائر ، الجواب لا ، إلا مع الإصرار في الصفائر .

وأكثر الخوارج والمعتزلة انكروا الشفاعة ، مع ما ورد بخصوصها من الآيات والأحاديث النبوية ، وأحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وأخبار الصحابة وعليها الإجماع ومن قبل أن يكون هناك معتزلة وخوارج .

(١) سورة الأنبياء ٢٨ .

(٢) الدر المنثور ٥٦/٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٧ .

وعلى إنكارهم للشفاعة أخذهم لآيات من القرآن على الظاهر من غير الجمع بينها وبين آيات القرآن الأخرى ، منها قوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(١) ، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾^(٢) ، ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾^(٣).

والقدر المتيقن من هذه الآيات نفي الشفاعة عن المشركين والكفار الذين يعبدون الأصنام وكل نبي وشهيد له شفاعة وكذا الصالحين وقول بأن الشفاعة حق للمتقين ، وليس للعاصين .

(وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ليس مني من استخف بصلاته ، ولا يرد علي الحوض لا والله ، ليس مني من شرب مسكرا لا يرد علي الحوض لا والله .

وقال الصادق عليه السلام : إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة)^(٤).

ويشفع الملائكة ، والنبيون ، والمؤمنون ، قال تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يُأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٥) ويشفع القرآن لتأليه والعامل بأحكامه ، وتشفع الصلاة والصيام ، (عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، قال : فيشفعان)^(٦).

(١) سورة المدثر ٤٨.

(٢) سورة الشعراء ١٠٠.

(٣) سورة البقرة ٢٥٤.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٣٢/١٣.

(٥) سورة النجم ٢٦.

(٦) الدر المنثور ١/٩٥.

وعن (أنس : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ألا إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، ثم تلا هذه الآية { إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم . . . } (١) الآية (٢)).

وهل تشمل شفاعته النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلم الذ ينكر الشفاعة أو يتبع الذي ينكرها ، الجواب نعم إذ أذن الله .
والشفاعة نعمة عظمى يوم القيامة والتصديق بها باعث للعمل الصالح في الدنيا لأنها فرع الإقرار بالمعاد وعالم الحساب .

قانون حرمان الذين كفروا من الشفاعة

لقد ذكرت آية السياق الرسل الذين بعثهم الله عز وجل للناس للتبليغ والدعوة إلى التوحيد والصلاح ، وجعلهم الله وسائط رحمته وجاهدوا في سبيل الله عز وجل وصبروا على الأذى الذي لاقوه ، وأبلغوا المؤمنين عن عود الله عز وجل للمؤمنين ، ليفوز الرسل بالشفاعة يوم القيامة لأصحابهم وأنصارهم وأتباعهم .

و(عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَّةُ الصِّرَاطِ تَقَادَعُ الْفِرَاشِ فِي النَّارِ قَالَ فَيُنْجِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ .

قَالَ ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ وَزَادَ عَفَّانُ مَرَّةً فَقَالَ أَيْضًا وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيْمَانٍ (٣)).

ليبان وجه من وجوه التباين بين المؤمنين والذين كفروا يوم القيامة بحرمان الذين كفروا من الشفاعة لأنهم امتنعوا عن الإستجابة إلى دعوة

(١) سورة النساء ٣١.

(٢) سورة .

(٣) مسند أحمد ٤١/٤٠٣ .

الرسل في الدنيا ، وانشغلوا بالتنقل في البلاد طلباً للملذات والسعي في الباطل.

وقد يدخل الذي يقول بالتوحيد النار لكثرة معاصيه ، فتدركه رحمة الله عز وجل ، وينجو من حرها ومن صحبة الذين كفروا فيها ، (وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم).

فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قول لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ، فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة ، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين^(١).

شروط الشفاعة

من شروط الشفاعة في الآخرة أمور :

الأول : أهلية الشفيع في الدنيا للشفاعة وإنعدام المانع عند المشفوع له مثل الشرك ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٢).

ونزلت آية البحث إنذاراً للذين كفروا من صيرورة تقلبهم في البلاد مانعاً من نيلهم الشفاعة يوم القيامة سواء لموتهم على الكفر أو لإيذائهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

كما أنها تبعث في نفوسهم الشوق للفوز بالشفاعة يوم القيامة التي تنال بالإسلام والتوبة ، ونبذ مفاهيم الشرك والضلالة .

الثاني : الإذن من الله عز وجل للشفيع سواء الشفاعة العامة أو الخاصة ، قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ

(١) الدر المنثور ٨١/٦ .

(٢) سورة النساء ١١٣.

الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿١﴾ ، فلا بد أن تكون الشفاعة شهادة بالحق ، قال تعالى ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

الثالث : استحقاق المشفوع له للشفاعة بقانون عام وهو التوحيد ، والحيشية الخاصة في أفعال العبد وبيئته وأحواله .

ليان قانون وهو من خصائص نعت الذين كفروا حرمانهم من الشفاعة ومن مصاديق كفرهم هو إنكار الشفاعة التي هي فرع التصديق باليوم الآخر ، وعالم الحساب .

الرابع : قصد الشفيع للمشفوع له جملة بلحاظ العمل أو على نحو قضية عين ، كشفاعة الرجل لأهل بيته وجيرانه .

الخامس : رضا الله عن الشفيع ، وإذن الله له بالشفاعة .

بحث كلامي

صفات الله كالعلم والقدرة المطلقة والرحمة ، وليس لوجود هذه الصفات إلا وجود الذات الإلهية لأن واجب الوجود بسيط ، ومشهور المسلمين هو أن الصفات كالعلم والقدرة والرحمة ليست عين ذاته إنما هي قدر زائد على ما يفهم من الذات المجردة .

فاذا قيل سميع أي أنه ذات متصفة بالسمع ، وإذا قلت أنه عليم فالمراد ذات متصفة بالسمع أي التمييز بين مفهوم الذات والصفة ، فالله موصوف بالصفات وليس هي هو .

ونفى المعتزلة تعدد الصفات ، فالله عالم بعلم هو ذاته ، فجمعوا بين الذات وصفة العلم .

(١) سورة النبأ ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف ٨٦ .

والخلاف صغروي ، فالإجماع على أن الصفات ليس منفصلة من الذات ، وأن الذات ليست مجردة ، وأوهام البشر عاجزة عن درك حقيقة الربوبية المطلقة ، وليس في القرآن والسنة هل الصفات عين الذات أو أنها غير الذات.

والقول بأن الله عالم بذاته لا يعني ذوبان الصفة بالذات أو نفي الصفة أما القول بأن الله عالم بعلم هو ذاته هو اثبات صفة وهي الذات ، أو قل اجتماع الذات والصفة.

وتتعدد مفاهيمها في الوجود الذهني عند البشر وتشير إلى مصداق واحد وإليه ذهب المعتزلة .

أو القول بأن الصفات ما يقوم بالذات فهي قدر زائد على الذات .
فقول سميع : ذات متصفة بالسمع ، وعليم ذات متصفة بالعلم .
ولا يصح نعت بعضهم قول الآخر بأنه فاسد وباطل ، ولا تصل النوبة إلى هذا الحد ونحوه ، قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَنْفِ﴾^(١).

قانون التخفيف في الأحكام

لقد خاطب الله المسلمين بقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢) ، فصحيح أن هذه الآية وردت بخصوص صيام شهر رمضان إلا أن موضوعها عام شامل لأحكام العبادات والمعاملات ، لبيان وجوه :
الأول : قانون كل آية من القرآن تيسير .

الثاني : قانون السنة النبوية تيسير .

الثالث : اقتباس واستقراء القواعد الفقهية والأصولية التي تتضمن التيسير من القرآن والسنة ، مثل قاعدة نفي الحرج في الدين ، وقاعدة لا ضرر ولا ضرار ، وقاعدة الميسور لا يترك بالمعسور ، وقاعدة الضرورات تبيح المحظورات بقدرها .

(١) سورة الحجرات ١١.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

و(عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)^(١). ومعنى المنبت - بضم الميم - هو الذي انقطع وتخلف عن أصحابه لطول سفره على ظهر دابته التي أعطبها واجهدا الترحال ، وقيل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاله حينما رأى رجلاً اجتهد في العبادة وكثرة النوافل حتى غارت عيناه.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يسروا ولا تعسروا ، وقوله : دين الله يسر وقوله : بعثت بالحنيفية)^(٢).

وعن الصحابي سهل بن حنيف (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تشددوا على أنفسكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدكم على أنفسهم ، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات)^(٣).

وهل الدعاء الوارد في آية السياق من التخفيف عن المسلمين ، الجواب نعم ، لما فيه من تحقيق الرغائب وتنجز الأمناني في الدنيا والآخرة بالتضرع إلى الله عز وجل ، وسؤاله العفو والمغفرة والنصر والغلبة على الذين كفروا ، والسلامة من الإفتتان بهم وبتقلبهم في الأمصار .

وهل قوله تعالى في آية البحث ﴿لَا يَغْرِبُكَ﴾ من التخفيف ، الجواب نعم لبيان تعدد وجوه التخفيف ، فقد يأتي بصيغة النهي عن محاكاة الغير كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤) أو بالنهي عن الالتفات لما عند الذين

(١) الدر المنثور ١/ ٣٨٦ .

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٦٣ .

(٣) الدر المنثور ١/ ٣٨٦ .

(٤) سورة آل عمران ١٥٦ .

كفروا من النعم ، كما في آية البحث وما تدل عليه من امتحان وإستدراج الذين كفروا بما في أيديهم وتسخيرهم لها لمحاربة النبوة والتنزيل . ، قال تعالى ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَعْمُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

أبواب جديدة في تفسير الآية القرآنية

لقد أفردت أبواباً مستقلة في تفسير كل آية بخصوص :
الأول : سياق الآيات وصلة آية البحث بعدد من الآيات المجاورة .
الثاني : إعجاز الآية الذاتي ، ويختص بالمضامين القدسية للآية ، ويختتم بذكر اسم للآية القرآنية محل البحث .
الثالث : إعجاز الآية الغيري في بيان المنافع العامة والخاصة من ذات الآية القرآنية .

الرابع : الآية سلاح .
الخامس : مفهوم الآية الذي يقابل المنطوق .
السادس : إفاضات الآية .
السابع : الآية لطف .
الثامن : الآية بشارة .
التاسع : الآية إنذار .
العاشر : الصلة بين أول وآخر الآية .
الحادي عشر : من غايات الآية .

الثاني عشر : تفسير الآية بالتفريق بين تفسير كلماتها .
هذا إلى جانب البحث البلاغي والكلامي والعرفاني ونحوه ، وعلم المناسبة بخصوص تكرار عدد من كلمات الآية في آيات أخرى ودلالات هذا التكرار بلحاظ التباين في نظم الآية القرآنية .
ويمكن إنشاء أبواب جديدة في تفسير كل آية منها :

الأول : الآية تخفيف ، لبيان دلائل التيسير التخفيف عن المسلمين والمسلمات في آية البحث سواء في منطوقها أو مفهومها .

الثاني : التفسير الذاتي للآية .

الثالث : الرحمة للمسلمين وأهل الكتاب في الآية محل البحث ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) .

الرابع : الآية رحمة للناس جميعاً لبيان معاني وفيوضات الرحمة الإلهية في الآية محل البحث من جهات :

الأولى : الرحمة الإلهية للناس جميعاً في آية البحث .

الثاني : الرحمة الإلهية للمؤمنين في آية البحث .

الثالثة : الرحمة الإلهية للمسلمين والمسلمات في آية البحث .

الثالث : القوانين والمسائل المستقراة من آية البحث .

قانون الملازمة بين الحياة والصبر

الصبر لغة الحبس ، والمنع من الجزع والسخط ، ويتعدد معناه في الإصطلاح منه الإقامة على الإيمان وأداء التكاليف العبادية من غير ملل أو جزع لذا سمي شهر رمضان شهر الصبر والرضا بما قدر الله عز وجل ، وحسن الأدب حين البلاء والمصائب لذا يستحب عندها قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢) .

ومن أهم موارد الصبر الإمتناع عما حرم الله عز وجل .

ومن إعجاز القرآن دعوته المسلمين لاتخاذ الصبر مادة ووسيلة مباركة وسيلاً للنجاة في الشأتين ، قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٣) .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٢) سورة البقرة ١٥٦ .

(٣) سورة البقرة ٤٥ .

ويمكن القول أن أكثر آيات القرآن البالغة (٦٢٣٦) تتضمن الدعوة إلى الصبر في منطوقها أو مفهومها .

وجاءت السنة النبوية بمدرسة رسالية في الصبر سواء في السنة القولية أو السنة الفعلية ، و(عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى امرأة تبكي على صبي لها فقال لها : اتقي الله واصبري .

فقلت : وما تبالي أنت مصيبي؟ فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ، فأخذها مثل الموت ، فأتت بابه فلم تجد عليه بوابين فقلت : لم أعرفك يا رسول الله! فقال : إنما الصبر عند أول صدمة)^(١).

ولا تختص الحاجة إلى الصبر بالمؤمنين والمؤمنات ، إنما هو حاجة لكل إنسان لسنخية أيام الدنيا وكيف أنها دار امتحان وابتلاء ، ولكن الذي يمتاز به المؤمنون هو قانون تلقي مرارة الأذى بحلاوة التسليم والرضا بالمشيئة الإلهية والقدر .

ومنه مضامين آية البحث فيلزم قوله تعالى ﴿يَغُرَّتْكَ قُلُوبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) ، صبر الصحابة وعامة المؤمنين على الفقر والفاقة والضعف وعدم الإتحداغ بزينة الباطل ، وما عند المشركين من مباحج الدنيا . وهل جعل الله عز وجل عند المؤمنين واقية من الاغترار بتقلب وشأن وسلطنة الذين كفروا .

الجواب نعم ، ومنه التمسك بأصول الدين والإقرار بأن مقاليد الأمور بيد الله عز وجل ، والإيمان باليوم الآخر ، والأجر والثواب يومئذ على الصبر في طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، قال تعالى ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٣).

(١) الدر المنثور ١/ ٣١٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

(٣) سورة المؤمنين ١١١ .

النسبة المنطقية بين معركة أحد ومعركة حنين

وهي العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق.

ومادة الإلتقاء من وجوه :

الأول : وقائع كل من معركة أحد ومعركة حنين ذكرت في القرآن وفي معركة أحد ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وبخصوص معركة حنين قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوكُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(٢).

الثاني : نزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في المعركتين.

و(عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين، والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بلقا .

فقال : يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر .

فضرب بيده في صدري ، ثم قال : اللهم اهد شيبة ، ثم ضربها الثانية ، ثم قال : اللهم ، اهد شيبة ، ثم ضربها الثالثة ثم قال : اللهم اهد شيبة.

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

(٢) سورة التوبة ٢٥.

قال : فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إليّ منه ، وذكر تمام الحديث ، في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى هزم الله المشركين^(١).

الثالث : حضور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل من المعركتين ، وهو الإمام والقائد فيهما .

الرابع : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في حال دفاع في كل من المعركتين وتسمى كل من المعركتين غزوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعدان من غزواته في كتب التفسير والسيرة ، ولكن أي منهما ليست غزوة للنبي .

الخامس : عدد جيش المشركين في كل من المعركتين أكثر من عدد الصحابة فيها .

السادس : حضور المهاجرين والأنصار مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل المعركتين .

السابع : سقوط الشهداء في كل من المعركتين .

الثامن : مشاركة عدد من المسلمين في القتال يوم أحد مثل أم عماره نسبية بنت كعب إحدى نساء بني النجار .

معجزات النبي محمد (ص) الذاتية ، ومعجزاته الغيرية

قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ نَوَافِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ١٢٩/٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .

وقد أنعم الله عز وجل علينا بصدور الجزء الرابع والستين بعد المائتين من معالم الإيمان في تفسير القرآن الذي اختص بتفسير هذه الآية المباركة وهي الخامسة والتسعون بعد المائة من سورة آل عمران استقراء وتأويلاً واستنباطاً من ذات مضامين هذه الآية الكريمة.

إذ انشغلت باصدار معراج الأصول الجزء الأول مع تنقيح واضافات ، وقوانين البرزخ جزئين بفيض ولطف من الله عز وجل وهي معروضة و(٢٦٥) جزء من التفسير ورسالتي العملية الحجة خمسة أجزاء والمسجلة بدار الكتب والوثائق في بغداد برقم ٣٤٥ لسنة ٢٠٠١ على موقعنا (www.marjaiaa.com).

وفيه تقسيم إعجاز الآية إلى قسمين :

الأول : الإعجاز الذاتي والإعجاز الغيري .

وأذكر هذا اليوم علماً مستحدثاً وهو شطر معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذاتية التي تجري على يديه منها :

الأولى : تلقيه نزول القرآن ، وانحصار هذا التلقي به وحده من بين الأولين والآخرين .

الثانية : الإسراء والمعراج ، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) ، ليتجلى الإسراء بأول الآية أعلاه ، والمعراج إلى السماء بقوله تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ كما تشمل عجائب ذات الإسراء إذ تقطع المسافة بين المسجدين مسيرة شهر ، بينما قطعها النبي

(١) سورة الإسراء ١.

صلى الله عليه وآله وسلم بدقائق معدودة ، وهي معجزة حسية وثقها وخلدها القرآن بالآية أعلاه .

ومن الآيات رؤيته الأنبياء في الإسراء (حتى وصفهم واحداً واحداً)^(١) لبيان الصلة بين أهل الدنيا وعالم البرزخ .

الثالثة : انشقاق القمر ، قال تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(٢) .

و(عن ابن مسعود قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنى فانشق القمر حتى صار فرقتين ، فتواتر فرقة خلف الجبل فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اشهدوا)^(٣) .

الرابعة : نبع الماء من بين أصابع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الخامسة : تكلم الجمادات والحيوانات معه .

السادسة : إبراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعائه المرض عند بعض الصحابة .

السابعة : إخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن المغيبات .
الثامنة : نصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معارك الإسلام الأولى ببدء (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)^(٤) .

مع قلة أصحابه في الميدان والنقص في أسلحتهم وخيلهم ومؤنهم ، ففي معركة بدر مثلاً كان عدد المشركين تسعمائة وخمسين ، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، بينما كان عدد أصحاب النبي محمد ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وليس معهم إلا فرس واحدة ، وقيل معهم فرسان .

(١) النكت والعيون ٤٠٦/٢ .

(٢) سورة القمر ١ .

(٣) الدر المنثور ٣٣٩/٩ .

(٤) الثعلبي / الكشف والبيان ٣٢/٥ .

ويعتقون سبعين بعيراً (قال ابن إسحاق : وكان معهم فرسان على أحدهما المقداد بن الاسود واسمها بعزجة، ويقال سبحة، وعلى الأخرى الزبير بن العوام واسمها اليعسوب.

وكان معهم لواء يحمله مصعب بن عمير، ورايتان يحمل راية المهاجرين على ابن أبي طالب، والتي للانصار يحملها سعد بن عبادة^(١).

وقيل (كان مع المشركين ستون فرسا وستمائة درع، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرسان^(٢) وستون درعا.

هذا ما كان من أمر هؤلاء في نفيهم من مكة ومسيرهم إلى بدر^(٣). ويدل على الإعجاز في معركة بدر نسبة الله عز وجل النصر له بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤)، فان قلت

القسم الثاني : المعجزات الغيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي تجلت عند غيره من أهل البيت والصحابة وعامة الناس بما يدل على أنه معجزة للنبي ، خارج قانون العلة والمعلول ، والسبب والمسبب .

وكل من المعجزات الذاتية والغيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من اللطف الإلهي لتقريب الناس إلى منازل الهداية والإيمان .

ومن المعجزات الغيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هجرة رهط من الصحابة رجالاً ونساءً إلى الحبشة مع بعد المسافة بين مكة والحبشة وقطع البراري والفلوات^(٥).

فلما اشتد أذى كفار قريش على النبي وأهل بيته وأصحابه أشار على طائفة منهم بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم (لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٥١٠/٢ .

(٢) وردت الرواية مرة مع المسلمين فرس واحدة ومرة فرسان.

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٣٨٧/٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٥) الفلوات : جمع فلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة.

فَإِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا^(١).

والمراد من ملك الحبشة هو النجاشي واسمه أصحمة ، لأن النجاشي اسم الملك كقول : قيصر لملك الروم ، وكسرى لملك فارس .
قال المجلسي (فخرج إليها سرا أحد عشر رجلا، وأربع نسوة، وهم عثمان بن عفان، وامراته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمان بن عوف، وأبو حذيفة بن عتبة ، وامراته سهلة بنت سهيل بن عمرو، ومصعب بن عمير .
وأبو سلمة بن عبد الاسد، وامراته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامراته ليلى بنت أبي خيثمة ، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن بيضاء، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة إلى أرض الحبشة بنصف دينار)^(٢).

القسم الثالث : قد تنزل آية قرآنية أو تحدث واقعة تجمع بين المعجزة الذاتية والمعجزة الغيرية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٣)، إذ نزلت هذه الآية يوم بدر فقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبضة من تراب فرمى بها جيش المشركين (فقال : شأهت الوجوه فانهزموا)^(٤).

ليبان أن المعجزة من عند الله (عن محكول قال : لما كرّ علي وحمزة على شيبة بن ربيعة ، غضب المشركون وقالوا : اثنان بواحد؟! فاشتغل القتال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم إنك أمرتني بالقتال ووعدتني النصر ولا خلف لوعدك .

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٣٢١/١ .

(٢) البحار ٤١٢/١٨ .

(٣) سورة الأنفال ١٧ .

(٤) الدر المنثور ٤٢٩/٤ .

وأخذ قبضة من حصى فرمى بها في وجوههم فانهزموا بإذن الله تعالى ،
فذلك قوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١) ^(٢).

ورمي النبي صلى الله عليه وآله وسلم التراب والحصىات من المعجزات
الذاتية ، أما امتلاء عيون ومناخر المشركين بالتراب من تلك القبضة فهو من
المعجزات الغيرية .

وعلى هذا المنوال يمكن للعلماء دراسة المعجزات الذاتية والغيرية للنبي
صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن والسنة النبوية لتتجلى لهم وللناس آلاف
المعجزات .

ويمكن تقسيم معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقسيماً مستحدثاً
من وجوه :

الأول : تقسيم المعجزات إلى المعجزات الذاتية والغيرية .

الثاني : تقسيمها تقسيماً آخر إلى المعجزات الحسية والعقلية .

الثالث : المعجزات النبوية في آيات القرآن ، والمعجزات في السنة النبوية .

الرابع : معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أيام النبوة .

الخامس : معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته
والتي تجلت في سيرة أهل البيت والصحابة والتابعين وتابعي التابعين
وتتجلى إلى يوم القيامة .

قانون السنة النبوية تخفيف

يحتاج الفقيه إلى معرفة المطلق والمقيد ، ومعرفة العام والخاص من أفراد
علم الأصول لتنزيل الأحكام من أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة
والإجماع ، ولا يمكن ضبطها إلا باتقان فنون اللغة وعلم المنطق ولو على
نحو الإجمال ، وتقييد المطلق في القرآن والسنة تخفيف ورحمة عامة .

(١) سورة الأنفال ١٧.

(٢) الدر المنثور ٤/٤٢٩ .

والعموم يشمل الأفراد دفعة واحدة ، والإطلاق هو اللفظ الدال على الحقيقة ، والشئ غير المعين في جنسه مثل رقبة في قوله تعالى ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾^(١) الفرد الشامل مثل ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢) .

ولا تعارض بين الإطلاق والعموم ، فحكم القطع شامل لكل من سرق النصاب وهو ربع دينار وما زاد ، وتقييد موضع قطع اليد من تقييد الإطلاق.

وقيل يحمل المطلق على المقيد إذا اتفقا في السبب واختلفا في الحكم ، ومنه آية السرقة ، إذ أطلقت القطع باليد ، وأطلقت المسروق بينما قيده الحديث النبوي (لا تقطع يد السارق في أقل من ربع دينار) واستحدث قولاً في المقام وهو إنعدام الاختلاف بين الآية والحديث في المقام .

وقد تفضل الله عز وجل وترك تعيين مقدار المسروق لقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

ليبان اجتماع قانون آيات القرآن تخفيف عن المكلفين ، وقانون السنة النبوية تخفيف آخر بالوحي من عند الله عز وجل .

وعدم قطع اليد فيما هو أقل من ربع دينار ذهب من التخفيف ، لذا ورد (عن محمد مسلم قال: قلت لابي عبد الله عليه السلام: في كم يقطع السارق؟ فقال في ربع دينار، قال: قلت له: في درهمين .

فقال: في ربع دينار بلغ الدينار ما بلغ فقلت له : أرأيت من سرق اقل من ربع دينار هل يقع عليه حين سرق اسم السارق ، وهل هو عند الله سارق في تلك الحال.

(١) سورة النساء ٩٢.

(٢) سورة المائدة ٣٨.

(٣) سورة الحشر ٧.

فقال كل من سرق من مسلم شيئا قد حواه وأحرزه فهو يقع عليه اسم السارق وهو عند الله سارق ولكن لا يقطع إلا في ربع دينار أو أكثر ولو قطعت أيدي السراق فيما هو أقل من ربع دينار لالفيت عامة الناس مقطعين^(١).

وهل تتضمن آية البحث الزجر عن السرقة ، الجواب نعم إذ أنها تمنع من الاغترار بما في أيدي الذين كفروا ، ومقدمات هذا الاغترار ، فلا تشرب أعناق المسلمين والناس إلى مال الذين كفروا لأنه متاع قليل وإلى زوال . والفرق بين العام والمطلق التخصيص والتقييد في الإصطلاح الأصولي وأدلة الأحكام أن العام هو الشامل لجميع الأفراد ، وهو كلام مستغرق لجميع ما يصلح له .

أما المطلق فهو الشامل لجميع الأحوال ، وما هو شائع في جنسه من غير تقييد بوحدة أو أكثر مثل رقبة بقوله تعالى ﴿فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَا﴾^(٢).

ومن المطلق في القرآن استجابة الدعاء بقوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٣) وورد التقييد والاستثناء بقوله تعالى ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٤) وورد في رد الملائكة على أهل النار ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٥).

(١) الكليني / الكافي ٣١٢/٧ .

(٢) سورة المجادلة ٣ .

(٣) سورة غافر ٦٠ .

(٤) سورة الرعد ١٤ .

(٥) سورة غافر ٥٠ .

والعام الإستغراقي الشمولي للأفراد، أما المطلق فهو عموم بدلي أي لا يمنع من وقوع الشركة فيه ، ولكن يحكم فيه على كل فرد على نحو مستقل ، ويفرق بين العام والعموم ، فالعام هو اللفظ المتناول.

من صيغ العموم

ومن صيغ العموم :

الأول : الاسم المعرف بالألف واللام الإستغراقي والذي ليس للحقيقة ولا للعهد بدليل جواز الإستثناء منه كما في لفظ إنسان في قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(١).

الثاني : اسم الجمع المعرف بالألف واللام الدال على جماعة مثل قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَضَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٢) ، فالمطلقات عام في كل مطلقة إلا ما خرج بالتخصيص كما في قوله تعالى ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٣).

الثالثة : الأسماء المبهمة مثل أسماء الشرط والاستفهام ، والموصولات مثل اسم الشرط (من) المتكرر في قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٤) ، ومنه (أين) الدالة على ظرف المكان نحو ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾^(٥).

(١) سورة العصر ١-٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٣٧ .

(٣) سورة الطلاق ٤ .

(٤) سورة النساء ٦ .

(٥) سورة النساء ٧٨ .

الرابع : (لا) التي تدخل على النكرات إذ تكون عرضاً في العموم مثل قوله تعالى ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ﴾^(١)، والعموم لا يقع في الفعل الذي يؤتى مثل التيمم عند تعذر الماء ، قال تعالى ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾^(٢) إذ أن العموم من صفات النطق أي عالم الألفاظ .

أما العموم فهو تناول اللفظ لما يصلح له ، فالعموم مصدر والعام فاعل مشتق من هذا المصدر ، والمصدر غير الفاعل ، وقد يأتي المصدر في محل الفعل .

وقد يرد العموم والخصوص في القرآن في كلمتين كما في قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا قُتُلُوا﴾ ، فالقتال عام ، والذين قتلوا من المسلمين خاص .

صلاة الرغائب

قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٣) .

الرغائب : جمع ترغيبية أي العطاء الكثير وما مثله يرغب به .
(ويقال : اللهم إليك الرغباء)^(٤) .

وصلاة الرغائب في الإصطلاح صلاة من اثنتي عشرة ركعة تصلى بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من رجب ولا دليل على مشروعيتها .
وإزدادت عناية المؤمنين بليلة الرغائب والصلاة فيها وهي أول ليلة جمعة من شهر رجب من كل سنة ، ولم يرد خبر هذه الصلاة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

ظهر القول بصلاة الرغائب سنة ٤٨٠ هجرية في بيت المقدس .

(١) سورة البقرة ١٩٧ .

(٢) سورة النساء ٤٣ .

(٣) سورة النساء ١٠٣ .

(٤) المحيط في اللغة ١/ ٤١٠ .

وذكرها العلامة الحلي (٦٤٨-٧٢٦) في إجازته لبني زهرة ، وذكر الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يذكر سنده ، كما في الوسائل ١٥/١٩٥ ، ولم يرد عن أئمة أهل البيت عليه السلام أو الصحابة أي حديث عن صلاة الرغائب .

ولم يصلها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا الأئمة عليهم السلام ، ولا الصحابة .

أما الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تغفلوا عن ليلة أول جمعة منه أي من شهر رجب فانها ليلة تسميها الملائكة ليلة الرغائب ، فلا أصل له ، وكل ليلة من ليالي السنة هي ليلة رغائب وهي مناسبة للدعاء وورد الإطلاق المكاني والزماني في الدعاء بقوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

وحكم غير واحد من المحققين بوضعه منهم العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ، وابن الجوزي في الموضوعات والنووي في المجموع ، ويتضمن الكافي للكليني ستة عشر ألف وتسعة وتسعين حديثاً وفيه الحديث الصحيح والمعتبر والضعيف ، وليس فيه ذكر لصلاة الرغائب .

ولم يثبت استحباب صلاة الرغائب ولا دليل عليها ولا بأس بالإتيان بها لأن الصلاة خير محض وفيها أجر وثواب ، ولكن ليس بقصد التشريع . وهل أداء الصلاة فريضة أو نافلة واقية من الاغترار بالذين كفروا وتقلبهم في البلاد ، وكثرة أموالهم ، الجواب نعم ، فتفضل الله عز وجل وفرض على كل مسلم ومسلمة الصلاة في خمس أوقات في اليوم ، قال

(١) سورة غافر ٦٠.

تعالى ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١).

كما أن التقيد بأداء الفرائض العبادية من الصلاة والزكاة والصيام والحج تنمية للملكة طاعة تلقي قوله تعالى ﴿لَا يَغْرَبُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) بالعمل بمضامينه ، والعصمة من الإنذار بالذين كفروا ، كما ينفع الدعاء والتعقيب بعد الصلاة في المقام ، وما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التعقيب بعد الصلاة ، ومنه ما ورد (عن معاذ قال : قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إني أحبك لا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)^(٣).

بحث أصولي في النهي

ابتدأت آية البحث بالنهي ﴿لَا يَغْرَبُكَ﴾ الأصل في النهي هو التحريم الا أن تأتي قرينة تصرفه من التحريم إلى الكراهة ، والنهي قول يلزم ترك المنهي عنه على وجه الاستعلاء ، وهو ضد الأمر وتلحق الكتابة بالقول في النهي ، أما الإشارة فهي نهى مجازي.

وقد يخرج النهي من التحريم إلى الإرشاد كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة الإسراء ٧٨.

(٢) سورة آل عمران ١٩٦.

(٣) الدر المنثور ١/٣٠٣ .

(٤) سورة المائدة ١٠١.

ويأتي النهي بالتصريح والجملة الخبرية كما في قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُم مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(١).

ووردت الآية بصيغة المبني للمجهول لبيان نزول التحريم من عند الله عز وجل ، نعم قد يأتي التحريم في السنة النبوية القولية لقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

ومن أدوات النهي الحرف (لا) الناهية وقد ورد بصيغة التحريم ثلاث مرات في قوله تعالى ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُوا﴾ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ^(٣).

ومنه ﴿وَلَا تَقْرَأُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٤) ، وفيه دعوة للعلماء لتأليف مجلد باحصاء نواهي القرآن ، ثم الفصل بين نواهي التحريم ، والنواهي التي تدل القرائن على إفادتها الكراهة .

ويتكرر النهي في الحديث النبوي أيضاً حتى في الحديث الواحد ، ومنه الحديث الوارد عن (رباح بن عبد الرحمن بن أبي سفيان بن حويطب قال حدثني جدي عن أبيها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا

(١) سورة النساء ٢٣.

(٢) سورة الحشر ٧.

(٣) سورة البقرة ٤١-٤٢.

(٤) سورة البقرة ٦٠.

صلوة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ولا يؤمن بي من لا يحب الانصار) ^(١).

وابو جدته الذي يرويه عنه الحديث هو سعيد بن زيد أحد السابقين الأولين في الإسلام ، أسلم قبل أن يدخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيت الأرقم بن أبي الأرقم ، وكان مستجاب الدعوة ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وقصته معه معروفة .

و(عن أبي هريرة قال كنت مع علي عليه السلام حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل مكة ببراءة .

فكنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد فإن أمره أو أجله إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك) ^(٢).

وقد يأتي النهي بصيغة الجملة الخبرية كما ورد عن الإمام علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا كَلْبٌ وَلَا جُنُبٌ) ^(٣).

وهل قوله تعالى ﴿لَا يَغْرَبْكَ﴾ و﴿فَلَا تَغْرَبْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ^(٤) نهى تحريم أم إرشاد ، الجواب إنه نهى تحريم لبيان شمول النهي للكيفية النفسانية ولا ينحصر بعمل الجوارح لموضوعية هذه الكيفية في ماهية الفعل الذي يختاره العبد.

ليبيان قانون شمول الأوامر والنواهي القرآني لأعمال القلوب ، والكيفية النفسانية .

(١) السنن الكبرى / البيهقي ٤٣/١.

(٢) الدر المنثور ٧/٥.

(٣) سنن النسائي ٤٣٢/١ .

(٤) سورة فاطر ٥.

وقانون الإمتناع عن الاغترار بالذين كفروا وتقلبهم في البلاد مقدمة
لأمر:

الأول : إنقطاع المسلمين إلى ذكر الله .

الثاني : قانون أداء الصلاة في أوقاتها .

الثالث : قانون حضور القلب في الصلاة الذي هو فرع الطمأنينة فيها .
والمشهور أن الطمأنينة ركن في الصلاة .

إحصاء العمل الصالح والذنوب في القرآن

لابد من تأليف كتاب خاص بأسماء الذنوب التي ذكرت في القرآن بأن
تبدأ بذكر الشرك بالله ، لأنه أم الكبائر وهو الذي بدأ ذكر الذنوب في القرآن
به بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

والذنوب التي لا يغفره الله هو الشرك ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ
يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢)، ثم تذكر الذنوب حسب ترتيب
آيات وسور القرآن .

الأول : الذين يقولون آمنا بالله وما هم بمؤمنين .

الثاني : المفسدون في الأرض .

الثالث : الذين ينعتون المؤمنين بالسفهاء بقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ
النَّاسُ قَالُوا اتَّبِعْنَا كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

الرابع : الذين يقولون للشياطين إنا معكم وأنهم مستهزئون بالمؤمنين
وهكذا حسب نظم القرآن وترتيب سورة وآياته .

(١) سورة البقرة ٦.

(٢) سورة النساء ٤٨.

(٣) سورة البقرة ١٣.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ليس كبيرة بكبيرة مع الاستغفار وليس صغيرة بصغيرة مع الإصرار)^(١).
وقد ألفت بعض الكتب في كبائر الذنوب أما المقترح هنا فهو تتبع القرآن وذكر الذنوب والفواحش والسيئات التي ذكرها القرآن سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

ومع قلة كلمات آية البحث ﴿لَا يَغْرِبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) فإنها تشمل من الذنوب كلاً من :
الأول : الاغترار بالذين كفروا وما عندهم من النعم منها كثرة الأنعام والمكاسب .

والمختار أن الآية ذكرت ﴿قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من باب المثال الأظهر والحاضر ، وإلا فإن الواجب هو التنزه عن الاغترار بأشخاص وشأن وجاه وأموال وسلطان الذين كفروا .
الثاني : ذم الذين كفروا لصفة الكفر ، وحال الجحود التي يقيمون عليها.

الثالث : عدم الإفتتان بكثرة أسفار الذين كفروا بلباس الكفر والضلالة ، والإفتراء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

النسخ في الإصطلاح

النسخ رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه في زمان التنزيل ، ومن إعجاز التنزيل الناسخ والمنسوخ ، نعم هو قليل في القرآن ، والنسخ رحمة وتخفيف وامتحان وتمحيص بتلقي المؤمنين النسخ بالقبول والإمثال كما في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام .

(١) الثعلبي / الكشف والبيان ٢٢٤/٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

ومن النسخ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(١) ، ونسختها الآية التي بعدها ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) وأقف عند مسألة العدد ودلالات التباين فيه ، وكيف أنه من الشواهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبلحاظ العدد في الآيتين مسائل :

الأولى : ذكرت الآية المنسوخة عشرين صابرين من المؤمنين مقابل مائتين ، أي نسبة واحد إلى عشرة مع قلة عدد المؤمنين .

الثانية : ذكرت الآية مائة من المؤمنين مقابل ألفاً من المشركين .

الثالثة : أما الآية الناسخة فذكرت مائة من المؤمنين أي خمسة أضعاف عددهم في الآية المنسوخة ، لبيان إزدياد ومضاعفة أعداد المسلمين وزيادة إيمانهم مقابل مائتين من الذين كفروا أي بقوا على ذات عددهم

الرابعة : صيرورة عدد المؤمنين الذين في الميدان ألفاً مقابل ألفين من المشركين أي نسبة واحد إلى اثنين بدل واحد إلى عشرة ، لبيان أن النسخ رحمة وتخفيف في الميدان ، ولتبدل الحال عند الفريقين .

الخامسة : دعوة العلماء للتحقيق في الصلة بين آيات القرآن بلحاظ إتحاد الموضوع .

السادس : بيان فضل الله على المسلمين في النسخ .

السابع : الحسن الذاتي للناسخ والمنسوخ .

الثامن : النسخ الأكبر الذي في الشرائع .

التاسع : ارتداد جماعة بحدوث الناسخ في القبله .

(١) سورة الأنفال ٦٥.

(٢) سورة الأنفال ٦٦=.

ويحتمل قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) وجهين :

الأول : إمكان النسخ .

الثاني : وقوع النسخ ، وهو المختار وعليه إجماع العلماء إلا القليل ، وهذا الوقوع اختلف فيه كثرة وقلة ، والمختار قلته .

العاشر : سلامة القرآن من النسخ إلى يوم القيامة .

الحادي عشر : لا يقدر على النسخ وهداية المسلمين لقبوله والعمل به إلا الله ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء)^(٢) .

معاني ننسها

النسيان خلاف الذكر ، وهو على أقسام :

الأول : ترك الحكم بالآية لمصلحة المكلفين .

الثاني : إبدال حكم الآية ، قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

الثالث : المحو وعن الإمام محمد الجواد عليه السلام (ما ننسخ من آية بأن نرفع حكمها أو ننسها بأن نرفع رسمها -

وقد تلي - وعن القلوب حفظها وعن قلبك يا محمد كما قال: " سنقرئك فلاتنسي إلا ما شاء الله " أن ينسيك فرفع عن قلبك ذكره نأت بخير منها يعني بخير لكم فهذه الثانية أعظم لثوابكم وأجل لصلاحكم من الآية الاولى

(١) سورة البقرة ١٠٦ .

(٢) تفسير الرازي ٦ / ٤٣٨ .

(٣) سورة النحل ١٠١ .

المنسوخة أو مثلها أي مثلها في الصلاح لكم لانا لا ننسخ ولا نبذل إلا وغرضنا في ذلك مصالحكم^(١).

و(أخرج الطبراني عن ابن عمر قال : قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانا يقرآن بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان فلم يقدرأ منها على حرف.

فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنها مما نسخ أو نسي فالهوا عنه ، فكان الزهري يقرأها { ما ننسخ من آية أو ننسها { بضم النون خفيفة)^(٢).

ونسها (بمعنى أو نمنسكها ، وقد ذكر أنها كانت في مصحف عبد الله ابن مسعود (ما نمنسك من آية أو ننسخها نجيء بخير منها أو مثلها) وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يقرأ الآية ، ثم ينسى وترفع . وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ (ما ننسخ من آية ننسها) ، بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيكون تقديره أو تنسى أنت يا محمد)^(٣).

والنسخ أنفع لأجيال المسلمين ، وأسهل وأخف عليهم ، وفي التقيد بالنسخ والعمل بالناسخ أجر وثواب ، وآية البحث ﴿لَا يَغُرَّتْكَ﴾ محكمة غير منسوخة ، وحكمها متصل وباق لم يطرأ عليه النسخ لأنها تخفيف ، ومن معاني التبيان في القرآن الهدى والرحمة في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَلَّاتْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٤).

(١) البحار ١٠٤/٤.

(٢) الدر المنثور ١٩٧/١.

(٣) النكت والعيون ٨١/١.

(٤) سورة النحل ٨٩.

ويتجلى فيها البيان بلغة الخطاب وموضوع النهي وهو الاغترار بالذين كفروا وأموالهم ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).
والنسخ في القرآن علم بذاته .
والمختار أن السنة لا تنسخ بالقرآن

بين الهم والعزم

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهَا لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢).

من إعجاز هذه الآية إشغال الناس في كل زمان بموضوعها ومضمونها وأسرارها ودلالاتها ، وتعدد وجوه التفسير لها من غير أن يستقر العلماء على قول مخصوص ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣).

أي من ذكر القصص وفي بعض الحوادث ما لم يحط بها علماً إلا الله عز وجل ، وجاءت الآية أعلاه على نحو الإجمال .
والكبرى الكلية في المقام أن الهم لغة العزم والقصد والنية أي أن الزنا والفاحشة لم تقع لأنها مركبة من طرفين ، وفي الآية وجوه :
الأول : همت امرأة العزيز ييوسف لفعل الفاحشة ، وهم يوسف هو جلوسه بين رجلها ، وفي الخبر جلس منها مجلس الخائن ، وأخرى أنه حلّ تكة لباسه ، وهي أخبار ضعيفة السند ومقطوعة ، ولا تنهض لمعارضة قانون نزاهة وعصمة الأنبياء .

(١) سورة آل عمران ١١٦.

(٢) سورة يوسف ٢٤.

(٣) سورة النحل ٨٩.

الثاني : همت به لتغريه ، وهم بها ليضربها أو يقتلها .
الثالث : همت به لجذبه لإرتكاب الفاحشة ، وهم بها ليدفعها لولا أن
 رأى برهان ربه .

الرابع : ولقد همت به وهم بها طمعت فيه وطمع فيها .
الخامس : ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في مجلس المأمون
 (فأخبرني عن قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ
 رَبِّهِ﴾^(١) فقال الرضا عليه السلام: لقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم
 بها كما همت، لكنه كان معصوما ، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه^(٢) .
 لبيان جواز تقدم جزاء لولا عليها ، فيوسف عليه السلام لم يهم بالمرأة
 للطف الشخصي وهو فرع عصمة الأنبياء .

ولقد انتفعت أجيال المسلمين من هذا اللطف ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ
 حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٣) .

السادس : قوله تعالى ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾^(٤) ، بيان رحمة
 الله .

والهم بالفعل أول العزم ، ويأتي بمعنى الغم والكرب بالتفكير بما يأتي في
 المستقبل .

ونبين قانوناً وهو إنتفاع الناس من اللطف الشخصي كما في قصة يوسف
 وعصمته من الفاحشة ، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
 كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١) .

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) البحار ٨٢/١١ .

(٣) سورة الممتحنة ٦ .

(٤) سورة يوسف ٢٤ .

ولا يعلم ويحصى عدد المسلمين والمسلمات الذين انتفعوا من صبر يوسف عليه السلام وتنزهه عن المعصية إلا الله عز وجل ، ومن بركة القرآن صيرورة اللطف الشخصي لطفاً عاماً للأجيال المتعاقبة .

ولكن الهم بمعناه المتعدي كما في قوله تعالى ﴿وَهُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾^(٢) ، إذ تشاوروا في دار الندوة وجاء في آية أخرى ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتُكَ﴾^(٤) ، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٥) .
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(٦) ، ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾^(٧) .

والمختار أن النسبة بين النية والهم عموم وخصوص مطلق ، فالنية سابقة للهم وقد تتداخل معه أو تنفرد من غير أن يصاحبها هم بالشئ .

وذات النسبة بين العزم والهم ، فالعزم أظهر وأقرب إلى الإبتداء بالفعل ، قال تعالى ﴿الْأَمْرُ إِذَا عَزَزْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٨) .

(١) سورة الممتحنة ٦ .

(٢) سورة التوبة ١٣ .

(٣) سورة الممتحنة ١ .

(٤) سورة محمد ١٣ .

(٥) سورة التوبة ٤٠ .

(٦) سورة الأنفال ٣٠ .

(٧) سورة الإسراء ٧٦ .

(٨) سورة آل عمران ١٥٩ .

أقسام اللطف الإلهي

لقد قسمت اللطف الإلهي على العباد إلى ثلاثة أقسام :

الأول : اللطف الشخصي .

الثاني : اللطف الخاص .

الثالث : اللطف العام ، لبيان قانون وهو انتفاع أجيال المسلمين من اللطف الشخصي ببركة القرآن ، إذ صارت هذه الواقعة موعظة ومدرسة في الصبر والإنزجار عن الفاحشة يتعظ منها الرجال والنساء .
ويمكن تقسيم اللطف الإلهي تقسيماً استقرائياً بلحاظ الخصوص والعموم إلى :

الأول : اللطف الشخصي الذي يصيب كل إنسان على نحو خاص ومستقل ، وهو مثل بصمة اليد ، وبصمة العين ، فلا تجد اثنين من أيام آدم عليه السلام وإلى يوم ينفخ في الصور يلتقيان بذات الخصوصية ومثله بصمة الأذن التي اكتشف حاسوب خاص لها .

ومن بدیع خلق الإنسان أن بصمة الأذن اليمنى تختلف عن بصمة الأذن اليسرى عند الشخص الواحد ، وكذا يختص كل إنسان بمصاديق وأفراد من اللطف الإلهي لا تكون عند غيره من الناس .

الثاني : اللطف الخاص : وهو الذي يأتي للأسرة والجماعة والطائفة والفرقة أو أهل بلد في مناسبات مخصوصة أو مطلقاً ، ومنه السعة في الرزق ، والسعادة والألفة والسكن تحت سقف واحد مستقل ، والتكافل والأخلاق الحميدة .

ويأتي اللطف على نحو دفعي أو تدريجي ، وترى شواهد عديدة في اتصاف طائفة من الناس بنعم وخصائص غير موجودة عند اقربانهم .

ومن الخاص نزول المطر ، وخصوبة الأرض ، وكثرة الثمار ، والوقاية من الحروب ، والطقس ، وصحة الأبدان وكل نعمة تلزم الشكر لله ، قال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

الثالث : اللطف في بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية ومنها القرآن ،
ومن إعجاز كل آية منه لطف من الله في مضامينها وأحكامها ودلالاتها ، وهو من الشواهد على سلامته من التحريف ومن الزيادة والنقصان .

الرابع : اللطف العام : وهو الذي يصيب الناس جميعاً نعمة من عند الله عز وجل على عباده وحجة عليهم ، وهو من مصاديق رحمة الله ، لذا تبدأ كل سورة من القرآن بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ويمكن تقسيم اللطف الإلهي تقسيماً آخر بلحاظ التجلي والشهود وهو :
الأول : اللطف الظاهر للحواس ، من السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

الثاني : اللطف الذي تدركه العقول .

الثالث : اللطف الخفي الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل ، قال تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٢).

وتبين هذه الآيات تعدد المرات التي سعى فيها رؤساء قريش لإخراج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة .

قراءة اللطف في آية البحث

وآية البحث لطف من جهات :

الأولى : الآية لطف بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإعانة له في
جهاد الكفار والمشركين بصد المسلمين عن الإفتتان بهم .

(١) سورة إبراهيم ٧.

(٢) سورة الحديد ٢٢.

الثانية : آية البحث لطف بأهل البيت والصحابة بما تبعته من أسباب الثبات في منازل الإيمان ، وعدم الإفتتان بما عند رجالات قريش من الأموال والجاه والسياسة في البلدان .

الثالثة : آية البحث من اللطف الشخصي بكل إنسان بالرضا بما قسم الله عز وجل له ، وعدم الاغترار بما عند الذين كفروا .

الرابعة : آية البحث لطف عام بالناس جميعاً ، بأن الأموال والجاه وإلى زوال ، وهي سبب للحساب في الآخرة ، قال تعالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾^(١).

الخامسة : آية البحث لطف بخصوص الكيفية النفسانية ، يبعث النفرة في النفوس من الكفر ، وعدم الرغبة فيما عند الذين كفروا وبخصوص عالم الأمثال باجتنب المسلمين والمسلمات لأسباب الإفتتان والمودة للذين كفروا.

المقولات العشرة

قال تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾^(٢) ، وقال تعالى ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾^(٤).

واستحدث تفسيراً لهذه الآية أن الأعمال تتحول إلى أرقام وأعداد وسواء عمل الصالحات أو السيئات ، ولا يعلم أحوالها والكيفية التي تكتب بها كالرموز أو الكتابة أو الجذور المتسلسلة لوحداثها .

وهو لا يتعارض مع احتساب الأعمال بهيئة الجرم والثقل في الميزان يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا

(١) سورة الأنبياء ١.

(٢) سورة يس ١٢.

(٣) سورة النبأ ٢٩.

(٤) سورة الجن ٢٨.

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿١﴾ والهاوية النار .

ومن بديع قدرة الله إحصاء كل شئ في عالم الأكوان والمخلوقات ، ودقائق تفصيلاتها ، وخلقها ، وأعمارها وأوان فنائها ، والوقائع والأحداث من المقولات العشرة وقسمتها :

ويمكن تقسيم هذه المقولات إلى قسمين :

الأول : الجوهر .

الثاني : العروض ، وهي تنقسم إلى تسعة أقسام :

الأول : الكم .

الثاني : الكيف .

الثالث : الأين .

الرابع : المتى .

الخامس : الوضع .

السادس : الملك .

السابع : الإضافة .

الثامن : ان يفعل .

التاسع : ان ينفعل .

ومن أسماء الله (العليم) و(المحصي) والنسبة بين صفة العلم والإحصاء عموم وخصوص مطلق ، فالعلم أعم وأوسع .

ومن إعجاز القرآن أن أول آية نزلت منه هي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ﴾^(٢) ، لبيان وجوب التعلم على كل مسلم ومسلمة ، والنسبة بين المراد

من القراءة والتحصيل وبين الإحصاء عموم وخصوص مطلق .

فورد علم القراءة والتحصيل في الدنيا جزء من كلمة واحدة في القرآن

(١) سورة القارعة ٦-٩ .

(٢) سورة العلق ١ .

بصيغة فعل الأمر أمراً متحداً لجميع أجيال المسلمين المتعاقبة وتقديرها (اقرأوا) بالحق الأمة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الخطابات العامة مع تقييدها بما فيه النفع العام لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(١).

وعلم الإحصاء والحساب من العلوم التي صاحبت الإنسان من أول خلق آدم عليه السلام ، ومن مصاديقه ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢) وهو حاجة في أمور الدين والدنيا .

وصدرت والحمد لله الأجزاء الخامسة والأربعون بعد المائتين والجزء السابع والأربعون بعد المائتين ، والجزء الثامن والخمسون بعد المائتين من تفسيري للقرآن بخصوص علم الإحصاء القرآني غير متناه.

و(عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : لأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةٌ يَبِيضُا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَثُوراً).

قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَفَهُمْ لَنَا جَلَّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ : أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا)^(٣).

ليبان إحصاء الله عز وجل لكل فعل ، وحضور أفعال الناس معهم يوم القيامة.

وتدل آية البحث على أمور :

الأول : إحصاء إعراض المسلمين عما في أيدي الذين كفروا ، والأجر والثواب على هذا الأعراض .

الثاني : إحصاء تلاوة المسلمين لآية البحث ، وانتفاعهم منها.

(١) سورة العلق ١-٣.

(٢) سورة البقرة ٣١.

(٣) سنن ابن ماجه ٤٥٠/١٢.

الثالث : إحصاء الأجر والثواب على تلاوة آية البحث والتدبر في معانيها والإنتفاع منها .

الرابع : إحصاء معاصي الذين كفروا في أسفارهم ، وهل ذات قلوبهم في البلاد معصية ، الجواب القلب والسفر من المباحات ولكن يأتي الإثم بالعرض لما يصاحب سفر الذين كفروا من المعاصي ، ومن إنكارهم للنبوة والتنزيل .

الخامس : قانون البشارة بانحسار قلوب الذين كفروا في البلاد ، سواء بدخول رجالات قريش وهوازن وثقيف الإسلام ، أو بانحسار الكفر بعد فتح مكة لذا نزل قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(١).

مثال للمقولات العشرة

لقد جئت بيت شعر ذي صبغة قرآنية بخصوص بيان المقولات العشرة وهو (كتاب مثاني تبيان وحي سماوي كاشف لو نزل على جبل لما ثبت) وتقديره :

الأول : الجوهر : وهو الكتاب أي القرآن ، وقد ورد ذكره في القرآن بلغة الكتاب ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) لبيان أن العبادة والإخلاص فيها من أهم أفراد المقولات ، وينقسم الجوهر إلى عقل ونفس وجسم .

الثاني : مثاني ، وينقسم إلى شعبتين :

الأولى : الكم المتصل الذي يكون بين أجزائه واسطة مشتركة كالصلة بين كلمات الآية الواحدة وكأفراد الزمان .

(١) سورة النصر ١-٣ .

(٢) سورة الزمر ٢ .

الثانية : الكم المنفصل ، وهو الذي لا يكون بين أجزائه حد مشترك
كتقسيم العدد أربعة إلى قسمين متساويين ، وكالصلة بين آيات القرآن
موضوعاً وحكماً .

وقد صدرت لي بخصوص سياق الآيات أجزاء من (معالم الإيمان في
تفسير القرآن) وهي :

الأول : الجزء السادس والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٦٤-
٦٩ من سورة آل عمران.

الثاني : الجزء السابع والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٧٠-
٧٧ من سورة آل عمران.

الثالث : الجزء الثامن والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٧٨-
٨٤ من سورة آل عمران.

الرابع : الجزء التاسع والسبعون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٨٥-
٩٣ من سورة آل عمران.

الخامس : الجزء الثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات ٩٤-١٠٢ من
سورة آل عمران.

السادس : الجزء الواحد والثمانون ، ويختص بصلة الآية ١١٠ بالآيات
١٠٣-١٠٩ من سورة آل عمران.

السابع : الجزء الخامس والعشرون بعد المائة ، ويختص بصلة الآية ١٥٢
بالآية ١٥١ من سورة آل عمران.

الثامن : الجزء السادس والعشرون بعد المائة ويختص بالقسم الأول من
تفسير ١٥٣ وهو بصلة شطر من الآية ١٥٣ بشطر من الآية ١٥١ من سورة آل
عمران..

التاسع : الجزء التاسع والعشرون بعد المائة ويختص بالقسم الأول من
تفسير الآية ١٥٤ وبصلة شطر من هذه الآية بشطر من الآية ١٥٣ من سورة آل
عمران.

العاشر : الجزء الواحد والخمسون بعد المائة ويختص بصلة شطر من

الآية ١٦١ بشطر من ١٦٤ من سورة آل عمران .
الحادي عشر : الجزء الثاني والتسعون بعد المائة ، ويختص بالصلة بين
 الآية ١٨٠ والآية ١٨١ من سورة آل عمران .

الثالث : الكيف ، وهو تبيان .

الرابع : الإضافة ، وحي .

الخامس : الآين ، سماوي .

السادس : الوضع ، كاشف .

السابع : الفعل ، نزل .

الثامن : الملك ، على جبل .

التاسع : المتى ، لما .

العاشر : الإنفعال ، ثبت

والأولى أن تقسم هذه المقولات إلى قسمين :

الأولى : الجوهر .

الثاني : العروض ، وهي تنقسم إلى تسعة أقسام :

الأول : الكم .

الثاني : الكيف .

الثالث : الآين .

الرابع : المتى .

الخامس : الوضع .

السادس : الملك .

السابع : الإضافة .

الثامن : ان يفعل .

التاسع : ان ينفع .

لقد نزل القرآن بقوانين تتغشى أيام الناس بما فيه سعادتهم في الحياة
 الدنيا ، ونجاتهم في عالم البرزخ ، وفي مواطن الحساب والجزاء يوم القيامة ،
 وتبين آية البحث جانباً من فعل الذين كفروا كماً وكيفاً .

ومن الأئين تنقلهم في البلاد وأنهم يفعلون ما فيه الفتنة والإمتحان للمؤمنين فقطعت آية البحث ضررهم بأن منعت من انفعال المسلمين بعروضهم .

ميراث الأخوة والأخوات

قال تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(١).

من إعجاز القرآن والسنة النبوية علم الفرائض ويسمى علم المواريث وهو علم يعرف به من يرث ومن لا يرث ، ومقدار سهام كل واحد من الورثة ذكراً كان أو انثى بآيات معدودة مع جزالة الألفاظ وغزارة المعاني ، والشمول للأحوال المختلفة وبما يضمن إعطاء كل ذي حق حقه .

وفيه طرد للفتنة والإقتتال والظلم وهو مناسبة لتوجه المسلمين والمسلمات إلى أداء الفرائض العبادية ، وقال تعالى ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾^(٢) للإنذار والزجر عن أكل ميراث الغير فيأخذ ميراثه وميراث غيره .

وقيدا بأول حرفين من الآية أعلاه وهما الألف واللام في (النبي) وهل الألف واللام للعموم الإستغراقي وأن كل نبي هو أولى بالمؤمنين من أصحابه واتباعه .

وأن أزواجه أمهات المؤمنين أم أن (ال) للعهد وأن الآية خاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب هو الثاني .

ومن الألف واللام للعهد قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا *

فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ﴾^(٣) ، والمراد من الرسول هو موسى على نحو

(١) سورة الأحزاب ٦ .

(٢) سورة الفجر ١٩ .

(٣) سورة المزمل ١٥ - ١٦ .

التعيين مع وجود هارون معه داعية إلى الله عز وجل ، ولكن هارون ليس رسولاً إنما هو نبي فخرج بالتخصص من موضوع الآية أعلاه .

ومن الأنبياء ما كان عنده زوجة واحدة مثل آدم ، ومنهم لم يتزوج مثل عيسى ، ويحيى عليهما السلام ، إلى جانب نظم وسياق الآيات وخطابها للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين .

والأرحام في الإرث على ثلاث طبقات ، ولا ترث الطبقة الثانية إلا عند فقد الطبقة الأولى ، ولا ترث الطبقة الثالثة إلا عند فقد الطبقة الأولى والثانية ، فكل طبقة تحجب الأخرى .

والطبقة الأولى : هم الأبوان والأولاد وإن نزلوا كالحفيد ابن الابن والسبط ابن البنت ، ويمنع الولد الصليبي الحفيد والسبط عند إجتماعهم .
والطبقة الثانية : هم الأجداد وإن صعدوا ، والإخوة والأخوات فاذا فقدوا فأولادهم .

الطبقة الثالثة : وهم الأعمام والعلمات ، والحوال والخالات وإن لم يوجد أحد منهم قام ابناؤهم مقامهم .

وللزوجة ربع المال إن لم يكن للميت ولد وإن نزل ، ولها الثمن إذا كان له ولد منها أو من غيرها ، قال تعالى ﴿ وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الْكُلُّ وَلَكُمُ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ ﴾ (١) .

وللزوجة من تركه زوجته النصف إن لم يكن لها ولد ، وله الربع إن كان لها ولد سواء منه أو من زوج آخر غيره تزوجته قبله ، قال تعالى ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ ﴾ (٢) .

(١) سورة النساء ١٢.

(٢) سورة النساء ١٢.

مسائل في إرث الإخوة

المسألة الأولى : إذا كان أبوا الميت أي أبوه وأمه قد ماتا قبله ، وعندما مات ليس عنده ولد ذكراً كان أو أنثى يرثه إخوته ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾^(١).

المسألة الثانية : لو كان عند الميت إخوة من الأب والأم قسمت التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، وإن لم يكن عنده إلا إخوة للأم قسم المال بينهم بالسوية للأنثى مثل ما للذكر .

المسألة الثالثة : إن كان للميت إخوة من الأبوين ، وإخوة من الأب وحده فيرث المال الأخوة من الأب والأم ، ولا يرث الإخوة من الأب شيئاً .
المسألة الرابعة : إذا كان عند الميت إخوة من الأب والأم وإخوة من الأب وإخوة من الأم يرث الإخوة من الأب والأم الثلثين ويقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .

ويرث الإخوة من الأم الثلث فيقسم بينهم بالسوية للذكر مثل الأنثى . ولا يرث الأخوة من الأب شيئاً لأن الذي يتقرب من جهتين الأب والأم ، يحجب الذي يتقرب من جهة واحدة وهو الأب ، أما الإخوة من الأم فيأخذون الثلث .

وفي صحيحة بكير بن أعين عن الإمام الصادق عليه السلام (ولا ينقص الزوج من النصف ، ولا الإخوة من الأم من ثلثهم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾^(٢))^(٣).

النسخ الأكبر والأصغر

قال تعالى ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

(١) سورة النساء ١١.

(٢) سورة النساء ١٢ .

(٣) الوسائل ٢٥٢/٥ .

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١).

لقد كره الكفار نزول الخير على المسلمين من الله ، كما في آية ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

وجاءت آية النسخ بعدها مباشرة لبيان أن النسخ خير محض ، ونعمة عظمى ، لذا تلقاه المسلمون بالقبول والعمل به كما في نسخ القبلة بقوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

والله أعلم بجلب المصلحة وتحقيقها للمؤمنين ، ودفع المفسدة عنهم .

ويمكن أن نقسم النسخ تقسيماً استقرائياً مستحدثاً إلى قسمين :

الأول : النسخ الأكبر : وهو النسخ بين الشرائع ، ويقع في الفروع وجزئيات وتفصيل الأحكام ، ولا نسخ في الأصول كالتوحيد والنبوة ، والإقرار بالمعاد ، وأصول العبادات ، ومن النسخ في الفروع حكاية عن عيسى عليه السلام في التنزيل ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٤).

ويختص النسخ بما يأتي به الرسل أولي الشرائع ، فالنبي لا ينسخ من الشريعة التي قبله بل يعمل بأحكامها .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (كان بين داود وعيسى بن مريم عليهما السلام أربع مائة سنة ، وكان شريعة عيسى أنه بعث بالتوحيد

(١) سورة البقرة ١٠٦.

(٢) سورة البقرة ١٠٥.

(٣) سورة البقرة ١٤٤.

(٤) سورة آل عمران ٥٠.

والاخلاص ، وبما أوصي به نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام ، وأنزل عليه الإنجيل ، وأخذ عليه الميثاق الذي أخذ على النبيين .

وشرع له في الكتاب إقام الصلاة مع الدين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحريم الحرام ، وتحليل الحلال .

وأنزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثال ، وليس فيها قصاص ولا أحكام حدود ، ولا فرض مواريث ، وأنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى عليه السلام في التوراة ، وهو قول الله في الذي قال عيسى بن مريم لبني إسرائيل ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(١).

وأمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعة التوراة والإنجيل^(٢).

الثاني : النسخ الأصغر : وهو النسخ بين آيات القرآن وهو قليل في القرآن وليس كما قيل أيام تابعي التابعين واشتهر بعدهم أن آية السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية من آيات السلم والصلح والمواعدة .

وقال المعتزلة بدلالة النسخ على أن القرآن مخلوق لتأخر زمان الآية الناسخة عن المنسوخة ، والنقاش في الكبرى وهي أن مسألة خلق القرآن فتنة ومحنة ، انتشرت في أيام الخليفة العباسي المأمون ابتدعها الجهم بن صفوان ، وعزل المأمون كل قاض لا يقول بخلق القرآن .

وقد نزل القرآن كله مرة واحدة إلى السماء الدنيا .

وورد (عن ابن عباس قال : أنزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا ، فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئاً أنزله منه حتى جمعه)^(٣).

ولا ينسخ الآية القرآنية إلا آية مثلها ، كما في آية النجوى .

(١) سورة آل عمران ٥٠.

(٢) البحار ٢٣٤/١٤.

(٣) الدر المنثور ١/٣٨٠.

فعمل بها الإمام علي عليه السلام ثم نسخت ، إذ ورد عنه عليه السلام قال (إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدمت بين يدي درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾^(١) (٢).

والمختار أن السنة لا تنسخ القرآن ، والذي انقطع نزول آياته بموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد أخبر الله عز وجل بأن النبي محمداً رسول يدركه الموت على نحو الحتم والقطع ، كما أدرك الأنبياء السابقين ، قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مُيْتَوْنَ﴾^(٤).

وفيه إكرام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ، ودعوة سماوية لهم للاستعداد لهذا المصاب الجلل بالثبات على الإيمان ، والإمتناع عن الإرتداد.

وبانتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى انقطعت أمور سماوية وهي :

الأول : التنزيل فليس من آية قرآنية تنزل بعده ، ولم تنزل آية قرآنية على

(١) سورة المجادلة ١٣.

(٢) الدر المنثور ٩/٤٤٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٤.

(٤) سورة الزمر ٣٠.

غيره ممن سبقه.

الثاني : الوحي ، فلا يوحى وحي النبوة بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لغيره .

الثالث : توقف النسخ الأكبر في الشرائع لأن شريعة القرآن ناسخة غير منسوخة.

الرابع : توقف النسخ الأصغر ، فليس من نسخ بعد فقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأي كلمة أو آية من القرآن .

ومن اللطف الإلهي أن النبي محمداً لم يغادر الدنيا إلا بعد أن تمت أحكام الشريعة ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١). وفيه شاهد على ملائمة أحكام الشريعة لكل زمان ومكان ، وعلى سلامة القرآن من التحريف والزيادة والنقصان ، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).

وآية البحث ليست ناسخة لغيرها ، وهي غير منسوخة ، وأحكامها جلية واضحة ، وتدل قلة كلماتها وهي خمس كلمات على إعجاز القرآن بمجئ الأحكام العامة ذات الشأن والأهمية في حياة المسلمين بوضع كلمات ، لتكون على وجوه :

الأول : قانون تفقه وتدبر المسلمين بالآية القرآنية .

الثاني : معرفة الناس جميعاً بمضامين آية البحث ، فيمتنعون عن الإفتتان بالذين كفروا وما عندهم من النعم ، إذ أنهم من المغضوب عليهم في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة الحجر ٩.

الضالين ﴿١﴾ .

الثالث : قانون مبادرة عمل المسلمين بآية البحث ، والتزّه عن الاغترار بالذين كفروا .

خلافة الأرض بلحاظ آية البحث

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

قيل اعترضت الملائكة على جعل ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿٣﴾ عاقبهم الله بأن جعلهم يطوفون حول العرش وهم يستغفرون ، ومنه جعل الله عز وجل الطواف سبعة أشواط حول الكعبة .

والمختار أن الملائكة لم يحتجوا على تنصيب آدم ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿٤﴾ لقانون التنافي بين الخصال الحميدة للملائكة وبين الإحتجاج ، ولا يقول ولا يفعل الملائكة إلا ما هو طاعة محضة لله عز وجل ، وهم دائبون على العبادة والخشوع لله منقطعون إلى التسييح ، وهم مع عظيم خلقهم لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينعحون ، غذاؤهم التسييح ونسيم العرش .

وليس لهم قدرة على المعصية ، قال تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥﴾ .

فقد جبلهم الله على طاعته ، لذا قيل بأن الملائكة غير مكلفين ، ولا

(١) سورة الفاتحة ٦-٧ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

(٥) سورة التحريم ٦ .

داخلين في الوعد والوعيد .

والتسبيح هو التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص ، ويدل على عدم احتجاجهم قولهم ﴿وَحَسْبُ نُسُجٍ بِحَمْدِكَ﴾^(١).

(أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بمحمدنا لك)^(٢).

لقد سأل الملائكة الله عز وجل ألا يكون مع الخليفة في الأرض من يفسد فيها ويقوم بقتل غيره ، فهو ليس احتجاجاً إنما هو دعاء لنفع البشر ، ومن مصاديقه دعاء الملائكة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كخليفة في الأرض بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣).

تشمل هذه الصلاة من الله والملائكة أفراد الزمان الطولية الماضي ، والحاضر ، والمستقبل .

(قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة .

قال : يكون له ذرية يفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً)^(٥).

وتقدير الآية : أتجعل فيها مع الخليفة من يفسد فيها ويسفك الدماء . وتحقق مصداق آية تساؤل الملائكة عند بعثة النبي محمد صلى الله عليه

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) أنظر ٣٤/٧ كتابنا معالم الإيمان .

(٣) سورة الأحزاب ٥٦.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

(٥) تفسير ابن كثير ٢١٧/١ .

وآله وسلم لقيام المشركين بالفساد في الأرض ، ومنه تقلبهم في البلاد بصفة وخصال الكفر ، ومن هذا التقلب زحفهم بالجيوش الكبيرة على المدينة لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة أحد ، ومعركة الخندق التي سماها الله عز وجل الأحزاب لبيان أن التحالف بين قريش والقبائل لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من التقلب في البلاد الذي تذكره آية البحث ، ومن الفساد بقوله تعالى ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾^(١).

وقاموا بقتل رهط من أهل البيت والمهاجرين والأنصار ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ، بلحاظ آية البحث أمور :
الأول : تنبيه وإنذار المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا .
الثاني : لحوق الخزي والهزيمة والذل بالذين كفروا ، وصيرورتهم عاجزين عن التقلب في البلاد .

الثالث : سوء عاقبة الذين كفروا في الآخرة ، قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا سَمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾^(٣).

قانون الابتلاء بالذين كفروا

لقد ابتلى الله إبراهيم بالملك نمرود وهو في ملكه وسلطانه ، وابتلى موسى عليه السلام بفرعون وملئه لينتقم الله من نمرود ثم فرعون ، وقد ابتلى الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأبي جهل وأصحابه ، وليس عندهم ملك وسلطان دولة وفيه تخفيف عن النبي محمد والأوائل من المسلمين .

ولكنهم سخرّوا الجيوش الكبيرة لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة ص ٢٧.

وسلم وهو الذي تدل عليه الآية السابقة بقوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾^(١).

لقد اتخذوا من أسفارهم ونعمة ضربهم في الأرض سلاحاً لمحاربة النبوة والتنزيل وكل منهما نعمة من عند الله ، ويأبى الله أن تحارب نعمه بنعم من عنده ، ولكن الكافرين أرادوا التضاد بينها فنزلت آية البحث لتحذير المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا ، ليأتي بعد هذا التحذير من بطش الله بالذين كفروا كما بطش بنمرود وفرعون وجنوده ، قال تعالى ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ قِنَّةٌ وَلَكِنِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون^(٢).

لقد سقط عدد من المسلمين قتلى في معارك الإسلام ، أما المشركون فقد كانت قتلهم أكثر عدداً مقروناً بخزيهم ، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنِ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤).

وسرعان ما قُتل أبو جهل في معركة بدر في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة التي كان الإصرار فيها على القتال والإبتداء به من طرف المشركين .

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة الزمر ٤٩-٥٠.

(٣) سورة آل عمران ١٢٧.

(٤) سورة النساء ١٠٤.

ولا يعلم ما صُرف عن المسلمين من الأذى وأسباب الفشل والوهن بنزول آية البحث ، وعملهم بمضامينها إلا الله عز وجل ، وهي خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده أجيال المسلمين كما أنها خطاب لكل سامع يسمعها لتكون عبرة وموعظة.

لماذا كنية أبي جهل

اسم أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ، وكان يسمى أبا الحكم ، ولكنك سرعان ما تنسى اسمه ولا يعرف إلا بكنيته التي أطلقها عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي (أبو جهل).

لقيام أبي جهل بطعن سمية بنت خياط أم عمار بن ياسر في قبلها بالحربة لثباتها على الإسلام مع أنها عجوز ضعيفة ، وهي مولاة لبني مخزوم ، وأبو جهل من رؤسائهم .

لتكون امرأة هي أول شهيد في الإسلام ، ومات ياسر في التعذيب ، وعذب عمار وأخوه ، إذ كان بنو مخزوم يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ، ومر عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة).

لتكون هذه الكنية إنذاراً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقريش بعدم اتباع أبي جهل ، وهل إطلاق هذه الكنية والوصف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أبي جهل من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

الجواب نعم ، فنتت أبي جهل بهذه الصفة والكنية إنذار له للكف عن إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه ، وإنذار للناس من إتباعه ، حتى إذا ما قتل في معركة بدر تجلت معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل كانت تسمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي جهل من

(١) سورة الإسراء ١٠٥.

الوحي ، الجواب نعم ، لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

وليبيان قانون الجهاد بالقول المقرون بالصبر ، ونعت أبي جهل ذم له وبيان قانون الملازمة بين الكفر والجهل ، وتحذير الناس من إتباعه ، وهذا النعت من مصاديق قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنُشْرُ الْمَصِيرِ﴾^(٢).

وهل انتفعت طائفة من الناس من هذه التسمية وصدورها من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم ، لما فيها من النفرة من الجهالة والزجر عن محاكاة أبي جهل ، وليبيان قانون الملازمة بين الإيمان والبصيرة .

وليكون تقدير آية البحث : لا يغرنكم تقلب المشرك في البلاد فانه هالك .

إن الوحي بتسمية أبي جهل دعوة للمسلمين لأمر :

الأول : عدم الالتفات لشخصه وما عنده من النعم .

الثاني : أخذ المسلمين الحيلة والحذر من أبي جهل وأصحابه .

الثالث : إعراض عامة الناس عن أبي جهل وتكذيبه النبوة والتنزيل ثم

قيامه بمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن الإمام علي عليه السلام (قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه

وسلم : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٣)^(٤).

(١) سورة النجم ٣-٤ .

(٢) سورة التوبة ٧٣ .

(٣) سورة الأنعام ٣٣ .

(٤) الدر المنثور ٤/٤٩٩ .

تقدير ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾

من علوم التفسير المستحدثة في هذا السفر (علم التقدير) بتقدير المراد والمحذوف والدلالة ، والعلة والمعلول ، والسبب والأثر ، والمطلق والمقيد ، والعام والخاص ، ونحوها .

ترى لماذا خَفَّفَ الله عز وجل عن المسلمين ، فيه وجوه :

الأول : الآن خَفَّفَ الله عنكم رحمة ورأفة بكم .

الثاني : الآن في الحال خَفَّفَ الله عنكم وقبل ابتداء القتال إذ أن (الآن)

ظرف زمان متعلق بخفف ، وتتجلى الفورية بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

الثالث : الآن خَفَّفَ الله عنكم وفيه بشارة لكم ، وإنذار للذين كفروا وزجر لهم عن مواصلة غزو المدينة وقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : ذكر في النحو والإعراب أن (الواو) في (وعلم) ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾^(٢) ، أنها للعطف ولكن المختار أنها للعطف والإستئناف لأن علوم القرآن أعم من الصناعة النحوية ، فينظر لها مرة على أنها للعطف وأخرى للإستئناف وقد تكون للحال ، وكل له معنى خاص .

الخامس : الآن خَفَّفَ الله عنكم لكثرة عدد المسلمين وإصابة المشركين بالنقص ، فكلما دخل جماعة من الناس الإسلام نقص عدد المشركين ، وضعفت قوتهم .

فبعد أن ذكرت الآية السابقة ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ

(١) سورة يس ٨٢ .

(٢) سورة الأنفال ٦٦ .

يُغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴿١﴾ أي عشرة أضعافهم ، ذكرت هذه الآية مائة في مقابل مائتين ، أي نسبة واحد إلى اثنين ، تخفيفاً عن الصحابة في دفاعهم عن النبوة والتنزيل وفيه بشارة بتناقص عدد المشركين ، ثم ذكرت ألفاً بقوله ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢).

السادس : تتضمن كل من الآيتين الوعد من الله للمؤمنين بالنصر .
السابع : الآن خفف الله عنكم بعد رمي المشركين بالوهن وقتل طائفة من رجالاتهم ، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (٣) (٤).

الثامن : الآن خفف الله عنكم بيعث الخوف والرعب في قلوب المشركين ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْسَى الظَّالِمِينَ﴾ (٥) (٦).

التاسع : الآن خفف الله عنكم لأنه علم أن فيكم ضعفاً ، فاذا لاقى الواحد منكم ثلاثة من المشركين فله أن يفر منهم .

العاشر : الآن خفف الله عنكم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (٧).

(١) سورة الأنفال ٦٥.

(٢) سورة الأنفال ٦٦.

(٣) سورة آل عمران ١٢٧.

(٤) أنظر الجزء الواحد والتسعين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٥) سورة آل عمران ١٥١.

(٦) أنظر الجزء الثالث والعشرين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٧) سورة الأنفال ٦٠.

الحادي عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم بقلّة المِعارك .

الثاني عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم بيعث القنوط واليأس في قلوب المشركين فلا يغزونكم .

الثالث عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم بالنقص في إبل تجارة قريش لتلفها في المِعارك واطعام آلاف المقاتلين من حلفائهم من المشركين ، وتراكم الديون والربا عليهم .

الرابع عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم بكثرة الغنائم .

الخامس عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم بدخول رؤساء من الكفار في الإسلام وحسن إسلامهم .

السادس عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم بقلّة أعداء الإسلام .

السابع عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم في المعاشات والمكاسب ، فلا يختص موضوع الآية بميدان القتال ، وهو من أسرار ما أذهب إليه بأن الواو في ﴿وَعَلَّمَ أَنْفِيكُمْ ضَعْفًا﴾ للعطف والإستئناف.

الثامن عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم في أحكام الشريعة ، وتعدد الناسخ.

التاسع عشر : الآن خَفَّفَ الله عنكم في ميادين القتال بالتباعد في القتال وسرعة انقضاء المعركة فقد انقضت كل من معركة بدر ، ومعركة أحد ، ومعركة حنين ، بيوم واحد فتعاهدوا الفرائض الشرعية .

العشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم ولا يقدر على هذا التخفيف إلا الله سبحانه .

الواحد والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم مجتمعين ومتفرقين ، وفي سوح القتال والأمور العامة وإصلاح ذات بينكم ، وقد آخى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار في السنة الأولى للهجرة ، وتمت هذه المؤاخاة بالوحي ، وهي من التخفيف عن المسلمين .

الثاني والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم لتتفقهوا في الدين ، قال تعالى

﴿فَلَوْلَا فَرَّقَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ

لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١﴾.

الثالث والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم لترغيب الناس بدخول الإسلام .

الرابع والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم بالسنة النبوية التي هي شعبة من الوحي وإدراككم والناس ثبات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الميدان قبل وبعد النسخ بين هذه الآية والآية التي قبلها .
فمن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم يفارق مكانه في ميدان المعركة ، وفي معركة أحد وصلته حجارة المشركين ، واصيب بالجراحات ونادى ابن قمئة : قتلت محمداً .

الخامس والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم ليصاحب التخفيف المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة .

السادس والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم ، فاشكروا الله على نعمة التخفيف ، قال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ﴿٢﴾.

السابع والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣﴾.

الثامن والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم لبيان قانون الدنيا دار التخفيف عن المؤمنين والناس .

التاسع والعشرون : الآن خَفَّفَ الله عنكم شكراً من الله عز وجل لكم على صبركم وجهادكم في سبيل الله .

ومن أسماء الله (الشاكر) (الشكور) وفي التنزيل ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ

(١) سورة التوبة ١٢٢.

(٢) سورة إبراهيم ٧.

(٣) سورة فاطر ٣٠.

مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ^(١).

الثلاثون : الآن خفف الله عنكم بالمدد من عنده تعالى ، ومنه نزول الملائكة لنصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، إذ نزل ألف من الملائكة يوم بدر وكانت نسبة المسلمين إلى المشركين في الميدان نسبة واحد إلى ثلاثة ، قال تعالى ﴿إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ^(٢)﴾ ، كما نزل ثلاثة آلاف من الملائكة يوم معركة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة.

الواحد والثلاثون : الآن خفف الله عنكم لينصركم ويجعل ﴿كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا^(٣)﴾ ، لبيان أن كلاً من الآية الناسخة والمنسوخة وعد من الله بنصر المؤمنين ، وفي التنزيل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ^(٤)﴾ .
وأسأل الله عز وجل إصداري جزء من (معالم الإيمان) خاصاً بالتفسير بعلم التقدير ، في شواهد من القرآن ومنها ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ .

قانون الرؤيا بشارة ورحمة

من النعم الإلهية قانون مصاحبة رؤيا البشارات والإنذارات للناس في كل زمان ومكان ، فتأتي للبر والفاجر ، وهو من مصاديق تغشي رحمة الله للناس جميعاً ، وفيه دعوة للهداية والإيمان ، ومادة للرشاد والصلاح .
(وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^(٥)﴾ ، قال : الرؤيا الصالحة ييشر بها المؤمن ،

(١) سورة الأنفال ٣.

(٢) سورة الأنفال ٩.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

(٤) سورة الروم ٤٧.

(٥) سورة يونس ٦٤.

وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.
فمن رأى ذلك فليخبر بها واداً.

ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه ، فلينفث عن يساره
ثلاثاً وليسكت ولا يخبر بها أحداً^(١).

ومن معاني الرؤيا المكروهة من الشيطان وأضغاث الأحلام ما يوسوس
به الشيطان للإنسان في اليقظة والابتلاء الذي يلاقه فينعكس في عالم الرؤيا.
والحديث النبوي أعلاه من المتواتر إذ روي عن أبي الدرداء وعبادة بن
الصامت ، وعن جابر بن عبد الله بن رثاب .

و(عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
عن قوله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٢) ، قال : هي الرؤيا
الصالحة يراها المؤمن أو ترى له)^(٣) (تري له) أي يراه غيره في المنام.
وعن الإمام الباقر عليه السلام عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال (أتى
رجل من أهل البادية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول
الله أخبرني عن قول الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٤)).

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أما قوله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٥) فهي الرؤيا الحسنة ترى للمؤمن فيبشر بها في دنياه ،
وأما قوله (وفي الآخرة) فإنها بشارة المؤمن عند الموت ، إن الله قد غفر لك

(١) الدر المنثور ٢٥١/٥.

(٢) سورة يونس ٦٤.

(٣) الدر المنثور ٢٥٢/٥.

(٤) سورة يونس ٦٣-٦٤.

(٥) سورة يونس ٦٤.

ولمن حملك إلى قبرك^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال (لن تموت نفس مؤمنة حتى ترى رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه عليه السلام يدخلان جميعاً على المؤمن).

فيجلس رسول الله صلى الله عليه وآله عند رأسه وعليه عند رجله ، فيكب عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: يا ولي الله ابشر أنا رسول الله إني خير لك مما تركت من الدنيا .

ثم ينهض رسول الله صلى الله عليه وآله فيقوم علي عليه السلام حتى يكب عليه فيقول : يا ولي الله ابشر أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحب ، أما لانفعنك .

ثم قال : إن هذا في كتاب الله ، فقلت: أين جعلني الله فداك ، قال في يونس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ * لَّهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢﴾ (٣).

وتبين الآية الكريمة قانون مصاحبة البشارة للمؤمنين في النشاطين ، فالؤمن الذي يخشى الله بالغيب تأتية الرؤيا الحسنة ، وبما يبعث السكينة والطمأنينة في نفسه).

لتكون الرؤيا مدداً للمسلم وغير المسلم في تنزيه جوارحه عن التعدي والظلم والإرهاب لقانون الإرهاب خلاف التقوى ، ومن لطف الله عز وجل بالناس مجئ أسباب التقوى للمسلم في اليقظة والمنام .

وهل كانت الرؤيا الصادقة عوناً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والمهاجرات والذين أودوا في سبيل الله ، الجواب نعم ، وفيها مسائل :

(١) الدر المنثور ٢٥١/٥.

(٢) سورة يونس ٦٣-٦٤.

(٣) البحار ٢٣٧/٣٩.

الأولى : الرؤيا الصادقة مناسبة للدعاء والصدقة بتقريب النفع والخير.

الثانية : الرؤيا مقدمة لدفع الأذى والشر.

الثالثة : قانون بعث الرؤيا الصادقة للمبادرة إلى الدعاء لتحقيق رؤيا

البشارة ، وصرف رؤيا الإنذار ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

الرابعة : الرؤيا نعمة ومناسبة للحيطة والحذر ، وإخراج الصدقة لمحو البلاء والضرر .

تفسير ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾

قال تعالى ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

اختار الفضلاء في بحث التفسير لهذا اليوم الثلاثاء الرابع والعشرين من

الشهر الأخير من السنة الرابعة والعشرين بعد الألفين للميلاد آية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ

لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) ، لتفسيرها تفسيراً ارتجالياً من غير تحضير

واستعداد له مع أن الجزء الثاني من تفسيري (معالم الإيمان) يتضمن

تفسيرها وهي الآية الثانية من سورة البقرة بعد البسملة وقوله تعالى ﴿الْم﴾

من الحروف المقطعة.

وهذه السورة هي أكثر سور القرآن في عدد الآيات ، وآياتها (٢٨٦) آية

وجاء في نظم القرآن بعد سورة الفاتحة مباشرة مع أن نزولها في المدينة بعد

هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ليبان أن نظم سور القرآن توقيفي بأمر من جبرئيل وتوجيه النبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم وليس حسب تأريخ النزول.

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة البقرة ٢.

فاغلب السور المكية في الربع الأخير من القرآن والتي تتصف بالقصر ولغة الإنذار والوعيد وذكر النار لبعث الخوف في قلوب المشركين واقامة الحجة عليهم ، ولنزول السكينة على الصحابة الذين اختاروا الإيمان . ولم يرد لفظ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في القرآن إلا في هذه الآية لبيان المنزلة الرفيعة للقرآن من بين الكتب السماوية .

و﴿ذَلِكَ﴾ اسم إشارة للبعيد وكلمة مركبة من :

الأول : اسم الإشارة (ذا) وحذف الألف لدخول اللام عليه .

الثاني : لام البعد .

الثالث : كاف الخطاب .

و(ذا) للقريب ، و(ذاك) للمتوسط ، و(ذلك) للبعيد .

ويقال للمشي القريب (ذانا) و(ذانك) للمتوسط ، قال تعالى ﴿فَذَانِكَ

بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١) ، وللبعيد (ذَانِكَ) بالتشديد .

وصيغة البعد في ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ للإكرام وبيان عظيم شأن القرآن ، قال

تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٢) .

التفسير بالتقدير ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾

وهو علم استحدثه في علم التفسير للتيسير ، وتقريب وتجلي المعنى ،

وفيه وجوه :

الأول : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وهو القرآن .

الثاني : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي أنزله الله عز وجل على النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة القصص ٣٢ .

(٢) سورة الحشر ٢١ .

الثالث : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الباقي إلى يوم القيامة .

الرابع : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ المتعبد بتلاوته ، السالم من المعارضة ، المقرون بالتحدي .

الخامس : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي جعله الله ﴿نُبِيَّانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) .

السادس : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الجامع لأحكام الشريعة في العبادات والمعاملات .

السابع : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي في تلاوة كل حرف منه عشر حسنات .

الثامن : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ بيان للناس وهدى للمؤمنين .

التاسع : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ كلام الله .

العاشر : يا أيها الناس ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فآمنوا به .

الحادي عشر : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هو الصراط المستقيم .

الثاني عشر : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي ينجي صاحبه من ضغطة وعذاب القبر .

الثالث عشر : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي يقود صاحبه إلى اللبث الدائم في النعيم .

ويمكن التفسير بالتقدير أيضاً لقوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وآخر له ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

وهل في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ بخصوص القرآن إنذار للذين كفروا في قلبهم في البلاد .

الجواب نعم ، إذ تلاحقهم آيات القرآن بالتبكيك والذم على إختيار الكفر والجحود بالنبوة وذات آيات القرآن مع دلالة الآية على ترتب الأثر والنفع العام من آيات القرآن.

ومن معاني إكرام القرآن الشهادة من عند الله عز وجل بنزوله من عند الله ، لبيان عصمة الناس من الشك بنزول القرآن أو الإرتياب في كونه كلام الله .

ويتوجه الخطاب في الآية الكريمة إلى الناس جميعاً ، ومنهم الذين كفروا.

ومن إعجاز القرآن الغيري رؤية الذين كفروا في قلوبهم في البلاد أناسا يصدقون بنزول القرآن من عند الله ، ويعملون بأحكامه وسنته .

ليكون من معاني قوله تعالى في آية البحث ﴿لَا يَفْرَكُ﴾ إصابتهم بالوهن والكد والحسرة أثناء سفرهم لإزدياد أعداد الناس المسلمين والذين يصدقون بنزول القرآن .

السنة التدوينية / مصطلح جديد

السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع ، وتقسم السنة إلى ثلاثة أقسام :
الأول : السنة القولية : وهي قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

الثاني : السنة الفعلية : وهي ما صدر من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فعل مثل أوامره ونواهيه ، وكيفية وضوئه ، وأدائه الصلاة ، لذ قال (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(٢).

وإتيانه مناسك الحج وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (لتأخذوا عني مناسككم)^(٣) .

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) البيهقي / السنن الكبرى ٣٤٥/٢ .

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٤٤٢/٤.

وفيه إعجاز وهو دلالة هذين الخبرين على علم النبي ببلاغ سنته الفعلية في العبادات إلى أصحابه وأجيال المسلمين المتعاقبة ، ومنه تدوين سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

كما تشمل السنة الفعلية ترك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأفعال منهى عنها مع القصد وقيام الداعي .

الثالث : السنة التقريرية : وهي سكوت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند سماعه قولاً ، أو لرؤيته فعلاً بحضوره ولم ينكره وبما يدل على إمضائه له وكذا لو علم به ولم ينه عنه .

الرابع : أضيف قسماً رابعاً لأفراد السنة وهو السنة التدوينية وهي الكتب والعهود والفرائض التي كتبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والهبات التي وثقت بالكتابة وشهادة الصحابة ومنها صلح الحديبية . ومن الآيات في الكتب ذكر اسم الكاتب والصحابي الذي كتب الكتاب ، إذ يكتب اسمه في الصحيفة .

وقد كتب الإمام عليه عليه السلام صلح الحديبية كما في تأريخ دمشق وغيره من الكتب.

وفي حديث قال (فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن ابن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة ومكرز بن حفص، وهو يومئذ مشرك، وعلي بن أبي طالب، وكتب، وكان هو كاتب الصحيفة).^(١) أي أن الإمام علي عليه السلام جمع بين كتابته للصحيفة وشهادته عليها و(كان حويطب بن عبد العزي يقول انصرفت من صلح الحديبية وانا مستيقن ان محمدا سيظهر)^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٢٢.

(٢) الخصائص الكبرى ١/٤١٥.

(وفي نزهة الناظر: كان فخر الدين ابن الخليلي صادر الأمير سنقر الأعسر^(١) ونكل به نكالا كثيرا على ما تقدم، ولما وزر الأعسر خشى فخر الدين على نفسه من النكال والإخراق .

فسير إلى الأمير سلار ودخل عليه، وعرفه أن الأعسر متى تمكن منه حصل عليه كل سوء، وكان بين فخر الدين وبين سلار صحبة أكيدة من أيام السلطان الملك الصالح، فإنه كان ناظر ديوانه وسلار أمير مجلس، وكان يخدمه ويهاديه .

ثم سير إليه خط الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يذكر فيه: من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى تميم الداري وذريته هذا ما أعطاه محمد رسول الله لتمييم الداري وذريته جيروم والمرطوم وبيت عيون وبيت إبراهيم وما فيهن وسلمت ذلك إليهم ولأعقابهم .
فمن أذاهم أذاه الله ومن لعنهم لعنه الله .

شهد بذلك عتيق ابن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وكتبه علي بن أبي طالب، فلما رأى سلار ذلك الخط أخذه ودخل على السلطان وعرفه أن هذا الرجل من أهل بيت كبير وذرية صالحة موصاة بوصية النبي عليه السلام وأخرج له الخط .

فلما رآه السلطان نهض إليه وقبله ووضع على رأسه وقال: السمع والطاعة، قبلت أمر رسول الله عليه السلام، ثم طلب الأعسر وعرفه بذلك . فأخذ الوزير في منع هذا وقال: لم يعقب تميم الداري، وربما يكون هذا مفتعلا، فقال السلطان: ما بقى إلا مكان للتعرض إلى هذا بوجه من الوجوه، وإن كان ما تقول صحيحا .

فخرج الوزير من عنده وطلب ابن الخليلي إليه وأكرمه، وقال له على شيء يحمله يرضاه، فاتفق معه على حمل ثمانين ألف درهم وأفرج عنه^(٢) .

(١) الأمير شمس الدين سنقر من كبار الأمراء المماليك في مصر والشام ركب الأهوال ونكب ، وتوفى سنة (٧٠٩) هجرية .

(٢) العيني / عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٣٠٩/١ .

ليان حفظ المسلمين لكتب وعهود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإكرام الأمراء لها .

لقد كانت كتب وعهود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعوة فعلية للمسلمين والناس جميعاً بعدم الإفتتان بما في أيدي المشركين ، وشاهداً على تحول الشأن والإمارة إلى المسلمين .

من وثائق السنة التدوينية

(قالوا: وقدم على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، مطرف بن الكاهن الباهلي بعد الفتح وافداً لقومه فأسلم وأخذ لقومه أماناً، وكتب له رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، كتاباً فيه فرائض الصدقات .

ثم قدم نهشل بن مالك الوائلي من باهلة على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وافداً لقومه فأسلم .

(قالوا قدم نهشل بن مالك الوائلي من باهلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وافدا لقومه فأسلم وكتب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولمن أسلم من قومه كتابا فيه شرائع الإسلام وكتبه عثمان بن عفان)^(١).

وعندما أراد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعث كتب إلى ملوك عصره كقيصر وكسرى والمقوقس وملك الحبشة وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام قيل له إن العجم لا تقبل إلا الكتاب المختوم فاتخذ خاتماً مصنوعاً من الفضة وكتب عليه من الأعلى الله ، وفي السطر الثاني رسول ، وفي الثالث محمد ، لكي تقرأ من الأسفل : محمد رسول الله ، فأبى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون اسمه فوق اسم الله .

(١) تاريخ دمشق ٣٤٥/٤ .

و(عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الْعَجَمِ قِيلَ لَهُ : إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا كِتَابًا عَلَيْهِ خَاتَمٌ ، فَاصْطَنَعَ خَاتَمًا فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي كَفِّهِ) (١).

وكان النبي يتختم به باليد اليمنى وأحياناً باليسرى .

إن فصل السنة التدوينية عن السنة القولية ، واستقلالها باب لدراسات ومجلدات مستحدثة عن كتب وعهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأجوبيته على الأسئلة والاستفتاءات ، وكتبه إلى الولاية في مكة وفي اليمن ونجران وغيرها.

النفخ في الصور نفختان

قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٢).

القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وسمي النفخ الأول بالصيحة في قوله تعالى ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٣) ، وقال تعالى ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٤).

وهل يمكن القول باحتمال أن الصيحة غير النفخ في الصور ومصاحبة له ، الجواب نعم .

وورد حديث عن أبي هريرة يرفعه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه لعرض السموات والأرض فينفخ فيه النفخة الأولى فيصعق من في السموات ومن في الأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون لرب العالمين فيأمر الله إسرافيل عليه السلام

(١) الترمذي / الشمائل ٨٩/١ .

(٢) سورة الزمر ٦٨ .

(٣) سورة يس ٤٩ .

(٤) سورة يس ٢٩ .

في النفخة الأولى أن يمدها ويطولها فلا يفتر وهو الذي يقول الله ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ص ١٥ فيسير الله الجبال فتكون سرايا وترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموسقة في البحر تضربها الرياح تنكفاً بأهلها كالفناديل المعلقة بالعرش تميلها الرياح وهي التي يقول الله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة^(١).

والنفخ هو إخراج الهواء من الفم ليخرج صوتاً. وورد ذكر (النفخ في الصور) في عشر آيات من القرآن ستة بخصوص الصيحة الأولى وثلاثة بخصوص النفخة الثانية وتسمى نفخة البعث ، وواحدة جامعة لهما وهي الآية المتقدمة ، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَى﴾^(٢).

وذكر النفخة الأولى ضعف النفخة الثانية للدلالة على لزوم استعداد الناس لها بالتقوى كما أنها ذكرت بلفظ الصيحة .

وورد ذكر النفخة الثانية أيضاً في قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(٣).

والصور كهيئة البوق الكبير لا يعلم سعته ودائرته إلى الله عز وجل ، وقيل هو جمع صورة. والنفخ في الصور من أشراط الساعة ، والإيمان به واجب ولا يشترط العلم بالتفاصيل .

وفي مرسله قتادة قال (ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : تهيج الساعة الناس والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يقيم سلعته في سوقه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، فتهيج بهم

(١) الدر المنثور ٨/ ٤٨٠ .

(٢) سورة الزمر ٦٨ .

(٣) سورة يس ٥١ .

وهم كذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١) قال :
اعجلوا عن ذلك^(٢).

ومن معاني ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ لزوم كتابة المسلم والمسلمة وصيته ،
لوجوه :

الأول : عدم علم الإنسان بأجله ، وساعة موته .

الثاني : جهل الناس عامة بأوان النفخ في الصور ، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ

عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

الثالث : الأجر والثواب بذات كتابة الوصية في مرضاة الله ، وتهئية
مقدمات تنفيذ الأحياء لها .

والمختار أن النسبة المنطقية بين التوصية والوصية عموم وخصوص مطلق
فالتوصية أعم ولا تنحصر بالتركة وثلاث الميتم .

وذكر أن المراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾^(٤) والمراد
من الراجفة الصيحة الأولى إذ ترجف بالناس وترجف الأرض والسموات .
والرجف : شدة الحركة ، فيموت الأحياء إلا من شاء الله كجبرئيل
وميكائيل وملك الموت ليموتوا بعدها على نحو التعيين .

أما الرادفة فهي النفخة الثانية وتأتي بعد النفخة الأولى بأربعين كما في
الحديث من غير تعيين للأربعين وفيها بعث الموتى للحساب .

(١) سورة يس ٥٠.

(٢) الدر المنثور ٣٠٦/٨ .

(٣) سورة الأعراف ١٨٧.

(٤) سورة النازعات ٦-٧.

و(عن أبيّ بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : يا أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه)^(١).

وآيات النفخ في الصور إنذار للذين كفروا وتنقيص لهم في قلوبهم في البلاد ، إذ أنها تبعث على ذكر الموت وهو نوع صراط وطريق للإيمان .

الملك إسرافيل

الملك الذي ينفخ في الصور هو إسرافيل ، وينتظر هذا النفخ ، وفي وصف إسرافيل ورد (عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تتفكروا في عظمته^(٢) ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة ، فإن خلقاً من الملائكة يقال له : إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سماوات وأنه ليتضأل من عظمة الله تعالى حتى يصير كأنه الوضيع)^(٣).

وإسرافيل متهيب في كل ساعة للنفخ في الصور ينتظر الأمر من الله عز وجل .

و(عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه ، وحنى جبهته ، وأصغى بسمعه ينتظر متى يؤمر فينفخ ، قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل)^(٤)، أي قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

ويموت كل الخلائق عند النفخة الأولى إلا من شاء الله أن يبقيه إلى أجل آخر كجبرئيل وملك الموت ، وتأتي هذه النفخة للناس على حين غفلة .

(١) الدر المنثور ١٩٠/١٠ .

(٢) أي في عظمة الله .

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ٤٧٤/١١ .

(٤) الدر المنثور ٨١/٤ .

أما النفخة الثانية فانها توقظ الأموات وهي إعلان ابتداء خروج الموتى من قبورهم وحشرهم إلى أرض المحشر .

ولا يعلم الفترة بين النفختين إلا الله ، وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها أربعون وأنه أبى أن يحدد هل هي أربعون يوماً ، أو أربعون شهراً ، أو أربعون سنة ، مما يدل على احتمال حساب أخروي آخر .

لذا سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن النفختين في الصور كم بينهما ، فقال ما شاء الله .

وقال : وللصور طرفان بينهما مثل ما بين السماء والأرض ، طرف إلى الأرض ، والآخر إلى السماء .

الوجوه والنظائر في القرآن

قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا لِتُزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١).

الحمد لله الذي أنزل القرآن باللغة العربية ، ومن خصائص اللغة العربية مجئ اللفظ المتحد للمعنى المتعدد ، والذي يسمى المشترك اللفظي ، وهو اتفاق المباني وافتراق المعاني .

أما المشترك المعنوي فهو لفظ يدل على معنى كلي عام يدل على أعيان متعددة ، وهو حقيقة كلية موجودة في أفراد متعددة ، سواء كانت متساوية وبعرض واحد أو متفاوتة مثل الإنسان ، الكتاب ، الفرس ، والكلمة مثلاً مشترك معنوي لأنها تقسم إلى اسم وفعل وحرف .

والمشهور كمثال للمشارك اللفظي هو لفظ العين الذي يراد منه معاني متعددة ، فإذا قلت (أصبيت عين الأمير)^(٢) فقد يراد منه :

الأولى : عينه الباصرة .

(١) سورة الشعراء ١٩٢-١٩٥ .

(٢) هذا المثل مستحدث هنا .

الثانية : نفس الأمير .

الثالثة : عينه الجارية .

الرابعة : نقده وماله .

الخامسة : جاسوس الأمير .

السادسة : رابية الأمير .

وتفرع عنه علم الوجوه والنظائر والمراد ورود لفظ واحد بحركة واحدة ، في آيات من القرآن ، وفي كل آية له معنى مخصوص غير المراد في آية أخرى ، والوجوه هي المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ، والنظائر أسماء الألفاظ منها مثلاً كلمة آية.

فالنظائر في اللفظ ، والوجوه في المعاني ولا ينطبق الإصطلاح على المعنى المقصود ولكنه شائع بين ذوي الإختصاص وإلا فان اللفظ متحد ووجوهه أي معانيه متحدة فجمع النظائر لا ينطبق على هذا العلم إلا على نحو الشائع والمتعارف .

وهو فرع إعجازي للمشترك اللفظي فقد ترد الكلمة الواحدة في القرآن وتنصرف إلى عشرين وجهاً أو أقل ، ولا يوجد هذا في كلام البشر وهو من أسرار بقاء علوم القرآن وتجدها في كل زمان.

وقال أبو الدرداء (إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً)^(١).

و(عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس يحدث عن الخوارج الذين أنكروا الحكومة فاعتزلوا علي بن أبي طالب قال : فاعتزل منهم اثنا عشر ألفاً ، فدعاني علي فقال : اذهب إليهم فخاصمهم ، وادعهم إلى الكتاب والسنة ، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذوو وجوه ، ولكن خاصمهم بالسنة .

وأخرج ابن سعد عن عمران بن مناح قال : فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم . في بيوتنا نزل فقال : صدقت ، ولكن القرآن جمال ذو وجوه يقول . . . ويقولون . . . ولكن حاججهم بالسنن

فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً . فخرج ابن عباس إليهم ، فحاججهم بالسنن ، فلم يبق بأيديهم حجة^(١) .

(وفي الحديث : أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين .

وفي رواية : من أراد العلم فليثور القرآن)^(٢) .

وهو من إعجاز القرآن بتعدد الوجوه والمعاني للكلمة فيه .

مثال على الوجوه والنظائر

من الأمثلة على الوجوه والنظائر في القرآن كلمة (آية) وهي على

وجوه:

الأول : الآية القرآنية وهي الجملة والكلمات المحصورة والمحدد أولها

وأخرها في القرآن بعلامة ، قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَرِّبٌ لَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) ، فقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) ، آية

، و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) آية .

وعدد آيات القرآن هو (٦٢٣٦) آية ، وتؤلف ١١٤ سورة هي مجموع سور

القرآن ، وتقسم سور القرآن تقسيماً استقرائياً إلى مكية أي نزلت قبل هجرة

النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومدنية أي نزلت بعد هجرته المباركة

وان كان نزولها في مكة على المشهور كما في قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ

مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٦) .

(١) الدر المنثور ١٠/١ .

(٢) ابن عادل / تفسير الباب ٣٧٥/١ .

(٣) سورة النحل ١٠١ .

(٤) سورة الفاتحة ٢ .

(٥) سورة الفاتحة ٣ .

(٦) سورة المائدة ٣ .

الثاني : المعجزة : وهي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي ، السالم من المعارضة ، منها سفينة نوح ، والناقة معجزة صالح وفي التنزيل ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾^(١) ، وعصا موسى ، وإبراء عيسى عليه السلام للأكمة والأبرص ، ومنها معجزة الإسراء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته الحسية والعقلية الأخرى .

الثالث : العلامة كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٢) ، وفي زكريا ورد في التنزيل ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آتِيكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٣) .

الرابع : الآيات الكونية منها قوله تعالى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾^(٤) ، فقد اثنى الله عز وجل على نفسه في بابداعه النظام الكوني وتقسيم أفراد الزمان إلى ليل ونهار .

الخامس : الحكم والأمر أو النهي قال تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥) .

(١) سورة الأعراف ٧٣ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٨ .

(٣) سورة آل عمران ٤١ .

(٤) سورة الإسراء ١٢ .

(٥) سورة البقرة ١٠٦ .

السادس : البنيان وإنشاء الإنسان ما يفوق المتعارف والتتاج العملي والصناعي المتطور لذا قال الله في عاد قوم هود ﴿أَتُنْزِلُ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبُوثٌ﴾^(١) .

وقال الله بعدها ﴿وَتَّخِذُوا مَصَاحِبَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾^(٢) ، والريح : الطريق ، والفج بين الجبلين لإفادة توسع البنيان والمدن عندهم ، والبناء بين الجبال .

السابع : الأمر العجيب ، قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٣) .

الثامن : البرهان والدليل ، قال تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الثَّقَاتِ تَقَاتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٤) .

وآية البحث من آيات التنزيل ، وما يترشح عنها آية من عند الله ، إذ تلقاها المسلمون والمسلمات بالإمثال والإعراض ، وعدم الالتفات لما في أيدي المشركين من الأموال والجاه ، والصدود عن إغرائهم ومحاولاتهم ترك بعض المسلمين لدينهم ، وهذا الصبر من آيات الله ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٥) .

(١) سورة الشعراء ١٢٨.

(٢) سورة الشعراء ١٢٩.

(٣) سورة الكهف ٩.

(٤) سورة آل عمران ١٣.

(٥) سورة آل عمران ٢٠٠.

وتحلي المسلمين بالصبر آية ، وكذا تآزرهم في المصابرة ، والمرابطة في الثغور ، وفي انتظار أوان الصلاة اليومية كصلاة الظهر وانتظر الآن صلاة الفجر مع أن بيني وبين أذانها أكثر من ساعة ، قال تعالى ﴿وَالْأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١) ، ومن الآيات أيضاً صبغة التقوى التي يتصف بها المؤمنون .

قانون خرائن كلمات القرآن أعم من أن تحيط بها قواعد النحو

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) .

وفي علم النحو تقسم (أل) إلى أقسام :

الأول : (أل) العهدية : التي تدخل على النكرة فتطرد عنها الإبهام وتجعل مدلولها فرداً معيناً محدوداً ، كما في قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ﴾^(٣) ، فالمراد من الرسول في الآيتين أعلاه هو موسى عليه السلام .

الثاني : (أل) الإستغراقية : التي تفيد بيان الحقيقة والشمول والعموم والتي تأتي (كل) بدلاً عنها ، ومنها ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٤) أي كل فرد من الناس .

(١) سورة الذاريات ١٨ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة المزمل ١٥-١٦ .

(٤) سورة النساء ٢٨ .

الثالث : (أل) الجنسية : فهي التي لا تأتي (كل) بدلاً عنها إنما تبين الحقيقة والماهية مثل لفظ الماء في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(١).

والمختار أنه قد تأتي (أل) في القرآن للعهد والإستغراق معاً ، كما في آية الخلافة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢).

فمن الناس من يكون ملكه وخلافته بخصوص داره وبستانه ومنهم من يكون سلطانه على بلدة أو دولة حاكماً فيها ، أو على زراعات وخزائن في الأرض أو يقوم بكتابة الدستور ، وتشريع القوانين أو الحكم بين الناس . ومنهم من ينتقل في البلاد كما في آية البحث لتكون الخلافة في الأرض من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة .

كما تشمل الآية ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) العهد لإرادة آدم عليه السلام والإستغراق بخلافة الرسل والناس في جنس الأرض مطلقاً ، والتي تأتي كل بدل (أل) في المقام وتقديره : اني جاعل في كل الأرض خليفة.

ومن ذخائر القرآن أن معانيه ودلالة ألفاظه أعم من أن تحيط بها القواعد النحوية .

وعن أبي الأسود الدؤلي (دخلت على علي بن أبي طالب فرأيتَه مطرقاً متفكراً فقلت فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن اصنع كتاباً في أصول العربية .

فقلت : إذا فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة ثم أتيت بعد ثلاث فألقى إلي صحيفة فيها :

(١) سورة الأنبياء ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .

ثم قال لي : تتبعه وزد فيه ما وقع لك واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر .

ولنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر .

قال أبو الأسود : فجمعت عنه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها أن وأن وليت ولعل ، وكأن ، ولم أذكر لكن فقال لي : لم تركتها ؟ فقلت لم أحسبها منها فقال : بلى هي منها فزاد لي فيها .

عن صعصعة بن صوحان قال : جاء أعرابي إلى علي ابن أبي طالب فقال : يا أمير المؤمنين كيف تقرأ هذا الحرف لا يأكله إلا الخاطون كل^(١) والله يخطو فتبسم علي وقال (لا يأكله إلا الخاطون) قال : صدقت يا أمير المؤمنين ما كان الله ليسلم عبده ثم التفت علي إلى أبي الأسود الدؤلي فقال : إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم فرسم له الرفع والنصب والخفض^(٢) .

ولم يرد لفظ (الخطاؤون) بصيغة جمع المذكر السالم المرفوع في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وورد في القرآن مرة واحدة بصيغة الاسم المجرور في قوله تعالى ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(٣) .

(١) أي كل الناس يمشون ويخطون الخطى فهل جميعهم سوف يأكلون من هذا الطعام .

(٢) كنز العمال ٥٠١/١٠ .

(٣) سورة يوسف ٢٩ .

ومن الإعجاز في الجمع بين الآيتين بيان ماهية الخاطئ وأنه يشمل النساء الخاطئات أيضاً في الميل عن طريق الحق في الدنيا ، وكيفية العقوبة الخاصة به في الآخرة .

وورد في معنى الغسلين عن (ابن عباس: هو صديد أهل النار)^(١).

من معاني الخلافة في الأرض

من مصاديق التعدد والشمول المستحدث هنا في معاني (أل) في الأرض وجوه :

الأول : (أل) شمول أحوال البشر المختلفة في الأرض ، ونيلهم الكمالات والإستقلال الشخصي .

الثاني : فضل الله عز وجل في إكرام الناس إكراماً خاصاً لكل فرد منهم ، وإكراماً عاماً .

الثالث : حتى الذي ليس له ملك في الأرض فان تنقله وتقلبه في البلاد من عمومات الخلافة في الأرض ، فيلزمه الشكر لله عز وجل على هذه النعمة .

الرابع : دعوة الناس للتأخي والتراحم بينهم بلحاظ قانون الخلافة في الأرض سور الموجبة الكلية .

الخامس : هل اقتناء الأموال والذهب والفضة من الخلافة في الأرض أم أن القدر المتيقن منها هو التصرف في الأرض ، الجواب هو الأول .

السادس : الحكم بين الناس من الخلافة في الأرض .

السابع : توارث الناس الخلافة في الأرض ، فاذا أعطى الله فانه يعطي بالآتم والأوفى .

الثامن : النبوة أسمى مراتب الخلافة في الأرض ، والتي يلزم الناس الإنقياد لها ، وقد ورد لفظ (خليفة) مرتين في القرآن احدهما في الآية أول

البحث ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

(١) الطوسي / التبيان في تفسير القرآن ١٠٢/١٠ .

أما الثانية فهي بخصوص النبي داود ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٢) والمراد من الحق في الآية الوحي ، والتنزيل ، والعدل والإنصاف .

ليبان أن الخلافة غير الحكم الذي هو فرع منها .

التاسع : من خلافة الإنسان الفطرة في تعاهد النسل واستدامة وراثته الأرض به .

قال ابن عباس : لم يمت آدم عليه السلام حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، ورأى آدم عليه السلام فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد^(٣) . أقول : لقد رأى في أولاده الصليبين قتل قابيل لأخيه هابيل مع قلة النسل آنذاك ، وخشية آدم وحواء من إنقراضه ، وهذه الخشية عند الإنسان فطرية ، وهي من رشحات قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) .

ومن فطرة الإنسان إدراك قانون الخلافة في الأرض أمانة دنيوية يترتب عليها الحساب في الآخرة ، قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٥) .

ولم يحفظ الذين كفروا أمانة الخلافة ، ومن شرائطها الإقرار بالتوحيد والنبوة والتنزيل واليوم الآخر ، والشكر لله على نعمة الثقلب في البلاد وأمصار الأرض ، ولكنهم اتخذوها وسيلة لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة ص ٢٦ .

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ٦٤/٥ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

(٥) سورة الأحزاب ٧٢ .

فنزلت آية البحث لتذكيرهم بنعمة التقلب في الأرض وكثرة الأسفار ،
وأنها إلى زوال عند الإقامة على الكفر والجحود .

فلا بد أن يعمر الإنسان الأرض بذكر الله وعبادته ومصاديق الصلاح ،
وبالتناسل والتكاثر والانتشار والتنقل فيها ، فاتخذ الذين كفروا هذه النعمة
لنشر مفاهيم الضلالة ، وإشاعة المعصية ، وتكذيب الأنبياء ، والإستهزاء
بالصالحين .

ثم تبادت قريش واتخذوا من التقلب في الأمصار وسيلة للإفتراء على
النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سخرُوا أموال وإبل التجارة لمحاربته في
معركة بدر ، وأحد ، وحنين ، وغيرهما ، فرماهم الله بالوهن وتعطيل
التجارة والخسارة .

فصاروا بين أمرين ، أما دخول الإسلام وهو الحق ، أو سلب التقلب
منهم وملاحقتهم .

العاشر : قانون جحود الذين كفروا والمشركين مطلقاً بنعمة الخلافة في
الأرض ومنها تقلبهم في البلاد ومقدمات هذه الخلافة ، وفي ذمهم قال تعالى
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١) .

من معاني الأرض

ذكرت الأرض هنا من باب المثال في كنوز القرآن ، لتكون (أل) في قوله
تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) على وجوه :

الأول : تفيد (أل) العهد .

الثاني : تفيد (أل) الإستغراق .

الثالث : تفيد (أل) الجنس .

في آن واحد بحسب القرائن ومضامين التنزيل وهو غير علم الوجوه
والنظائر الذي هو فرع علم التفسير ، والمراد منه الكلمة المتكررة في أكثر من

(١) سورة إبراهيم ٣٤ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

موضع ، ويكون لها معنى في موضع يختلف عن معناها في الموضع والآية الأخرى ، مثل لفظ (أمة) ولفظ (البر) ولفظ (أهل) وتقدم لفظ (العين) وجئت بمثل (اصيبت عين الأمير).

ولكن الذين كفروا جحدوا نعمة الخلافة في الأرض ، وتسخير الرواحل والسفن لتقلهم فيها ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾^(١).

لفظ (الناس) في آية واحدة

لا ينحصر علم الوجوه والنظائر في ورود لفظ معين في مواضع من عدة آيات بل قد يرد متعدداً في آية واحدة مع اختلاف معناه في تلك الآية ومنه لفظ (الناس) جمع يفيد الإستغراق ولكنه ورد في آية واحدة بالنص (الناس) وبالأسم الموصول (الذين) وبالإضمار والمراد من كل واحدة منها غير المراد في الأخرى بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢).

وورد لفظ (الناس) مرتين في الآية أما من جهة المعنى فهو متعدد أربع مرات وتقديره: الناس الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم (الناس).

وموضوع نزول الآية أعلاه هو إظهار جيش المشركين المنسحب من معركة أحد الندم على عدم قتلهم النبي وعدم أسر أصحابه ، ولا سبي النساء فتناجوا بالرجوع للإغارة على المدينة ، وأبطل الله كيدهم ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٣).

ولما علم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنواياهم خرج إليهم حتى وصل حمراء الأسد وليس معه إلا مائتان ونيف من أصحابه .

(١) سورة الزخرف ١٥.

(٢) سورة آل عمران ١٧٣.

(٣) سورة الإنفال ٣٠.

وصحيح الآية أعلاه مكية ولكن مصاديقها وصرف الله عز وجل لمكر الذين كفروا متصل ، وهو الذي تدل عليه صيغة المضارع في الآية الكريمة ، والشواهد المتعددة ، ومنها وقائع معركة بدر ، ومعركة أحد ، والخندق ، وحنين.

أما لفظ الناس الأول أعلاه فيعود للمهاجرين والأنصار، وأما الثاني فيعود لنعيم بن مسعود وركب عبد قيس ، وللركبان وأهل القرى في الطريق بين مكة والمدينة الذين حذروا المسلمين .

والمقصود من الثالث هم رؤساء الكفر من قريش، وأما الناس الذين جمعوا فالمراد عامة الجيش الذي زحف من مكة أو الذين التحقوا بهم في الطريق .

كما يمكن تقدير الآية : ان الناس قد جمعوا لكم الناس (ولكن موضوع الجمع أعم من الناس ، لبيان رؤية الناس لعدة ورواحل وأسلحة جيش الذين كفروا.

ولكن القرائن الحالية تفيد أنه ليس من مدد للمشركين إنما جمعوا ذات الناس الذين حضروا معهم معركة أحد والأسلحة التي معهم يومئذ ، لتكون القرينة الحالية تخفيفاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بانتفاء المدد عن جيش المشركين .

وقد بيته في الجزء الثاني والستين بعد المائة من تفسير (معالم الإيمان) من تفسيري للقرآن الخاص بهذه الآية الكريمة.

قراءة في «الصلح خير»

الواو : حرف اعتراض مبني على الفتح .

الصلح : مبني مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره .

خير : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة .

و(خير) اسم تفضيل مما يدل على تقدير المفضول من وجوه كثيرة منها ما هو ثابت في كل زمان ، ومنها ما هو مستحدث في زمان ومكان آخر .

وقد صدر لي الجزء الستون بعد المائتين من (معالم الإيمان) بخصوص قانون (آيات السلم محكمة غير منسوخة) والذي بخصوصه الأجزاء :

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨

٢٤٩ ، ٢٦٠

وجميع أجزاء هذا التفسير المبارك وكتبي الفقهية والأصولية على موقعنا www.marjaiaa.com وأطبع أجزاءه المتعاقبة على نفقتنا الخاصة مع أنه وقد أسست علماً جديداً في التفسير وهو التفسير بالتقدير يفتح أبواباً من العلم ، وفيه إنشاء قوانين مستنبطة من مضامين آيات القرآن التي تتعلق بالقتال والسلم والصلح .

ويدخل في التفسير الذي سميته (التفسير المعجزة) بتقدير الصلة بين كل آية قرآنية ابتداء بالبسملة ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) مع كل آية من القرآن على نحو الإستقلال.

ومن إعجاز قوله تعالى ﴿وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾ الغيري مظاهر البهجة أوان عامة الجنود والناس عند عقد الصلح وكأنهم ينسون في تلك الساعة الدماء التي سالت والأموال التي ذهبت .

ومن الآيات أن كل طرف يدعي أن الصلح نصر له .

ومن إعجاز القرآن تسمية صلح الحديبية بأنه فتح مبین ، قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢).

والالف واللام في (الصلح) لإفادة الجنس والإستغراق والعهد وإن وردت الآية بخصوص الزوجية .

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة الفتح ١.

إذ تقسم الألف واللام إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الألف واللام للعهد ، كما في قوله تعالى ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ

الرَّسُولَ﴾^(١) أي موسى عليه السلام.

الثاني : الألف واللام الإستغراقية والتي تأتي (كل) بديلاً عنها مثل

الألف واللام في ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٢).

الثالث : الألف واللام لبيان الحقيقة والماهية مثل الألف واللام في الماء

بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٣).

والمختار أنه المستحدث قد تجتمع اثنان منها في كلمة واحدة في القرآن ،

وقد تجتمع الثلاثة كلها في الألف واللام في (الصلح) في الآية أعلاه ،

ولكل فرد منها معنى مخصوص.

وعن ابن عباس في الآية (هي المرأة تكون عند الرجل وله امرأة غيرها

أحب إليه منها فيؤثرها عليها ، فأمر الله تعالى إذا كان ذلك أن يقول لها :

يا هذه إن شئت أن تقيمي على ماترين من هذه فأويك وأنفق عليك فأقيمي ،

وأن كرهت خليت سبيلك ، فإن هي رضيت أن تقيم بعد أن خيرها فلا

جناح عليه وهو قوله (والصلح خير) وهو التخيير^(٤).

وقوله تعالى ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾^(٥)، قيل أن الإنسان بحكم خلقته

وطبعه مجبول على أن يشح على غيره يحجب بعض حظوظ نفسه .

وموضوع الآية أعم بلحاظ نظمها إذ يشمل الذين يمتنعون عن الصلح أو

يضعون الشروط التعجيزية أو التشديد فيه ، ويصرون على الخصومة أو

(١) سورة المزمل ١٦.

(٢) سورة النساء ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء ٣٠.

(٤) الثعلبي / الكشف والبيان ٥١/٤ .

(٥) سورة النساء ١٢٨.

القتال ، وكذا الذين لا يرضون على الصلح بعد عقده وتماحه ، ويحاولون نقضه ، ومنهم كفار قريش إذ أعانوا بني بكر .
(و) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ : أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِنَا نَصْلِحْ بَيْنَهُمْ^(١) .

وتقدير الآية على وجوه :

الأول : قانون الصلح خير من القتال .

الثاني : قانون الصلح خير من الخصومة .

الثالث : قانون الصلح خير من سفك الدماء بالإقتال .

الرابع : قانون الصلح خير لأطراف الصلح وغيرهم .

الخامس : قانون الصلح خير للناس في عباداتهم ومعاشاتهم .

السادس : لما احتجت الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً﴾^(٢) ، إِذْ قَالُوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣) ، أَجَابَهُمُ اللَّهُ

عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) . ومن علم الله عز وجل ميل الناس

للصلح ، والغبطة العامة بتحقيقه .

السابع : فض النزاعات والإتفاق على مسار نافع خير من العداوة .

الثامن : الصلح خير في توفير نفقات السلاح وعسكرة البلدان .

التاسع : الصلح خير للمجتمعات والعوائل ، وفيه منع من اليتيم وكثرة

الأرامل والثكالى .

العاشر : الصلح خير لأطرافه في الدنيا والآخرة .

(١) صحيح البخاري ١١/١٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

الحادي عشر: الصلح خير للزوجين من الطلاق والفراق ، ولا يتعارض قوله تعالى ﴿وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾ مع قوله تعالى ﴿وَإِنْ يَتَرَكَأَيُّنَ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَةِ﴾^(١) مع الخير الكثير في الصلح إنما لبيان فضل الله على الزوجين سواء بالصلح أو الافتراق .

الثاني عشر: الصلح خير وإن كان فيه ترك لبعض الحقوق.

الثالث عشر: الصلح خير بين الدول والقبائل والأفراد .

الرابع عشر: الصلح خير أمس واليوم وغداً .

الخامس عشر: الصلح خير فلا تصح الندامة أو اللوم عليه .

وفي صلح الحديبية عقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم اجتماعات مباشرة متعددة مع وفد مشركي قريش برئاسة سهيل بن عمرو في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ورضي بشروط قريش مع قسوتها فمثلاً الذي يأتي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مسلمي مكة يرد إليهم دون العكس ، فلو جاء لهم مسلم لا يرد إلى النبي محمد .

ولم تمر ستان على صلح الحديبية حتى نقضت قريش الصلح إذ أعانت قريش حلفاءهم بني بكر على خزاعة التي دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لتكون هذا الإعانة من مصاديق ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾^(٢).

ويذهب علماء التفسير في قوله تعالى ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ إلى حضور الشح في النفوس ، وهذا صحيح ، ولكن المختار إرادة حضور الذين يعارضون الصلح ، ويمنعون منه يوم القيامة للحساب على هذا المنع ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، قال تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾^(٣).

(١) سورة النساء ١٣٠.

(٢) سورة النساء ١٢٨.

(٣) سورة الإحزاب ١٩.

وهنا سمت الآية الصلح خير ، أي أنهم أشحة على الصلح مع اختلاف
وأسباب هذا الشح فجاءت الآية للتحذير منه.
ولم يرد لفظ (أحضرت) و(الشح) إلا في الآية المتقدمة من سورة النساء.

زاد الراكب

من معاني آية البحث ﴿لَا يَغْرُلُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١).
تحذير المسلمين وعامة الناس من الافتتان بتقلب المشركين من قريش في
لين العيش ، وحسن اللباس .

وكثرة أسفارهم وتنقلهم من مكان إلى آخر وتجارتهم إلى الشام واليمن ،
والجاء الذي لهم في القبائل ، والبلاد اسم جنس .
ومن كفار قريش من كان يعرف بزاد الراكب للدلالة على جوده أثناء
السفر ، إذ لم يحمل معه أحد من رفقته زاداً أو متاعاً بل هو الذي يكفيهم
ومنهم أبو أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله من بني مخزوم ، والد أم
المؤمنين أم سلمة واسمها هند.

ومع حال الغنى التي عند أبيها فانها اختارت الإسلام والهجرة إلى
الحبشة ، وتحملت الأذى والمخاطر والغربة والفقر لتفوز فيما بعد بصفة أم
المؤمنين ، قال تعالى ﴿النَّبِيِّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ
أُمَّهَاتُهُمْ﴾^(٢) ، ويأتي التفصيل في الجزء الرابع من كتابي الموسوم (خصائص
النبي محمد (ص)) وفيه مسائل :

الأولى : إسلام أم سلمة شاهد على صدق رسالة النبي محمد صلى الله
عليه وآله وسلم .

الثانية : فيه مصداق عملي لعدم التفات وافتتان المسلمين والمسلمات
بتقلب الذين كفروا في البلاد .

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

(٢) سورة الأحزاب ٦.

الثالثة : صبر وجهاد المسلمات في الإمتثال لمضامين آيات القرآن ،
والعصمة من الإفتتان بأموال وجاه المشركين حتى قبل نزول آية البحث التي
هي مدنية .

وتمت هجرة أم سلمة إلى الحبشة والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
لا يزال في مكة ، ولا غرابة فاول شهيد في الإسلام هي امرأة وهي سمية أم
عمار بن ياسر .

ومن الذين لقبوا بزاد الراكب عياض بن غنم (كان يطعم رفقته ما كان
عنده وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده فإن نفذ نحر لهم جملة)^(١).

وأسلم قبل الحديبية وحسن إسلامه واستخلفه ابن عمته أبو عبيدة على
حمص وأقره عمر بن الخطاب بعد موت أبي عبيدة.

ومن الذين يسمون (زاد الراكب) زمعة بن الأسود بن عبد المطلب ،
الذي قتل كافراً يوم بدر ، فهو من الذين حذرت آية البحث من الإفتتان
بهم وبأموالهم .

ويطلق لفظ زاد الراكب في الإصطلاح الشرعي على الزهد وقلة المؤونة
والمال .

وعن عامر بن عبد الله أن سلمان الخير المحمدي (حين حضره الموت
عرفوا منه بعض الجزع. قالوا: وما يجزعك يا أبا عبد الله، وقد كانت لك
سابقة في الخير ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مغازي حسنة،
وفتوحاً عظيماً .

قال : يجزعني أن حببنا صلى الله عليه وسلم حين فارقنا عهد إلينا قال :
ليكف الرجل منكم كزاد الراكب، فهذا الذي أجزعني ، فجمع مال سلمان
فكان قيمته خمسة عشر ديناراً)^(٢).

(١) الإصابة في معرفة الصحابة ٣٣٠/٢ .

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٨١/٤ .

وجاء قوله تعالى ﴿لَا يَغْنَرُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١) لمنع افتتان المسلمين بأموال وكرم الذين المشركين ، لأن المدار والنجاة في الإيمان ، ولا ينفع الإنسان الكرم مع اتصافه بالكفر .

ليبان أن من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التبدل النوعي حتى في الإصطلاحات ومعاني الألفاظ ببعثة النبي محمد .
فصار زاد الراكب يقترب بالتقوى والزهد والصلاح .

من معاني ﴿لَا يَغْنَرُكَ﴾

لقد تضمنت آية البحث النهي عن الإغترار بتقلب وكثرة أسفار المشركين ، وهل تفيد الآية الحصر الموضوعي بتقلبهم أم هي أعم ، الجواب هو الثاني.

ومن معاني وتقدير الآية وجوه :

الأول : لا يغرنك المال الكثير الذي عند المشركين .

الثاني : لا يغرنك سطوة وسلطان المشركين .

الثالث : لا يغرنك استيلاء المشركين على البيت الحرام وسدائنه ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

الرابع : لا يغرنك ضرب المشركين في التجارة بين مكة والشام ، وبين مكة واليمن ، وغيرهما .

وجاءت الآية التي بعد آية البحث ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣) ، ومتاع خبر لمبتدأ محذوف وتقديره : ذلك متاع قليل أي تقلبهم في البلاد .

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

(٢) سورة الأنفال ٣٤.

(٣) سورة آل عمران ١٩٧.

وكانت كثرة غزوهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة سبباً لنقص أموالهم وتعطل تجارتهم ، وعجزهم عن التقلب في البلاد إلى أن تم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة النبوية .

والمراد أيضاً من المتاع القليل أيضاً سرعة مغادرة المشركين الدنيا هو حرمانهم من النعيم في الآخرة ، ولأن الدنيا إلى زوال ، وفيه تذكير بما أعد الله للمؤمنين من اللبث الدائم في الجنة .

والغرور ما اغتربه من متاع الدنيا وهو أدنى مرتبة من الفتنة والإفتتان ، ولتمنع الآية من الإنشغال بما في أيدي الذين كفروا من النعم .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولا يغرنكم أذان بلال ولا الفجر المستطيل)^(١).

أي لا تلتفتوا إلى أذان بلال وتتساءلوا بخصوص دخول وقت الصلاة . (وقال محمد بن إسحاق عن رجاله لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بيدر ، وقدم إلى المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع فقال : «يا معشر اليهود إحدروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم قد عرفتم إني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد لا يغرنك أن لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة ، لك والله لو قاتلناك لعرف منا البأس)^(٢).

بحث نحوي

من خصائص القرآن وضوح الأوامر والنواهي فيه بالذات وحتى في الترجمة ، ويفيد حرف (لا) النهي ويدخل على الفعل المضارع فقط ، وهو حرف من نهى وجزم مبني على السكون لا محل له من الإعراب . وتأتي (لا) على وجوه ومعاني أخرى وهي :

(١) جامع الخلاف والوافق ٦٤/١ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٨/٣ .

الأول : (لا) النافية ، قال تعالى ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(١).

ومنها (لا) النافية للجنس لنفي الحكم عن الاسم الذي بعدها مثل ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢) ، لا : النافية للجنس ، ظلم : اسم لا ، النافية للجنس منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره .

الثاني : (لا) التي تعمل عمل ليس ، كما في قوله تعالى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

الثالث : (لا) الزائدة : كما في قوله تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٤) ، وليس من حرف زائد في القرآن ، ولكنه اصطلاح في الصناعة النحوية ، وكرره علماء التفسير ، والمراد أن هذا الحرف لا يزيد في المعنى سواء وجد أو حذف ، ولكن له عذوبة خاصة ويستملح بالحروف الزائدة في الإسلوب . والمختار ليس من حرف زائد في القرآن بالإضافة إلى الثواب في تلاوة كل حرف من القرآن .

و(عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له عشر حسنات : بالباء ، والتاء ، والثاء)^(٥) . وهناك اختلاف في المعنى وسياق الكلام بين (لا) الناهية و(لا) النافية ، والأولى تنهى عن فعل مخصوص ، وتجزم الفعل المضارع ، إذ تدخل على الجملة الفعلية الإنشائية التي لا تحمل التصديق والتكذيب ، والثانية تنفي وقوع الحدث ، ويبقى معها الفعل المضارع مرفوعاً .

(١) سورة القيامة ٣١ .

(٢) سورة غافر ١٧ .

(٣) سورة يونس ٦٢ .

(٤) سورة الأعراف ١٢ .

(٥) الدر المنثور ١/١٥٠ .

لماذا ﴿لَا يَغْرَبَنَّكَ﴾

ترى لماذا نهى الله عز وجل عن الإنشغال بتصرف وتنقل الذين كفروا في البلاد والأمصار ، الجواب من وجوه :

الأول : قانون المنع من الإفتتان بالمشركين ، وحال السعة والدعة التي هم عليها ، والظن بالتركة لأولادهم الذين ما لبثوا حتى دخلوا الإسلام .

الثاني : هذا النهي من مصاديق ما تقدم قبل سبع آيات ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) ، فالذين كفروا يتصرفون ويتقلبون في ملك الله عز وجل ، لبيان سخط الله عليهم ، لكفرهم ولتصرفهم في البلاد بصفة الكفر والجحود بالرسالة .

الثالث : الصبر والتصدي بالحجة والبرهان لتقلب الذين كفروا في البلاد بتحريض الناس ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن .

الرابع : آية البحث واقية من النفاق والتزلف للذين كفروا .

الخامس : من معاني النهي عن الإنشغال بميل لتنقل الذين كفروا في الأمصار طرد الريب والشك في النبوة والإسلام ، إذ بدأ الإسلام غريباً وكان أكثر المسلمين الأوائل يتصفون بالفقر والفاقة .

السادس : إرادة صلاح واستقامة المسلمين ، واستدامة امتلاء قلوبهم بالسكينة والرضا على كل حال .

السابع : بعث الحنق والكبت والخيبة في نفوس الذين كفروا عندما يدركون عدم التفات المسلمين إلى ما عندهم من الجاه والشأن ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَعَسَا لَهُمْ وَأُضْلَ أَعْمَالُهُمْ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ١٨٩ .

(٢) أنظر الجزء السادس والعشرين بعد المائتين من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٣) سورة محمد ٨ .

الثامن : عند امتناع المسلمين عن الإفتتان بما عند الذين كفروا من الجاه والشأن يتدبرون بما عندهم من النعم ، ومن أعظمها نعمة الهداية والإيمان ، والصلاح ، والإستعداد لعالم الآخرة ، وقانون الغنى بالتسليم بالفقر لله عز وجل ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١) . فادراك الإنسان أنه محتاج إلى الله عز وجل ورحمته وفضله غنى وسعادة وكفاية .

التاسع : غبطة وسعادة المسلمين بما رزقهم الله عز وجل من نعمة الإيمان ، قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢) .

العاشرة : مع مجئ الآية بصيغة النهي فانها تتضمن البشارة والولد بانحسار قلب المشركين في البلاد بدليل الآية التالية لها ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَبُسُّ الْمِهَادِ﴾^(٣) ، وهو الذي تدل عليه الوقائع والأحداث ، إذ لحقت مشركي قريش الخسائر في المال والأرواح ، وتعطلت تجارتهم ، وصاروا يرغبون بالصلح .

فتم صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، ثم فتح مكة بعده بستين بعد أن نقض المشركون بنود الصلح وأمدوا حلفاءهم بني بكر بالرجال والسلاح للهجوم على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .



(١) سورة فاطر ١٥ .

(٢) سورة يونس ٥٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٧ .

المنادي

لقد اختص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين الأنبياء بصفة (المنادي) لقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(١).

وذكر المنادي في القرآن مرتين ، إحداهما في الآية أعلاه والمقصود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والثانية بخصوص الآخرة بقوله تعالى ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(٢).

وعن زيد بن جابر في الآية (قال : يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول : يا أيُّها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمع لي لفصل الحساب)^(٣).

ليكون من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه المنادي في الدنيا ، لأن الله عز وجل جعل الحياة الدنيا دار امتحان واختبار فجعل الله عز وجل النبي محمداً من بين البشر هو المنادي للإيمان والصلاة والتقوى . ومن خصائصه عدم انحصار ندائه بأيام حياته ، بل هو متجدد كل يوم إلى قيام الساعة .

ترى كيف يكون هذا التجدد ، الجواب من جهات :
الأولى : تلاوة المسلمين والمسلمات للقرآن كل يوم ، وهل هذه التلاوة من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٤) ، الجواب نعم ، فهي من الشواهد على توارث القرآن سالماً من التحريف ، والزيادة أو النقص .

(١) سورة آل عمران ١٩٣.

(٢) سورة ق ٤١.

(٣) الدر المنثور ٢٩٤/٩.

(٤) سورة الحجر ٩.

الثانية : إقرار ملايين المسلمين بالشهادتين وتسليمهم بالمعاد ، ويوم الحساب ، فمن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم اتباع المسلمين له في تعاهد مبادئ التوحيد في الأرض ، والحرب على الشرك ومفاهيم الضلالة ، قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

الثالثة : إقامة المسلمين والمسلمات الصلاة خمس مرات في اليوم بمثل صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
فمن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تثبيت كيفية الصلاة وأركانها وأجزائها بين المسلمين ، كما قال (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(٢). وعن (مطرف بن عبد الله قال : صليت خلف علي بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين فكان إذا سجد كبر وإذا رفع رأسه كبر وإذا نهض من الركعتين كبر فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال : لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣).

فمن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإكثار من التكبير وكلمات التوحيد في الصلاة وخارجها لمنع الغلو في شخصه الكريم ، وللحرب على الشرك .

ليان قانون تعضيد السنة النبوية للقرآن في نهيه عن الإغترار بالمشركين ، وتنقلهم بين الأمصار .



(١) سورة الحشر ٢٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠٨/١ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٨/١ .

(تقلب) بين الحقيقة والمجاز

الحقيقة هي استعمال اللفظ في معناه الذي وضع له ، كما لو قلت رأيت اسداً في الغابة فيحمل على معناه الحقيقي وهو الحيوان المفترس .

أما لو قلت نزل أسد ضيفاً علينا فيراد منه رجل شجاع ، لأن المجاز هو استعمال اللفظ في غير معناه الحقيقي الذي وضع له لعلاقة بين المعنى الحقيقي والمجازي مع قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي .

والعلاقة بينهما التشابه بين الأسد والرجل الشجاع ، والقرينة الصارفة إلى المجاز هي نزل ضيفاً علينا .

فالحيوان الأسد لا يأتي ضيفاً وكذا العلاقة بين حاتم الطائي والرجل الكريم إذا قلت تغذينا عند حاتم .

والمختار المستحدث أن اللفظ القرآني أعم من هذا التقسيم ، فقد يأتي ليشمل المعنى الحقيقي والمجازي في آن واحد ، فقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فذات جبل الصفا من شعائر الله ، والعلامات والدلائل ، والمظاهر التي شرعها الله عز وجل ، ومن الشعائر المكانية ، وكذا جبل المروة .

وتشمل الآية حذف مضاف أيضاً وتقديرها : إن السعي بين الصفا والمروة .

من غير تعارض بين المعنى الحقيقي والمجازي ، وهو من إعجاز القرآن بتعدد معاني اللفظ القرآني ، وأنه أعظم وأعم من القواعد البلاغية والنحوية .

ليكون السعي بين الصفا والمروة من الشعائر الفعلية ، وهذا الإصطلاح مستحدث هنا .

وأيهما أهم المعنى الحقيقي للصفا والمروة كشعيرة مكانية ، أم المعنى المجازي وهو السعي بينهما الذي تؤكد السنة القولية والفعلية .

والجواب كلاهما من الأهم ، وإذا كان ولا بد من الترجيح بينهما ، فالمختار أن الأصل هو المعنى الحقيقي وحجية ظواهر القرآن ، ولأن هذه الشعيرة المكانية الثابتة موجودة قبل خلق آدم بآلاف السنين .

وكذا في قوله تعالى بخصوص أولاد يعقوب ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(١).

فالمعروف في علم التفسير وجود حذف متعدد للمضاف في الآية ، وتقديرها (واسأل أهل القرية التي كنا فيها ، وأسأل أصحاب العير التي اقبلنا فيها).

والمختار المستحدث أن الآية تتضمن الجامع بين الحقيقة والمجاز ، فيعلم أولاد يعقوب بأن أباهم نبي وأنه يستطيع سؤال بيوت وأشجار القرية مثلما يسأل أهلها ، بل أن سؤاله بيوت وشجر ودواب القرية قد يكون من مكانه في فلسطين ، وهو ظاهر الآية .

وكان في الآية حذفاً آخر وتقديره : وأسأل القرية من مكانك أما العير وأصحابها فهم حضور عند يعقوب النبي ساعتئذ ، وهذا الحضور لا يبطل سؤال القرية وأهلها مع بعد المسافة .

وهل لفظ (تقلب) الوارد في آية البحث من الحقيقة أما المجاز ، المختار هو الجامع لهما ، ومن معاني التقلب التصرف بمتاع الدنيا ، وكثرة الأسفار ، وانبساط السلطان للذين كفروا .

واتخاذ الشرك سلاحاً في التنقل لبيان اشاعتهم الكفر بين الناس ، وحاجتهم لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) سورة يوسف ٨.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

ومن معاني العلم المستحدث بالجامع بين الحقيقة والمجاز في اللفظ القرآني الواحد في المقام وجوه :

الأول : بيان فضل الله عز وجل على الناس عامة منهم الذين كفروا .
الثاني : إقامة الحجة على المشركين ، وهل النعم التي عندهم استدراج لهم ، الجواب نعم ، وهي من فضل الله عز وجل على العباد ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

الثالث : عصمة المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا في كل الأحوال .

اجتماع الضدين في الخطاب القرآني المتحد

ورد قوله تعالى ﴿لَا يَغْرَبْكَ﴾^(٢) ، في القرآن مرة واحدة في نهى جلي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع بيان موضوع هذا النهي ، وهو الزجر عن الإغترار بتقلب وتنقل الذين كفروا من قريش في البلاد .
 وورد اسم البلاد هنا بارادة اسم الجنس ، ترى لماذا لم تقل الآية في الأمصار ، الجواب النسبة بين البلاد والأمصار عموم وخصوص مطلق ، إذ يشمل لفظ البلاد القرى والمدن والأمصار والسفر في الجادة العامة .
 وليبيان أن موضوع الآية لا يختص بالمشركين من قريش بل يشمل الذين كفروا عامة من قريش وحلفائهم ، والذين أصروا على العناد والجحود سواء وصلتهم دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو لم تصلهم آذوه أو يؤذوه .

ترى لماذا جاءت الآية بصيغة المضارع ﴿لَا يَغْرَبْكَ﴾^(٣) ، فيه وجوه :

الأول : كثرة تنقل الذين كفروا في البلاد ، قال تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ

(١) سورة الأعراف ١٨٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٩٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٩٦ .

من 'خَوْفٍ' (١).

فقد رزق الله عز وجل قريشاً نعمة جوار البيت ، وترشحت عنها التجارة والكسب والجاه ، ولكن غلب الكفر وعبادة الأوثان والغرور عليهم مع تعاقب الأجيال ، فجاءت آية البحث للنهي عن الإغترار بهم ، وهذا النهي لأنهم جحدوا بالنعم واختاروا الضلالة .

الثاني : استمرار قيام قريش بالضرب في الأرض للتجارة والوجاهة عند القبائل .

الثالث : النهي من عند الله عن استحداث الإغترار بالذين كفروا ، وكثرة أسفارهم وأموالهم .

الرابع : توجه النهي في آية البحث للمسلمين ولغير المسلمين ، وهل يتوجه إلى الكفار الذين يتقلبون في البلاد ، ونزلت الآية التحذير من الإفتتان بهم .

الجواب نعم ، لزجرهم عن الإعتداد بكثرة أسفارهم وما لهم من جاه ، وخشيتهم من فقدانه بدخول الإسلام .

فمن خصائص الأنبياء محاربة رؤساء قومهم لهم للخشية على مقامهم ، وكذا في فرعون ، ولو آمن بما جاء به موسى من التوحيد والعبودية لله عز وجل لبقى في سلطانه .

ليكون من إعجاز القرآن قانون الجمع بين المتضادين في الخطاب القرآني ليس بالجمع بين المنطوق والمفهوم في المقاصد والجهات التي يتوجه إليها الخطاب القرآني ، إنما بالمنطوق بالذات فيتوجه الخطاب والنهي في آية البحث إلى كل من :

الأول : النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : إلى المسلمين بالنهي عن الإغترار بكثرة أسفار الذين جحدوا بالربوبية والتوحيد والنبوة من عبدة الأوثان وما لهم من الجاه والأموال .

الثالث : توجه الخطاب إلى عموم الناس بعدم الإفتتان بما عند المشركين من السلطان والشأن الإجتماعي والمنعة ، وكثرة الأموال والأسفار ، وهذا العموم من مصاديق قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١).

وآية البحث من الإنذار العام للناس .

ومن خصائص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم توجه الخطاب من عند الله عز وجل له ليشمل المسلمين وأهل الكتاب ، والذين كفروا ، وسيأتي في الجزء الرابع من كتابي الموسوم (خصائص النبي محمد (ص)) والذي صدرت منه ثلاث أجزاء تضمن الجزء الأول أكثر من مائتي خصيصة مباركة ، والثاني أكثر من مائة وسبعين خصيصة كريمة ، أما الجزء الثالث منه فيتضمن أكثر من (خمسمائة وعشرين) من الخصائص المباركة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آية علمية ، والحمد لله .

والضدان أمران وجوديان لا يجتمعان في موضع واحد ، ولكنهما يرتفعان ، كالسواد والبياض ، فأنهما لا يجتمعان ولكنهما يرتفعان باللون الأزرق والأصفر ، وكالقيام والجلوس فانهما لا يجتمعان ولكنهما يرتفعان بالإضطجاع .

ولكن الضدين يجتمعان في الخطاب القرآني من غير تعارض بينهما ، بأن يتوجه الخطاب للمختلف والمتباين من الناس ، لذا ورد قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ، في القرآن عشرين مرة ليشمل الناس على اختلاف مشاربهم ، فالتضاد في المقام ليس في الجنس لاتحاد جنس الإنسان وهو خاص نوعي ، ولكن التضاد في الاعتقاد.

أما التناقض فهو النسبة بين شيئين لا يجتمعان ولا يرتفعان كالليل والنهار ، الإيمان والكفر ، والصيام والإفطار ، والحب والبغض ، والتباين بين

القول والفعل ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).
والمختار أن النسبة المنطقية بين التضاد والتناقض هي العموم والخصوص
المطلق ، فالتضاد أعم .

فيأتي الخطاب والأمر والنهي في القرآن إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه يفيد العموم الإستغراقي للمؤمنين وأهل الكتاب والذين كفروا ، لبيان أن علوم القرآن أعم من القواعد الفلسفية ، وهو من أسرار بقاء الآية القرآنية غضة طرية إلى يوم القيامة .

ليان أن علوم القرآن أعم من القواعد الفلسفية ، مثلما هي أعم من القواعد النحوية كما في مجئ الحرف (الواو) للعطف والإستئناف معاً في القرآن أحياناً.

النواهي (بحث أصولي)

(النواهي : جمع ناهية كالسواري جمع سارية و الغوادي جمع غادية يعني الآيات الناهية لهم عن المعاصي و يضعف أن يكون الأوامر و النواهي جمع أمر و نهى لأن فعلا لا يجمع على أفاعل و فواعل و إن كان قال ذلك بعض الشواذ من أهل الأدب)^(٢).

والنهي جمع نهية ، قال تعالى ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(٣) ، أي أولي العقول لأن العقل ينهى عن المعاصي .

والنهي طلب الكف على وجه الإستعلاء من العالي إلى الأدنى بصيغة الفعل المضارع المقرون بلا الناهية .
النهي مصدر مذكر لا يؤنث ، ولا جمع له .

(١) سورة الصف ٢.

(٢) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ٤.

(٣) سورة طه ١٢٨.

وهناك فرق بين (لا) الناهية ، و(لا) النافية ، يظهر من سياق ومعنى الجملة ، فاذا كان معنى الجملة طلب الكف عن فعل ، فتفيد النهي مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ومن (لا) النافية قوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، و﴿فَنَزَّلْنَا حَجَّ الْبَيْتِ وَأَعْتَمَرْنَا جُنُوحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٣).
وايهما أكثر وروداً في القرآن (لا) الناهية أم (لا) النافية ، المختار هو الأول ، إذ وردت (لا) النافية في القرآن أكثر من (٣٩٠) مرة .
ومن خصائص النبي محمد توجه النهي له في القرآن والمراد المسلمون وعامة الناس .

نعم الأولى إحصاء عدد (لا) الناهية ، و(لا) النافية في القرآن ، مع إحصاء آيات الدعاء وهي على شعبتين :

الأولى : سؤال الطلب والكسب مثل ما ورد حكاية عن نوح ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾^(٤).

فتوجه نوح إلى الله بالدعاء لنفسه ثم لوالديه ثم للذين دخلوا بيته وهو أعلى مراتب الضيافة والكرم بأن يفوز الضيف وكذا من دخل مسجده وسفينته بالدعاء بالمغفرة وعلى لسان رسول من الرسل الخمسة أولي العزم.

(١) سورة آل عمران ١٠٥.

(٢) سورة البقرة ٢.

(٣) سورة البقرة ١٥٨.

(٤) سورة نوح ٢٨.

ثم سأل المغفرة للمؤمنين والمؤمنات ، وهل يختص الدعاء للمؤمنين في زمانه أم أن دعاء نوح شامل للمؤمنين والمؤمنات في كل زمان .
المختار هو الثاني ، لبيان فضل الله عز وجل على كل مؤمن ومؤمنة بسبق دعاء نوح لهما وهو من نعم الله عز وجل على المسلمين بسبق دعاء الأنبياء لهم .

ثم اختتم الدعاء بالدعاء على الظالمين (الأتبارا) أي هلاكاً .
وعن (أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي خساراً) ^(١).

و(لا) النافية غير عاملة تدخل على الفعل الماضي مثل ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٢) ، وعلى المضارع مثل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ^(٣).

وقد تأتي زائدة للتوكيد مثل ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ^(٤) ، ألا : متكونة من (أن) الناهية و(لا) الزائدة للتوكيد.

نعم منها ما ورد بصيغة الدعاء مثل ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٥) .
﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ^(٦).

(١) البحار ٣١٦/١١.

(٢) سورة البقرة ٢.

(٣) سورة البقرة ٢٨٦.

(٤) سورة الأعراف ١٢.

(٥) سورة البقرة ٢٨٦.

(٦) سورة آل عمران ٨.

وفي دعاء أهل الجنة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

بين مادة وصيغة النهي

مادة النهي هي (ن، هـ، ي) وصيغته المشهورة (لا تفعل) وهي عبارة عن طلب العالي على نحو الإستعلاء من الداني ترك الفعل .

أما صيغة النهي فهي متعددة مثل (لا تفعل) أو (اياك أن تفعل).

وكل ما يفيد ويدل على طلب الكف مثل ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾^(٢).

وعن ابن عباس في الآية أعلاه (قال : هو نكاح الأمهات والبنات (وباطنه) هو الزنا)^(٣).

ولكن موضوع الآية أعم ويشمل ظاهر الاثم فعل الجوارح وما هو معروف بأنه اثم ومعصية ، وباطنه الخفي وسوء النية والقصد .

وقد يجمع بين مادة وصيغة التحريم ومادته (ح، ر، م) أو حرمت ، قال

تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ

وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي

فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُ بِهِنَّ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا

مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٤).

(١) سورة الأعراف ٤٧.

(٢) سورة الأنعام ١٢٠.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٣٣.

(٤) سورة النساء ٢٣.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَُمْ فِسْقُ الْيَوْمِ بِيَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٢).

﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾^(٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^(٤).

وفي هذا الجمع بين مادة وصيغة التحريم وجوه :

الأول : بيان ووضوح الأحكام الشرعية ، قال تعالى ﴿وَزَكَّاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

ثِيَابًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٥).

الثاني : منع الاختلاف بين المسلمين في باب الأوامر والنواهي .

الثالث : حضور معنى التحريم في الوجود الذهني لذا تكرر مرتين قوله

تعالى ﴿أُولِي النِّهْيِ﴾ أي أرباب العقول الذين ينتهون.



(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة البقرة ١٧٥.

(٣) سورة المائدة ٩٦.

(٤) سورة الأعراف ٣٣.

(٥) سورة النحل ٨٩.

شواهد من نهي التحريم

من نهي التحريم ﴿وَلَا تَعْدُوا﴾ في قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١)، إذ تضمنت الآية أمراً وقيداً متعدداً وقانوناً من وجوه :

الأول : الأمر في ﴿وَقَاتِلُوا﴾.

الثاني : القيد من جهتين :

الأولى : القتال في سبيل الله .

الثانية : قانون قتال الذين يقاتلون المسلمون دون غيرهم .

الثالث : النهي عن الإعتداء والعدوان بقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُوا﴾.

الرابع : القانون من الإرادة التكوينية وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).

ومن صيغ النهي ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣)، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾^(٤)، ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾^(٥)، ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٦)، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(٧).

وجاءت ست نواهي في آية واحدة بصيغة الخبر ، و(لا) النافية أن ، حرف مصدري ونصب ، يشركن : مضارع مبني على السكون في محل نصب ، النون : فاعل

(١) سورة البقرة ١٩٠.

(٢) سورة البقرة ١٩٠.

(٣) سورة الحجرات ١١.

(٤) سورة الحجرات ١٢.

(٥) سورة الحجرات ١٢.

(٦) سورة الرحمن ٩.

كل واحدة بصيغة مستقلة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

ومن الإعجاز في الآية مجئ قوله تعالى ﴿جَاءَكَ﴾ بصيغة التذكير في ﴿جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾.

وفيه إكرام للمؤمنات ، وإخبار عن تنزههن عن الإغترار بما عند الذين كفروا من الأموال والجاه .

وهل (لا) الناهية في آية البحث (لا يغرنك) تفيد التحريم أم الكراهة ، المختار هو الأول ، فالأصل في النهي هو التحريم إلا أن تدل القرائن على الكراهة أو غيرها ، وهي معدومة في المقام .

وجاء النهي أربع مرات بخصوص قوم نوح في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَسَارًّا﴾^(٢) ، وهو ليس نهى تحريم إنما أمر بالمحرم ، مما يدل على أن ليس كل لفظ (لا) الناهية تفيد التحريم أو الكراهة .

وهو من الشواهد بأن القواعد الأصولية والكلامية والنحوية ونحوها متخلفة عن الإحاطة بعلوم القرآن .

(١) سورة الممتحنة ١٢.

(٢) سورة نوح ٢٣.

وفي الآية أعلاه ورد (عن حريز عن جعفر بن محمد عليه السلام في قول الله عزوجل ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(١) .

قال : كانوا يعبدون الله عزوجل فماتوا فضج قومهم وشق ذلك عليهم ، فجاءهم إبليس لعنه الله فقال لهم: أتخذ لكم أصناما على صورهم فتتظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله ، فأعد لهم أصناما علىثالهم . فكانوا يعبدون الله عزوجل ، وينظرون إلى تلك الاصنام ، فلما جاءهم الشتاء والامطار أدخلوا الاصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون الله عزوجل حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم . فقالوا : إن آبائنا كانوا يعبدون هؤلاء ، فعبدوهم من دون الله عزوجل ، فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾^(٢) .

أقسام النواهي

النهي ضد الأمر ، فكما أن الأمر هو الإلزام بالفعل ، فان النهي هو الإلزام بالترك ، وكما أن مادة الأمر ظاهرة في الوجوب فان النهي يفيد المنع والحرمة .

وقد تأتي صيغة النهي وتدل على الإلزام بالفعل الضد مثل (لا تترك الصلاة) لأن المراد الزجر والحظر والمنع من ترك الواجب . وقد يدل النهي على الكراهة بلحاظ القرينة .

ويمكن تقسيم النواهي إلى قسمين :

الأول : النواهي التعبدية : التي تفيد الزجر والحرمة مثل صلاة الحائض ، وصوم يوم العيدين ، وتدل على الفساد فلا يتقرب إلى الله بالمبغوض

(١) سورة نوح ٢٣ .

(٢) البحار ٣/ ٢٥٠ .

لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١). لذا قيل بأن النهي في العبادة يقتضي الفساد ، وهو من المباحث العقلية وليس من مباحث الألفاظ.

الثاني : النواهي التأديبية : التي تفيد الكراهة والتنزيه ، مثل السأم عن كتابة الدين قال تعالى ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾^(٢).

المشهور والمختار أن النهي في ظاهره يحمل على التحريم إلا مع القرينة الصارفة إلى الكراهة .

ويحتمل المطلوب في النهي وجهان :

الأول : الترك : قيل هو أمر عديم محض .

الثاني : كف النفس عن الفعل : وهو أمر وجودي .

والمختار هو الثاني : لما فيه من الإرادة والقصد والإختيار وترتب الأجر والثواب كما في النهي عن المفطرات في يوم الصيام .

ويختلف النهي عن الأمر ، إذ يقتضي الأمر الفعل والإمثال.

ويقتضي النهي الانتهاء عن الفعل دائماً ، والكف عنه في جميع الأوقات والفورية إلا مع القرينة التي تدل على أن النهي مؤقت مثل نهى الحائض عن الصلاة والصوم ، فقرينة الحيض تدل على التوقيت ، قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٣).



(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة البقرة ٢٨٢.

(٣) سورة البقرة ٢٢٢.

علم جديد في (لا) الناهية

يمكن إضافة قسمين جديدين إلى (لا) الناهية وهما :

الأول : (لا) الدعاء والمسألة ، وجاءت آيات عديدة في القرآن والسنة ، بخصوصها ، قال تعالى ﴿لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وهذه الآية آخر آية من سورة البقرة وابتدأت بـ(لا) النافية ، وورد فيها نداء الربوبية المطلقة (ربنا) ثلاث مرات بعد أن ذكرت اسم الجلالة للدلالة على صدور الدعاء من مقام العبودية لله والتزهد عن الشرك ، ووردت فيها (لا) الدعاء ثلاث مرات ثم السؤال والطلب أربع مرات ﴿اعْفُ عَنَّا﴾ ﴿اعْفِرْ لَنَا﴾ ﴿ارْحَمْنَا﴾ ﴿فَانصُرْنَا﴾.

الثاني : (لا) التي هي ضد النهي .

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٢) ، على نحو السالبة الكلية ، فهي لغة نهى ، ولكنها خلاف وظائف العقل .
وإذ دعا نوح على قومه بعد أن أخبره الله أن لا يذر بعد من قومه أحد ، فإن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يدع منهم على قريش مع شدة محاربتهم لهم ، وعندما اشتكى عنده الطفيل الدوسي .
وقال اللهم أعني عليه بسبع مثل سبع يوسف فاصابهم القحط والجدة سبع سنين حتى اكلوا القدر والعظام.

(١) سورة البقرة ٢٨٦.

(٢) سورة نوح ٢٦.

فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (يا محمد نشدك الله والرحم لقد أكلنا العليز يعني الوبر بالدم فانزل الله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾^(١)، فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكشف الله عنهم .

والنهي لغة المنع وهو ضد الأمر ، أما في الإصطلاح فهو طلب الكف من فعل على جهة الإلزام على وجه الاستعلاء فخرج الأمر لأنه طلب فعل وهو ضد الكف ، وخرج بتوجه النهي من الأعلى إلى الأدنى ومن الخالق إلى المخلوقين ، ومن الرب إلى المربوبين ، سؤال المنع من الأدنى إلى الأعلى .

ويحتمل والنهي عن المنكر في قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢)، وجوهاً :

الأول : إرادة النهي لغة ، فليس فيه استعلاء ، إذ يصدر من المسلم إلى أخيه المسلم أو عامة الناس .

الثاني : إرادة المعنى الإصطلاحي ، وصيغة الاستعلاء من الناهي عن المنكر إلى المنهي عنه .

الثالث : العنوان الجامع للمعنى اللغوي والإصطلاحي .

والمختار هو الثالث فقد يأتي النهي عن المنكر من الأدنى إلى الأعلى ، ومن التابع إلى المتبوع ، ومن الابن إلى الأب ، ومن الفرد الجامع في المقام قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ﴾^(٣) .

(١) سورة المؤمنون ٧٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٣) سورة الشعراء ٦٩-٧١ .

ويأتي النهي من الأدنى إلى الأعلى نسباً ، كما في قول إبراهيم ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(١) ، نعم ، هو نهى من مؤمن إلى كافر ، نهى من رسول من الرسل الخمسة أولي العزم إلى كافر.

وفيد الجمع بين الآية أعلاه وقوله تعالى ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٢) على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المصاحبة في الدنيا بالمعروف.

قانون آية البحث تخفيف

هل يتضمن النهي في الآية ﴿لَا يَغُرَّتْكَ قُلُوبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(٣) التخفيف ، الجواب نعم وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٤). وهذا التخفيف من جهات :

الأولى : تفقه المسلمين في الدين ، ويتجلى قانون الفقاهة سلاح .
الثانية : إصابة المشركين بالوهن والضعف ، لإعراض وعزوف المسلمين عنهم .

الثالثة : قانون وقاية المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا ، فصحيح أن الآية وردت بخصوص النهي عن الإغترار بأسفار الذين كفروا إلا أنها تدل بالدلالة الإلزامية على أمور :

(١) سورة مريم ٤٤.

(٢) سورة لقمان ١٥.

(٣) سورة آل عمران ١٩٦.

(٤) سورة الأنفال ٦٦=.

الأول : عدم الإفتتان بكثرة أموال الذين كفروا .
الثاني : إجتناّب المسلمين اللجوء إلى الذين كفروا طمعاً بنوالهم ،
 والإنتفاع من كثرة أموالهم .

الثالث : وجوب الإمتناع عن الميل إلى الذين كفروا والإستعانة بهم ،
 والرضا بأعمالهم ، قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيُمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(١) .

ويتجلى قانون ظلم الذين كفروا لأنفسهم وغيرهم .
الرابع : تحذير وإنذار الناس جميعاً من اتباع الذين كفروا طمعاً بما
 عندهم ، وهذا العموم في الإنذار من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
 لِلنَّاسِ﴾^(٢) ومنه توجه النهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لا
 يغررك) ويكون من معانيه زجر الناس جميعاً عن الإفتتان بالذين كفروا .

النسبة المنطقية بين النهي والتحريم

وتحتل وجوهاً :

الأول : التساوي ، وأن النهي هو التحريم .
الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :
الأولى : النهي أعم من التحريم .
الثانية : التحريم أعم من النهي .
الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء
 وأخرى للإفتراق بينهما .

الرابع : نسبة التنافي بين النهي والتحريم .
 الجواب هو : الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه .
 والأحكام التكليفية خمسة وهي :

(١) سورة هود ١١٣ .

(٢) سورة سبأ ٢٨ .

الأول : الوجوب .

الثاني : المندوب .

الثالث : الإباحة .

الرابع : الكراهة .

الخامس : الحرمة .

ويجمع النهي الوجهين الأخيرين أعلاه ، ويعرف بتفسير القرآن للقرآن ،
والسنة الشريفة القولية والفعلية المراد هل هو التحريم أو الكراهة .

وهل يفيد النهي في قوله تعالى ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١)
التحريم أم الكراهة ، الجواب إنه يفيد التحريم على كل مسلم ومسلمة ،
وفيه الأجر والثواب .

قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

النهي لغة هو المنع وضد الأمر ، أما في الإصطلاح فهو طلب الكف عن
فعل على جهة الإلزام وعلى نحو الإستعلاء

ليخرج النهي من الأدنى إلى الأعلى ، وصيغة النهي المشهور (لا تفعل).
والمختار في الآية أعلاه اجتماع المعنى اللغوي والإصطلاحي ، فيشمل
النهي من الابن إلى الأب عن المنكر ، ولكن مع تعاهد آداب البنوة ، كما في
إبراهيم قال ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٩٦.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

(٣) سورة مريم ٤٤.

فقدم كلمة يا أبت للأدب وهو من مصاديق ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١).
ويدل هذا النهي على الخيبة والخسران في النشاطين لاتباع وعبادة الشيطان.

والتحريم لغة هو الصعوبة والمنع ، وجعل الشيء حراماً ، والتحريم تقيض التحليل.

والتحريم في الإصطلاح هو خطاب الشارع الدال على الطلب من المكلفين الكف عن فعل مخصوص ، بدليل قطعي من الكتاب أو السنة ، بحيث يترتب على المخالفة وعدم الكف عقاب ، ويترتب على الترك والتقيد بالكف عن النهي عنه مع النية الأجر والثواب .

قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٢).

وتحتمل النسبة بين النهي والتحريم وجوهاً :

الأول : التساوي ، وأن النهي هو التحريم.

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : النهي أعم من التحريم .

الثانية : التحريم أعم من النهي .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء بين

النهي والتحريم وأخرى للإفتراق بينهما.

الرابع : نسبة التنافي بين النهي والتحريم .

الجواب هو : الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه.



(١) سورة لقمان ١٥.

(٢) سورة البقرة ٢٧٥.

قوانين هذا الجزء

يتضمن هذا الجزء المبارك القوانين التالية

الأول : قانون متجدد وهو عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثل القرآن.

الثاني : قانون عدد الذين يتلقون الخطاب القرآني من اللامتناهي ، ففي

كل يوم ومن حين التنزيل وإلى يوم ينفخ في الصور يتوجه النداء المقرون بالنهاي عن الإغترار بالذين كفروا .

الثالث : قانون آية ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ واقية من الفشل والجن والفرار في معارك

الإسلام الأولى .

الرابع : قانون الإستجابة فضل ولطف من عند الله عز وجل .

الخامس : قانون سرعة الإستجابة فضل آخر من عند الله .

السادس : قانون حاجة كل إنسان إلى الدعاء والإستجابة له ، قال تعالى

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

السابع : قانون فوز المؤمنين والمؤمنات باستجابة الله عز وجل لدعائهم .

الثامن : قانون ترغيب الناس بالدعاء والتطلع لإستجابة الله عز وجل.

التاسع : قانون استجابة الله للدعاء تثبيت للإيمان ، واستدامة لذكر الله

عز وجل في الأرض.

العاشر : قانون حرمان المشركين أنفسهم من استجابة الله ، ومن حبه

الذي هو أعظم الأرزاق في النشاطين ، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار.

الحادي عشر : قانون الدنيا دار ابتلاء وامتحان وإمهال ، إذ يمهل الله عز

وجل الإنسان إلى أجله الذي كتبه له ، فيتصرف في الأرض ، ويأتي بالعمل

الصالح أو ضده ، ويتنعم بالرزق والخير والجاه والأولاد.

الثاني عشر : قانون يحق الكفر النعمة لقانون الكفر ماحق .

الثالث عشر : قانون سلامة المهاجرين والأنصار من الإفتتان بالذين

كفروا وأموالهم وسطوتهم وعلو شأنهم بين الناس .

الرابع عشر : قانون إدراك الملازمة بين الكفر والإثم باعث للنفرة في النفوس من الكفر ، ومانع من الإفتتان بالكافرين .

الخامس عشر : قانون الثناء على المسلمين في صبرهم وطاعتهم لله عز وجل ، وتحملهم الأذى في سبيله ، وتصديقهم باليوم الآخر .

السادس عشر : قانون حساب الذين كفروا على المتاع القليل لأنه نعمة من عند الله ، لقانون شكر المنعم واجب .

السابع عشر : قانون من الإرادة التكوينية بأن حسن الثواب عند الله عز وجل وحده .

الثامن عشر : قانون اتحاد سوء عاقبة الجاحدين بالرسالة المعاصرة لهم بالهلاك ، وليس في الجزيرة العربية بحر وغرق فجاءت آية البحث للإنذار والوعيد .

التاسع عشر : قانون الدنيا وزينتها إلى زوال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(١) .

العشرون : قانون متاع الكافرين قليل .

الواحد والعشرون : قانون كل ما هو زائل وفان فهو قليل .

الثاني والعشرون : قانون سوء عاقبة الذين لم يسخروا أيامهم في الدنيا في طاعة الله عز وجل .

الثالث والعشرون : قانون التباين والتضاد في الآخرة .

الرابع والعشرون : قانون الدنيا دار الإستجابة للمؤمنين بخصوص الوقائع وأمور الدنيا والآخرة ، فليس من حصر لميادين الإستجابة من الله عز وجل ، لتشمل موضوع الدعاء وغيره .

الخامس والعشرون : قانون نفع دعاء الحي للمعدوم ممن مات ومن لم يولد بعد .

(١) سورة الكهف ٤٦ .

السادس والعشرون : قانون النفع العظيم من الإمتثال والعمل بأحكام الآية القرآنية .

السابع والعشرون : قانون من الإرادة التكوينية وهو حفظ الله لكل عمل للمؤمنين والمؤمنات وإثابتهن عليه كالصلاة والصيام والزكاة ، وان لم يلاقوا الأذى في سبيل الله .

الثامن والعشرون : قانون التأخي بين الرجال والنساء من المؤمنين ، وبينما كان العرب يغزو بعضهم بعضاً ، ويسبون النساء والصبيان الذين لا حول لهم ، صارت النسوة أخوات للرجال بصفة الإيمان فانقطع الغزو والسبي بينهم لإدراك المسلم لقانون حرمة سبي أخواته .

التاسع والعشرون : قانون موضوعية الهجرة في بناء صرح الإسلام ، وذكرت في آية بصيغة الإطلاق ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾^(١).

الثلاثون : قانون جهاد الصبر.

الواحد والثلاثون : قانون التفاؤل ووجوب العناية بالبنات وحسن تربيتهن .

الثاني والثلاثون : قانون نهى آيات إكرام المرأة عن إيذائها .

الثالث والثلاثون : قانون استئصال الوأد .

الرابع والثلاثون : قانون تعزيد السنة النبوية للقرآن ، بتأكيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحرمة وأد البنات.

الخامس والثلاثون : قانون حاجة الناس للآية القرآنية وما فيها من التشريع.

السادس والثلاثون : قانون حجب المشركين عن تشويه التنزيل .

السابع والثلاثون : قانون عجز الذين كفروا عن صرف الناس عن آيات التنزيل والإصغاء لها.

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

الثامن والثلاثون : قانون قبح الوأد واتصال مضامين هذا القانون إلى يوم القيامة ببركة القرآن .

التاسع والثلاثون : قانون ملاحقة آية الوأد للذين كفروا في أسفارهم وتقلبهم في البلاد الذي تذكره آية البحث ، فمن خصائص الفطرة الإنسانية الكره لمن يقوم بقتل المولودة خشية الإملاق والفقر .

الأربعون : قانون مصاحبة الرزق الكريم للإيمان إذ توالى النعم على المسلمين وأهل الجزيرة ببركة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الواحد والأربعون : قانون أن يكذب قوم بالرسالة فإن الله عز وجل يأتي بقوم يؤمنون بها ، فتتوالى عليهم الخيرات ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا

يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(١).

الثاني والأربعون : قانون التهجير عناء وشدة .

الثالث والأربعون : قانون كل آية كونية تقرب الناس إلى عبادة الله .

الرابع والأربعون : قانون كل آية قرآنية خطاب لأولي الأبواب للإخلاص في عبادة الله .

الخامس والأربعون : قانون الدعاء عبادة لله عز وجل .

السادس والأربعون : قانون تباين الناس في الحال والمزاج ، فهذا التقريب مثل بصمة اليد وبصمة العين وكل واحدة منهما لا تجتمع عند اثنين من البشر .

السابع والأربعون : قانون تعدد الخزي الذي يلحق الذين كفروا .

الثامن والأربعون : قانون خزي الكافرين حتمي .

التاسع والأربعون : قانون الخزي يوم القيامة اشد بمراتب من الخزي في الحياة الدنيا .

الخمسون : قانون اجتماع الخزي والعذاب الأليم على الكافرين يوم القيامة .

الواحد والخمسون : قانون تقلب الذين كفروا وبال عليهم .
الثاني والخمسون : قانون مصاحبة الوعيد الإلهي للمؤمنين .
الثالث والخمسون : قانون حرمان الذين كفروا أنفسهم من الوعد الإلهي .

الرابع والخمسون : قانون تغشي الوعد الإلهي للدنيا والآخرة .
الخامس والخمسون : قانون الدعاء للدنيا والآخرة ، وبيان قانون وهو لو تردد الأمر بين إرادة الدنيا والآخرة أو الدنيا وحدها ، أو الآخرة وحدها ، فالصحيح هو قانون أصالة الإطلاق في الدعاء ، وإرادة عالم الدنيا والآخرة مجتمعين ومتفرقين^(١) .

السادس والخمسون : قانون حاجة الناس في الدنيا في والآخرة لنداء (ربنا) .

السابع والخمسون : قانون وصول آيات القرآن للناس جميعاً .
الثامن والخمسون : قانون إنعدام الحاجز والبرزخ بين الناس وبين التنزيل .

التاسع والخمسون : قانون الدعاء شاهد التضاد بين الإيمان والكفر .
الستون : قانون انتشار الإسلام بالصبر والبرهان .
الواحد والستون : قانون انتشار الإسلام بالحكمة والحجة والمعجزة والبرهان وليس بالقتال .

الثاني والستون : قانون وجوب التصديق بالوعد الإلهي .
الثالث والستون : قانون انحسار دولة الذين كفروا .
الرابع والستون : قانون هلاك الطغاة الظالمين .
الخامس والستون : قانون رجوع الناس جميعاً إلى الله في الآخرة ليقفوا بين يديه للحساب والجزاء .

السادس والستون : قانون دعاء المؤمنين إنذار للكافرين .

(١) انظر الجزء الثاني والستين بعد المائتين من هذا السفر ص ٧٥ .

السابع والستون : قانون التضاد بين المؤمنين والذين كفروا.
الثامن والستون : قانون تسلم الكافر كتاب وصحيفة الأعمال في اليد اليسرى ومن الخلف.

التاسع والستون : قانون بيان وإخبار القرآن مناسبة للدعاء والنجوى .
السبعون : قانون عمارة القرى والبلدان بالصلاة في أول أوقاتها.
الواحد والسبعون : قانون قول (الحمد لله) واقية من الاغترار بالذين كفروا .
الثاني والسبعون : قانون الدعاء بالأعم.
الثالث السبعون : قانون الملازمة بين الكفر والعذاب الأخروي .
الرابع والسبعون : قانون الدعوة الرسالية العلنية العامة للإيمان بالله والنبوة والتنزيل.

الخامس والسبعون : قانون دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإيمان ولإنشاء أمة مؤمنة والحجة على الناس.
السادس والسبعون : قانون احتجاج المسلمين على الذين كفروا وتلاوة آيات القرآن عليهم.

السابع والسبعون : قانون رؤية الذين كفروا المسلمين وهم يؤدون الصلاة وفيه ترغيب لهم بالإسلام .
الثامن والسبعون : قانون منافع المؤمن للمسلمين ، فهو يدعو لنفسه ولهم ، ومن يعرفهم والذين لا يعرفهم .

التاسع والسبعون : قانون مضاعفة حسنات المؤمنين وزيادة الأجر عليها.
الثمانون : قانون عطاء الله أعظم وأكثر من مسائل الدعاء إذ تضمنت عدم تضييع الله لكل عمل صالح عمله المسلم أو المسلمة.
الواحد والثمانون : قانون البيان الذاتي للقرآن.

الثاني والثمانون : قانون عصمة القرآن من التحريف .
الثالث والثمانون : قانون سلامة القرآن من الزيادة أو النقص ، فما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الرابع والثمانون : قانون افتضاح وسقوط التفسير والتأويل المخالف

لمعاني ومقاصد الآية الكريمة .

الخامس والثمانون : قانون التسليم بنزول القرآن من عند الله عز وجل .

السادس والثمانون : قانون إنذار الكافرين الذين يتقلبون في البلاد .

السابع والثمانون : قانون كل ما كان عاقبته إلى النار لا يغتر به .

الثامن والثمانون : قانون زوال مباهج الدنيا عن الذين كفروا بالله

والنبوة .

التاسع والثمانون : قانون ضبط الحالة والکیفیه للمسلمين بأحكام

وقواعد سماوية ثابتة تتجدد مع الزمان تقود إلى التقوى .

التسعون : قانون منع القرآن المسلم من الإرتداد .

الواحد والتسعون : قانون نفاذ دعوة القرآن إلى شغاف القلوب .

الثاني والتسعون : قانون تأكيد الخاص للعام ، وهذا القانون مستحدث

هنا فما يصيب آل فرعون بسبب شركهم يصيب المشركين عامة ، مع بيان

نكتة في المقام وهي أن رؤساء الكفر أشد عذاباً يوم القيامة .

الثالث والتسعون : ذات الآية القرآنية قانون وضبط لأنماط السلوك .

الرابع والتسعون : قانون تقييد المسلمين بأحكام القرآن ، والنسبة بينها

وبين الأوامر والنواهي عموم وخصوص مطلق .

الخامس والتسعون : قانون الأجر والثواب في التقيد والإمتثال للأوامر

والنواهي القرآنية .

السادس والتسعون : قانون كل أمر ونهي في القرآن هو من عند الله عز

وجل .

السابع والتسعون : قانون تقريب الله عز وجل المسلمين إلى الإمتثال

للأوامر والنواهي القرآنية وإعانتهم في مسالك هذا الإمتثال .

الثامن والتسعون : قانون كل أمر ونهي في القرآن له ما يبينه ويؤكدده ، في

آيات القرآن الأخرى .

التاسع والتسعون : قانون النعم الظاهرة عند الذين كفروا لا تمنع من

استيلاء الألم والحسرة والحزن عليهم .

المائة : قانون الملازمة بين الإيمان والصبر.

الواحد بعد المائة : قانون آيات القرآن حرز مصاحب في الحل والسفر .

الثاني بعد المائة : قانون الذين كفروا وأعمالهم غير خافية على الله عز وجل.

الثالث بعد المائة : قانون لا يمتنع أحد عن حساب الله للناس .

الرابع بعد المائة : قانون قبح تسخير الذين كفروا للنعم الإلهية في معصية الله

الخامس بعد المائة : قانون التباين بين المؤمنين والذين كفروا في ذات

الفعل ، فالمؤمن إذا تقلب في البلاد فانه يتنقل فيها بطاعة الله ، ويكون شاكراً له سبحانه.

السادس بعد المائة : قانون التقريب إلى الإيمان .

السابع بعد المائة : قانون الكفر طارد للنعم.

الثامن بعد المائة : قانون النعم عند الكافرين استدراج ووبال عليهم .

التاسع بعد المائة : قانون وجوب المبادرة إلى التوبة .

العاشر بعد المائة : قانون الآية القرآنية غضة طرية إلى يوم القيامة .

الحادي عشر بعد المائة : قانون لكل مقام مقال .

الثاني عشر بعد المائة : قانون الإقامة على الجحود بلاء وضرر.

الثالث عشر بعد المائة : قانون محق ومحو الكفر لنعمة التنقل في البلاد.

الرابع عشر بعد المائة : قانون ﴿تَقَلَّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ استدراج لهم.

الخامس عشر بعد المائة : قانون في الإمتناع عن الاغترار بتقلب الذين

كفروا أجر عظيم .

السادس عشر بعد المائة : قانون التقلب في البلاد.

السابع عشر بعد المائة : قانون عدم استدامة تقلب الذين كفروا في

البلاد.

الثامن عشر بعد المائة : قانون استئصال الكفر .

التاسع عشر بعد المائة : قانون الوعد الإلهي.

العشرون بعد المائة : قانون الجزاء على التوفيق والنجاح في الإختبار ، وليس

من حصر لمصاديق هذا الجزاء إذ يتجلى بالأمن وتوالي النعم في الدنيا.

الواحد والعشرون بعد المائة : قانون إعجاز نظم الآيات.
 الثاني والعشرون بعد المائة : قانون الإستجابة فرع حب الله.
 الثالث والعشرون بعد المائة : قانون حب الله باعث على العمل
 الصالح.

الرابع والعشرون بعد المائة : قانون الملازمة بين الكفر والرعب .
 الخامس والعشرون بعد المائة : قانون القبح الذاتي للشرك وترتب البلاء
 عليه في الدنيا ، والتقاء الملك الذي أراد الإعتداء على إبراهيم وأهله مع
 كفار قريش بالشرك بالله .

السادس والعشرون بعد المائة : قانون سوء عاقبة الظالمين ، قال تعالى
 ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

السابع والعشرون بعد المائة : قانون الإيمان يظهر حسنه الضد.
 الثامن والعشرون بعد المائة : قانون التضاد بين الإيمان والكفر .
 التاسع والعشرون بعد المائة : قانون التضاد بين الشكر لله والجحود .
 الثلاثون بعد المائة : قانون ترتب الثواب على الإيمان .
 الواحد والثلاثون بعد المائة : قانون ترتب العقاب على الكفر.
 الثاني والثلاثون بعد المائة : قانون طاعة المهاجرين والأنصار لله والنبى
 محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه الطاعة التي كانت تفرع الكافرين .
 الثالث والثلاثون بعد المائة : قانون حلاوة الإيمان وحسنه الذاتي ،
 وبعث النفرة في نفوسهم من الكفر ومفاهيم الضلالة.

الرابع والثلاثون بعد المائة : قانون الإسلام سلم مقرون بالصالح .
 الخامس والثلاثون بعد المائة : هل يمكن القول بقانون كل ذنب وفعل منهى
 عنه في القرآن هو من الكبائر ، الجواب لا ، إلا مع الإصرار في الصغائر .
 السادس والثلاثون بعد المائة : قانون حرمان الذين كفروا من الشفاعة.

السابع والثلاثون بعد المائة : استحقاق المشفوع له للشفاعة قانون عام
وهو التوحيد ، والحيثية الخاصة في أفعال العبد وبيئته وأحواله .

الثامن والثلاثون بعد المائة : قانون من خصائص نعت الذين كفروا
حرمانهم من الشفاعة ومن مصاديق كفرهم هو إنكار الشفاعة التي هي فرع التصديق باليوم الآخر ، وعالم الحساب .

التاسع والثلاثون بعد المائة : قانون التخفيف في الأحكام.

الأربعون بعد المائة : قانون كل آية من القرآن تيسير .

الواحد والأربعون بعد المائة : قانون السنة النبوية تيسير .

الثاني والأربعون بعد المائة : قانون الملازمة بين الحياة والصبر.

الثالث والأربعون بعد المائة : قانون تلقي مرارة الأذى بحلاوة التسليم
والرضا بالمشيئة الإلهية والقدر .

الرابع والأربعون بعد المائة : قانون آيات القرآن تخفيف عن المكلفين .

الخامس والأربعون بعد المائة : قانون السنة النبوية تخفيف آخر بالوحي
من عند الله عز وجل .

السادس والأربعون بعد المائة : قانون شمول الأوامر والنواهي القرآني
لأعمال القلوب ، والكيفية النفسانية .

السابع والأربعون بعد المائة : قانون الإمتناع عن الاغترار بالذين كفروا
وتقلبهم في البلاد .

الثامن والأربعون بعد المائة : قانون أداء الصلاة في أوقاتها .

التاسع والأربعون بعد المائة : قانون حضور القلب في الصلاة الذي هو
فرع الطمأنينة فيها.

الخمسون بعد المائة : قانون وهو انتفاع أجيال المسلمين من اللطف
الشخصي ببركة القرآن.

الواحد والخمسون بعد المائة : قانون البشارة بانحسار قلب الذين كفروا
في البلاد.

الثاني والخمسون بعد المائة : قانون تفقه وتدبر المسلمين بالآية القرآنية .

الثالث والخمسون بعد المائة : قانون مبادرة عمل المسلمين بآية البحث ،
والتنزه عن الاغترار بالذين كفروا .

الرابع والخمسون بعد المائة : قانون التنافي بين الخصال الحميدة للملائكة
وبين الإحتجاج .

الخامس والخمسون بعد المائة : قانون الإبتلاء بالذين كفروا .

السادس والخمسون بعد المائة : قانون الجهاد بالقول المقرون بالصبر ،
ونعت أبي جهل ذم له .

السابع والخمسون بعد المائة : قانون الملازمة بين الكفر والجهل ، وتحذير
الناس من إتباعه .

الثامن والخمسون بعد المائة : قانون الملازمة بين الإيمان والبصيرة .

التاسع والخمسون بعد المائة : قانون الدنيا دار التخفيف عن المؤمنين
والناس .

الستون بعد المائة : قانون الرؤيا بشارة ورحمة .

الواحد والستون بعد المائة : قانون مصاحبة رؤيا البشارات والإنذارات
للناس في كل زمان ومكان ، فتأتي للبر والفاجر ، وهو من مصاديق تغشي
رحمة الله للناس جميعاً .

الثاني والستون بعد المائة : قانون مصاحبة البشارة للمؤمنين في النشاطين .

الثالث والستون بعد المائة : قانون الإرهاب خلاف التقوى .

الرابع والستون بعد المائة : قانون بعث الرؤيا الصادقة للمبادرة إلى
الدعاء لتحقيق رؤيا البشارة ، وصرف رؤيا الإنذار .

الخامس والستون بعد المائة : قانون خزائن كلمات القرآن أعم من أن
تحيط بها قواعد النحو .

السادس والخمسون بعد المائة : قانون الخلافة في الأرض سور الموجبة
الكلية .

السابع والستون بعد المائة : قانون الخلافة في الأرض أمانة دينوية يترتب
عليها الحساب في الآخرة .

الثامن والستون بعد المائة : قانون جحود الذين كفروا والمشركين مطلقاً
 بنعمة الخلافة في الأرض ومنها تقلبهم في البلاد ومقدمات هذه الخلافة.

التاسع والستون بعد المائة : قانون الصلح خير من القتال .

السبعون بعد المائة : قانون الصلح خير من الخصومة .

الواحد والسبعون بعد المائة : قانون الصلح خير من سفك الدماء
 بالإقتال.

الثاني والسبعون بعد المائة : قانون الصلح خير لأطراف الصلح
 وغيرهم.

الثالث والسبعون بعد المائة : قانون الصلح خير للناس في عباداتهم
 ومعاشاتهم .

الرابع والسبعون بعد المائة : قانون المنع من الإفتتان بالمشركين ، وحال
 السعة والدعة التي هم عليها ، والظن بالتركة لأولادهم الذين ما لبثوا حتى
 دخلوا الإسلام .

الخامس والسبعون بعد المائة : قانون الغنى بالتسليم بالفقر لله عز وجل .
السادس والسبعون بعد المائة : قانون تعضيد السنة النبوية للقرآن في نهيه
 عن الإغترار بالمشركين ، وتنقلهم بين الأمصار .

الثامن والسبعون بعد المائة : قانون الجمع بين المتضادين في الخطاب
 القرآني.

التاسع والسبعون بعد المائة : قانون قتال الذين يقاتلون المسلمون دون
 غيرهم .

الثمانون بعد المائة : قانون آية البحث تخفيف .

الواحد والثمانون بعد المائة : قانون الفقاهة سلاح .

الثاني والثمانون بعد المائة : قانون وقاية المسلمين من الإفتتان بالذين كفروا .

الثالث والثمانون بعد المائة : قانون ظلم الذين كفروا لأنفسهم وغيرهم .



ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

- ١- خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز/ ملك المملكة العربية السعودية "حفظه الله"
- ٢- صاحب السمو رئيس وزراء دولة الكويت.
- ٣- صاحب السمو الملكي أمير منطقة الرياض
- ٤- صاحب السمو الملكي أمير منطقة مكة المكرمة .
- ٥- صاحب السمو الشيخ وزير خارجية مملكة البحرين.
- ٦- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
- ٧- الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي.
- ٨- سماحة الإمام الأكبر شيخ الأزهر.
- ٩- سماحة العلامة الشيخ أ.د مفتي جمهورية مصر العربية.
- ١٠- سيادة مستشار الأمن القومي .
- ١١- سماحة العلامة المفتي العام لسلطنة عمان .
- ١٢- المدير العام لمنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة/ إيسيكو
- ١٣- الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب.
- ١٤- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل/ المملكة العربية السعودية
- ١٥- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان/ الجمهورية السودانية.
- ١٦- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية/ المدينة المنورة .
- ١٧- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية /العراق .
- ١٨- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا/ الأردن.
- ١٩- سعادة أ.د. رئيس جامعة القادسية / العراق.
- ٢٠- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر/ الجزائر.
- ٢١- سعادة أ.د. رئيس جامعة سومر/ العراق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المملكة العربية السعودية
وزارة الداخلية
(١٧٤)
إمارة منطقة الرياض
(٠٠١)
مكتب الأمير
إدارة العلاقات العامة

فضيلة الشيخ / صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:-

تلقينا خطابكم رقم ٢٢٤ وتاريخ ١٤٣٠/٥/٤ هـ .. ومشفوعه نسخة من كتابكم (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء (٦٧).

نشكركم على هذا الإهداء متمنين لكم دوام التوفيق.. ولكم تحياتنا. ،،،

أمير منطقة الرياض

سلمان بن عبدالعزيز

The Prime Minister
State of Kuwait



رئيس مجلس الوزراء
دولة الكويت

سماحة الأخ الكريم الشيخ/ صالح الطائي المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

تحية طيبة وبعد...

تلقينا مع الشكر تهنتكم الكريمة بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك، مع إهدائكم
الطيب من الجزء الحادي والخمسين من تفسير "معالم الإيمان" والذي تناولتم فيه
تفسير قوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ الآية ١١٠ من سورة آل عمران.
ويسرنا ان نعرب لكم عن خالص تقديرنا لمبادرتكم الكريمة، مشيدين بجهودكم الطيبة
التي تبذلونها لخدمة الإسلام، وإيضاح معاني الكتاب الشريف، آملين ان تسهموا
بهذا العمل الصادق في تقريب المقاصد الربانية للآيات بما يعود بالخير على أمتنا
الإسلامية.

نكرر الشكر، آملين لكم دوام التوفيق والسداد في خدمة كتاب الله، وان يحفظ أمتنا
العربية والإسلامية، ويجمع كلمة المسلمين ويوحدتهم لما فيه خيرهم.
مع أطيب التمنيات.

ناصر المحمد الأحمد الجابر الصباح



الكويت في: 13 محرم 1429 هـ
الواثق: 22 يناير 2008 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المملكة العربية السعودية
وزارة الداخلية
(٢٧٢)
إمارة منطقة الرياض
(٠٠١)
مكتب الأمير
إدارة العلاقات العامة

فضيلة الشيخ / صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

تلقينا خطابكم رقم ٤٥٥ في تاريخ ٢٠١٢/٥/١٩ م ومشفوعة بنسخة
من كتاب الجزء الثاني والتسعين من التفسير من القسم الثاني من
تفسير الآية (١٣٥) من سورة (آل عمران).

نشكركم على هذا الإهداء متمنين لكم دوام التوفيق. ولكم

تحياتنا...،،،

امير منطقة الرياض

سطان بن عبدالعزيز



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَهُدًى كَرِيمًا
وَزَارَةُ الدَّخْلَةِ
إِمَارَةُ مَنَاطِقِ الْمَكَّةِ
الدراسات والعلاقات العامة

المحترم

سعادة الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إشارة إلى خطابكم رقم ١٦/٧٨١ وتاريخ ٢٠١٦/٢/١٨
والمرفق به الجزء الثامن والعشرون بعد المائة من (معالم الإيمان في
تفسير القرآن).

نشكركم على ذلك متمنين التوفيق للجميع، ولكم تحياتنا.
والسلام عليكم.

خالد الفيصل

مستشار خادم الحرمين الشريفين

أمير منطقة مكة المكرمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكتب الوزير
Minister's Officeمملكة البحرين
وزارة الخارجية

23 نوفمبر 2016

فضيلة الشيخ محمد الشيخ صالح الطائي المحترم مدير مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،
تسلمت بجزيل الشكر نسخة من الجزء الأربعين بعد المائة من
تفسيركم المستير وتدبركم الحكيم في الآية القرآنية الكريمة
[وَلَنْ تُمْسُكُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ] مقدراً ما بذلتموه من جهد كبير
وما استبطلتموه من مسائل وقوانين تفيد كافة المسلمين ، مقدراً
جهودكم الدينية والتوعوية الملموسة والدؤوبة، سائلاً الله تعالى لكم
موفور الصحة والعافية ودوام التوفيق والسداد.

وتفضلوا بقبول فائق تحياتي.

١ فر ٢

خالد بن أحمد بن محمد آل خليفة

وزير الخارجية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIATORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRETARIAT GENERAL

OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي حفظه الله ورعاه
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،

فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.

أحمد القبروني

مستشار الأمين العام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلس الشورى لدراسة وإحياء التراث - اللجنة العامة

العدد ٩٠ - ج ٢٦٥

الطبعة ٢٠١٢ / ٨ / ٢٠

الطبعة ٢٠٠٧ / ٩ / ٢٠



مكتب الأمين العام

فضيلة الشيخ الجليل/صالح الطائي المحترم

المرجع الديني _ أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق.

المنامة - مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بوافر التقدير، تلقينا إهداءكم الكريم نسخة من الجزء السابع والأربعين من تفسير "معالم الإيمان في تفسير القرآن".

يطيب لي، بهذه المناسبة، أن أعرب لفضيلتكم عن التقدير والثناء على جهودكم العلمية الحثيثة، وإسهاماتكم الموفقة من خلال تعاهدكم كتاب الله العزيز، وحبله المتين، الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

شاكراً تفضلكم بالإهداء القيم، ومشهداً، على نحو خاص، بما تشتمل عليه إصدارات أجزاء التفسير من البحث العميق والاستقراء الشامل والاستنباط الدقيق الذي يجسد حقيقة الإعجاز الذي تناولتموه فضيلتكم بعمق وشمولية، ويسند ذلك ما توافر لكم من العلم الغزير والفقه المتمكن والمرجعية العريقة. بارك الله جهودكم، وأمدكم بعونه وتوفيقه، وكتب لكم المثوبة والأجر، وجزاكم خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين.

وتفضلوا فضيلتكم بقبول وافر التقدير والاحترام.

عبد الرحمن بن حمد العطية

الأمين العام

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

٢٩ / ٥
٢٨ / ٤ / ٥

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ/ صالح الطائي
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد،.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي
والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم.
نتضرع إلى الله العلي القدير أن يلهمكم العلم النافع وان يجعله
في ميزان حسناتكم.
وشكر الله لكم حسن عملكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر
مكتبة

(الدكتور/ محمد سيد طنطاوي)

في: ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس

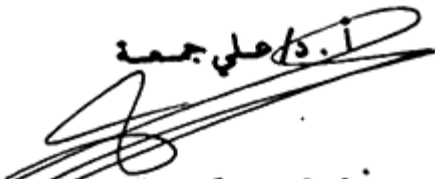
بسم الله الرحمن الرحيم



المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،
فإنه ليسعدني أن أتقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير والإحترام
على تفضلكم بإهدائنا نسخة من من الجزء الثاني والثمانين.
وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ
عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ. د. علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

Republic of Iraq
Prime Ministers
National Security Advisory



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رئاسة الوزراء
مستشارية الأمن القومي

العدد: ٢٢٥١
التاريخ: ٢٠٢١ / ١١ / ٦

مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي (دامت بركاته)

السلام عليك عليكم ورحمة الله وبركاته
ببالغ الإمتنان والغبطة تلقينا هديتكم الكريمة (الجزء السادس
عشر بعد المائتين) من التفسير المبارك شاكرين حسن معالجتكم
لهذا الموضوع المهم ونشد على عضدكم لتقدموا للأمة كل ما
ينفعهم وينير بصيرتهم ويجلي الرين عن قلوبهم ليفهموا كتاب الله
كما أراد سبحانه أن يفهموه ويعملوا بأحكامه ليكون لهم في
الدنيا، مرشدا وفي الآخرة شفيعا. ونضع أنفسنا وامكاناتنا
لخدمة هذا المجهود المبارك سائلين المولى القدير أن يوفقكم لكل
خير.

مع خالص الدعاء

أخوكم

قاسم الأعرجي

مستشار الأمن القومي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

کوټ ماری عیراق

داد کای بالایی ئیتتیجادی



جمهورية العراق

المحكمة الاتحادية العليا

العدد : ٥٥ / مکتب / ٢٠٢١

مكتب رئيس المحكمة

التاريخ: ٢٠٢١ / ٩ / ١٦

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

تحية طبية

تلقينا ببالغ الاعتزاز اهداءكم القيم (الجزء (٢٢٣)
من تفسيركم للقرآن خاصاً بالآية (١٨٨) من
سورة آل عمران.
نقدم شكرنا وتقديرنا مع وافر التقدير .

القاضي
جاسم محمد عبود

رئيس المحكمة الاتحادية العليا

२.२१/१/१६

Sultanate of Oman
Ministry of Endowments
and Religious Affairs
Al Ifta Office



سُلْطَنَةُ عُومَانْ
وَزَارَعَةُ الْإَوْقَافِ وَالشَّيْءُونَ الدِّينِيَّةِ
مَكْتَبُ الْإِفْتَاءِ

No. :

Date : / / 142

/ / 200

الرقم : ٣٢٠ / ٩٩ / ٢٦ / ٢٠١١

التاريخ : ١٤٣٢ / ١ / ٩٩

: ٢٠١١ / ١ / ٩

المحترم

فضيلة الشيخ العلامة صالح الطائي

مكتب المرجع الديني

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فبيد الشكر والتقدير تلقيت خطابكم المؤرخ في ٢٠١٠/١١/٢م المرفق به هديتكم المباركة كتاب تفسير القرآن الجزء الثمانون .

شاكراً لكم تواصلكم الدائم معنا، والله يوفقكم لما فيه الخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أحمد بن محمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان





إيسيسكو
ICESCO

المدير العام

Director General

Directeur général

الرباط، في : 15 نونبر 2024

الرقم : مدع./14/ 0723

فضيلة الشيخ صالح الطائي
المرجع الديني
وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
المنامة – مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،
فإنه ليسعدني أن أتقدم لفضيلتكم بخالص الشكر على
تفضلكم بإهدائنا الجزء الرابع والخمسين بعد المائتين من
تفسيركم " معالم الإيمان ".
وإذ نقدر جهودكم العلمية المتواصلة في خدمة كتاب الله
وتفسيره ، أرجو أن تتفضلوا فضيلتكم بقبول فائق التقدير
وبالغ الاحترام .

المدير العام

د. سالم بن محمد المالك



Council Of Arab Economic Unity
Subsidiary to Arab League
Union of The Arab Historians
General Secretary



مَجْلِسُ الْوَحْدَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتَابِعُ لِنَجْمَةِ الدَّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ
اتِّحَادُ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ
الْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ

العدد : ت/ ٢٨٠
التاريخ : ٢٥ ذو الحجة ١٤٤٢
الموافق : ٢٠٢١ / ٨ / ٤

إلى/ سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.
عزيزي سماحة الشيخ المحترم :

تسلمت بمزيد من الفخر والاعتزاز الجزء (الواحد والعشرين بعد المائتين) من موسوعة (معالم الإيمان في تفسير القرآن) وهو الجزء الخاص بقانون (النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب) التي تدلل على ما حباكم الله تعالى به من رعاية ربانية علمية في انجاز هذا العمل العلمي الكبير ، وهو أول عمل علمي في العالم الإسلامي بهذا الحجم وبهذا العمق وبهذا المنهج ، وأسأل الله تعالى أن يديم عليكم نعمة العافية والستر والتوفيق والسداد من أجل تقديم المزيد من العطاء الفكري والعلمي في هذا التخصص النادر ، والله يحفظكم ويرعاكم بعين حفظه ورعايته إنه سميع مجيب الدعاء.

أكرر شكري وتقديري وامتناني العظيم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

م
الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي
والتراث العلمي للدراسات العليا



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة الإسلامية
بجامعة الإمام
محمد بن عبد
الواحد
(٠٣٧)

الموضوع:

فضيلة الشيخ / مدير مكتب المرجع الديني للشيخ صالح الطائي الموقر
ص.ب. ٢١١٦٨ - المنامة - مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

تلقيت بكل الشناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/٢٤٢٠
وتاريخ ٢٠١٦/١٠/١٦ المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم الإيمان
في تفسير القرآن" الجزء الأربعون بعد المائة.

أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم بتزويد إدارة
الجامعة بهذه النسخة القيمة، وستحال إلى مكتبة الجامعة للإطلاع عليها
والاستفادة منها، سائلا المولى جلت قدرته للجميع التوفيق والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين السعاتي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

النمرة: .. ج ك/م/م/١٧/ح/٣
التاريخ: ٢٠١٦/٧/١١
مكتب المدير
Vice Chancellor Office

السادة/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا، مقرونة بأحر التهاني وأبهى التبريكات بمناسبة عيد الفطر المبارك، أعاده الله علينا وعليكم والأمة المسلمة بالخير واليمن والبركات، وعظفاً على خطابكم الصادر بتاريخ ٢٠١٦/٥/٢٠ بالرقم ١٦/١٨٥٧، والمرسل معد إصدار الجزء الثاني والثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) فإن الواجب يقتضي أن نزجي لكم وافر الشكر وفائق التقدير على هذا المدد والفيض العميم من العلم القرآني النافع، ترسيخاً لمعاني التدبر، وتحريكاً للملكة العقل من الجمود، فهي المعرفة ذات الحدود الواسعة، لاكتشاف مكنونات عظمة هذا القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تعظيماً لقدرة الله جل وعلا والإعتراف له بالوحدانيه، وهذا ما يقوم به مكتب المرجع الديني لخدمة الإسلام والمسلمين عبر مؤسساتهم الأكاديمية والعلمية والبحثية، وختاماً لا يسعنا إلا أن نقول جزاكم الله خيراً وأن يتقبل منكم هذا العمل المبارك، وكل عام وأنتم بخير.

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبدالله عجب الدور
مدير الجامعة



الرقم: ١١٤٦٠ / ١ / ١٧٢
 التاريخ: ١٠ / ٢ / ١٤٣٦ هـ
 الملاحظات:
 الموضوع:



الجمهورية العربية السورية
 وزارة التعليم العالي
 الجامعة الإسلامية
 مكتب المدير
 (٠٣٢)

سلمه الله

معالي الشيخ/ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

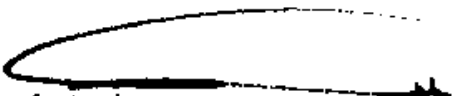
فأسال الله لمعاليكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أقدم لمعاليكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تحياتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية


 أ.د / عبدالرحمن بن عبدالعزيز السعيد

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد: ٢٩٢ / ١
التاريخ: ٢٠١٦ / ٤ / ١٠
١٤٣٧ / ١ / ١٠

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.

ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين

رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م



بسم الله الرحمن الرحيم

Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref. _____

Date _____

الرقم ١٧١١٠٨١٤٦

التاريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م

الموافق ١٠/٦/١٤٣٤هـ

سيادة الأخ الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر وإعزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢)
تاريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية (١٣٣)
من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا،
سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن
يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة


أ. د محمد الطعامنة

Republic of Iraq
Ministry Of Higher Education
and Scientific Research
University of Al-Qadisiya
Chief of University Office



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية
مكتب رئيس الجامعة

Ret :

Date:

العدد: ٢٠١٥ / ٢

التاريخ: ٢٠١٥ / ٢ / ٩

إلى / مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

م/شكر على اهداء

تحية طيبة ...

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير الجزء السابع بعد المائة من التفسير وهو القسم الأول من تفسير (أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) شاكرين لكم اهداءكم متمنين لكم مزيداً من الإرتقاء والأزدهار والتطور.

...مع التقدير

أ.د. أحسان كاظم شريف القرشي

رئيس الجامعة

٢٠١٥/٢/

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

رئاسة الجامعة



قسنطينة في: 25/03/2015

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة
الرجوع: ٠١/٠٤/٢٠١٤

إلى السيد المحترم/الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني

شكر وتقدير

تحية طيبة وبعد :

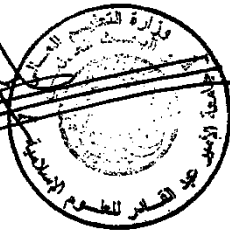
تلقينا نحن أ.د/ عبدالله بو خلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتقاة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة

أ.د. عبدالله بوخلخال
مدير الجامعة



Republic of Iraq
Ministry of Higher Education
and Scientific Research
University Of Sumer
Bureau Of University President



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة سومر
مكتب رئيس الجامعة

Ref :

Date : / / 2017

العدد : ٥٦٧ / ٤ / ٦

التاريخ : ٢٠١٧ / ٩ / ٢٠

اعتماد الجودة دليل تقدم جامعتنا

مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تلقينا إهداءكم لنا نسخة من الجزء الخامس والخمسين بعد المائة
من معالم الإيمان في تفسير القرآن لا يسعنا إلا أن نتقدم
لشخصكم الكريم بالشكر الجزيل متمنين لكم دوام
الصحة والعافية، وأن يجعلكم سندا وذخرا للأمة الإسلامية
متمنيا لكم كل التقدير والإزدهار.

مع وافر التقدير والاحترام

أ.د. قاسم نايف علوان المحياوي
رئيس الجامعة وكالة

٢٠١٧/٩/٢٠



الفهرس

المقدمة	٣
قوله تعالى ﴿لَا يَغْرُنْكَ تَلَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ الآية ١٩٦	١٣
الإعراب واللغة	١٣
سياق الآيات	١٥
الوجه الأول : الصلة بين آية البحث والآية السابقة	١٥
من معاني ﴿تَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾	٣٢
قانون متاع الكافرين قليل	٣٣
تقدير الجمع بين الآيتين	٣٥
قانون التباين والتضاد في الآخرة	٣٥
كم مرة حج النبي (ص)	٣٧
صيغة الجمع (جنات)	٣٨
تقسيم مستحدث لمعجزات النبي (ص)	٤٠
دلائل الإستجابة	٤١
قانون جهاد الصبر	٤٥
الإعجاز الغيري في آية الوأد	٤٧
قانون استئصال الوأد	٥١
مسائل في معجزة انقطاع الوأد	٥٣

- قانون التهجير عناء وشدة ٥٥
- الوجه الثاني : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^{٥٧} ٥٧
- قانون قلب الذين كفروا وبال عليهم ٦١
- نداء (ربنا) حصن ٦٢
- قانون الدعاء شاهد التضاد بين الإيمان والكفر ٦٤
- قانون انتشار الإسلام بالصبر والبرهان ٦٦
- قانون وجوب التصديق بالوعد الإلهي ٦٧
- قانون دعاء المؤمنين إنذار للكافرين ٦٨
- قانون التضاد بين المؤمنين والذين كفروا ٦٩
- آية ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ باعث على الدعاء ٧١
- ذكر الله في آية السياق ٧٢
- قانون الدعاء بالأعم ٧٥
- بشارة انكفاء الذين كفروا ٧٧
- الوجه الثالث : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^{٨٠} ٨٠
- دلائل خاتمة آية السياق ٨٥

- ٨٦ إعجاز الآية الذاتي
- ٩٠ إعجاز الآية الغيري
- ٩٣ قانون البيان الذاتي للقرآن
- ٩٤ قانون إنذار الكافرين الذين يتقلبون في البلاد
- ٩٥ إعجاز صيغة العموم
- ٩٦ الآية سلاح
- ٩٧ مفهوم الآية
- ١٠٠ إفاضات الآية
- ١٠٢ الآية لطف
- ١٠٤ الآية بشارة
- ١٠٥ الآية إنذار
- ١٠٧ الصلة بين أول وآخر الآية
- ١١٠ من غايات الآية
- ١١٣ أسباب النزول
- ١١٤ قانون الملازمة بين الإيمان والصبر
- ١١٦ ملاحقة قريش لمهاجري الحبشة
- ١١٧ غرور الذين كفروا
- ١١٨ التفسير

- ١١٨..... تفسير ﴿لَا يَغُرَّنْكَ﴾
- ١٢٥..... علم المناسبة
- ١٢٥..... إكرام النبي محمد في آية (لا يغرنك)
- ١٢٧..... تفسير ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾
- ١٣٠..... وجوه الكفر
- ١٣٣..... قانون التقريب إلى الإيمان
- ١٣٥..... قانون الكفر طارد للنعم
- ١٣٦..... علم المناسبة
- ١٣٨..... بحث بلاغي
- ١٤٠..... التفسير بالتقدير
- ١٤٣..... قانون التقلب في البلاد
- ١٤٦..... بين القسم واليمين
- ١٤٧..... قانون الوعد الإلهي
- ١٤٩..... النجاة من عذاب القبر في البرزخ
- ١٥١..... قانون إعجاز نظم الآيات
- ١٥٢..... قانون الإستجابة فرع حب الله
- ١٥٤..... الافتتان بالذين كفروا
- ١٥٥..... هجرة إبراهيم (ع)

- ١٥٩..... قانون الإيمان يظهر حسنه الضد
- ١٦١..... رؤيا الملوك إنذار
- ١٦٤..... قانون التضاد بين الإيمان والكفر
- ١٦٦ من الذين عذبهم قریش
- ١٦٨ من المسلمات الأوائل
- ١٧٠..... عجز المشركين عن التقلب في البلاد
- ١٧٣..... قدوم وفد ثقیف إلى المدينة
- ١٧٤ وفد ثقیف في المسجد النبوي
- ١٧٧..... إخراج المؤمنین نفع عام
- ١٧٩ هل تنال الشفاعة منكرها
- ١٨١..... قانون حرمان الذين كفروا من الشفاعة
- ١٨٢ شروط الشفاعة
- ١٨٣..... بحث كلامي
- ١٨٤ قانون التخفيف في الأحكام
- ١٨٦ أبواب جديدة في تفسير الآية القرآنية
- ١٨٧..... قانون الملازمة بين الحياة والصبر
- ١٨٩ النسبة المنطقية بين معركة أحد ومعركة حنين
- ١٩٠..... معجزات النبي محمد (ص) الذاتية ، ومعجزاته الغيرية

- ١٩٥..... قانون السنة النبوية تخفيف
- ١٩٨ من صيغ العموم
- ١٩٩..... صلاة الرغائب
- ٢٠١..... بحث أصولي في النهي
- ٢٠٤..... إحصاء العمل الصالح والذنوب في القرآن
- ٢٠٥..... النسخ في الإصطلاح
- ٢٠٧ معاني نسيها
- ٢٠٩..... بين الهم والعزم
- ٢١٢..... أقسام اللطف الإلهي
- ٢١٣ قراءة اللطف في آية البحث
- ٢١٤..... المقولات العشرة
- ٢١٧ مثال للمقولات العشرة
- ٢٢٠..... ميراث الأخوة والأخوات
- ٢٢٢ مسائل في إرث الإخوة
- ٢٢٣..... النسخ الأكبر والأصغر
- ٢٢٧..... خلافة الأرض بلحاظ آية البحث
- ٢٣٠ قانون الإبتلاء بالذين كفروا
- ٢٣١ لماذا كنية أبي جهل

- ٢٣٣ تقدير ﴿الآن خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾
- ٢٣٨ قانون الرؤيا بشارة ورحمة
- ٢٤٠ تفسير ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾
- ٢٤٤ السنة التدوينية / مصطلح جديد
- ٢٤٦ من وثائق السنة التدوينية
- ٢٤٨ النفخ في الصور نفختان
- ٢٥٠ الملك إسرافيل
- ٢٥٢ الوجوه والنظائر في القرآن
- ٢٥٤ مثال على الوجوه والنظائر
- ٢٥٦ قانون خزائن كلمات القرآن أعم من أن تحيط بها قواعد النحو
- ٢٥٩ من معاني الخلافة في الأرض
- ٢٦٢ من معاني الأرض
- ٢٦٣ لفظ (الناس) في آية واحدة
- ٢٦٤ قراءة في ﴿وَالصَّلْحُ خَيْرٌ﴾
- ٢٦٨ زاد الراكب
- ٢٧١ من معاني ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾
- ٢٧٢ بحث نحوي
- ٢٧٣ لماذا ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾

٢٧٦.....	المنادي
٢٧٩.....	(تقلب) بين الحقيقة والمجاز
٢٨١.....	إجتماع الضدين في الخطاب القرآني المتحد
٢٨٤.....	النواهي (بحث أصولي)
٢٨٧.....	بين مادة وصيغة النهي
٢٨٩.....	شواهد من نهى التحريم
٢٩١.....	أقسام النواهي
٢٩٣.....	علم جديد في (لا) الناهية
٢٩٥.....	قانون آية البحث تخفيف
٢٩٦.....	النسبة المنطقية بين النهي والتحريم
٢٩٩.....	قوانين هذا الجزء
	من الردود الكريمة على عدد من أجزاء هذا السفر المبارك..... خطأ! الإشارة المرجعية غير معرفة.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٦٩٦ لسنة ٢٠٢٤